

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر2

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

**التجربة الابداعية لمالك حداد
من خلال مقالاته في جريدة النصر (1965-1968)
ترجمة ودراسة وصفية تحليلية**

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

تخصص: دراسات أدبية ونقدية

إشراف الأستاذ: د. واسيني لعرج

إعداد الطالبة: نادية قمر اوي

السنة الجامعية: 2012-2013

إليك زوجي "كمال" مع خالص حبي وامتناني، شكرا على كل شيء...

إلى والدي ووالدتي وأبنائي وإخوتي ...

إلى كل صديقاتي...

المقدمة

توضّحت لنا من خلال دروس الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية مجالات واسعة للبحث، وخاصة عند الأدباء الذين توقّفوا عن الكتابة بعد الاستقلال (كما شاع عنهم)، ومن بين هؤلاء **مالك حداد** الذي كان العجز عنده في التعبير باللّغة العربية مأساة حقيقية.

كونه لم يُصدر روايات جديدة بعد الاستقلال، لم يمنعه من كتابة مقالات وتقارير عن الأدب والثقافة ومواضيع أخرى موجودة في مجلات وصحف عديدة قبل وبعد الاستقلال. فهذا الإنتاج الموازي يدفع الباحث المهتم إلى تتبعه واكتشاف قيمته الفنية، لأنه من الصّعب تصوّر انعزال كاتب في مثل هذا المستوى وتوقّفه عن الكتابة تماما، أو الحكم عليه بالخروج من الحياة الأدبية، لمجرد توقّف إصداراته الروائية أو الشعريّة.

عرفت جريدة النصر الوطنية التي تصدر في قسنطينة، صفحة ثقافية تحت إشراف **مالك حداد** (كانت الصّحيفة تصدر باللّغة الفرنسية آنذاك)، من فيفري إلى جوان 1967، ثم عادت للظهور بشكل غير منتظم إلى غاية جوان 1968، ثم استؤنفت في مارس 1969، وبعدها من فيفري إلى جوان 1970 (وهذا حسب الكتاب الببليوغرافي **لجون ديجو**) مع أن الأديب كان يكتب في الجريدة منذ عام 1965 وقبل وجود الصّفحة الثقافية، ولم يستمر في الكتابة إلى غاية 1970 (حسب اطلّاعنا الميداني)، رغم استمرار الصّفحة الثقافية. وتوقفت مساهماته في الجريدة عام 1968 لأنه شغل مناصب أخرى بعد هذا التاريخ. ومن هنا جاء العنوان كالتّالي:

" التجربة الإبداعية لمالك حداد من خلال مقالاته في جريدة النصر (1965-1968) ترجمة ودراسة وصفية تحليلية" أكثر دقة.

لقد كانت المادة التي كتبها **مالك حداد** في هذه الفترة (1965-1968) غزيرة جدا، ولم يكن بإمكانني الإلمام بدراستها في المدة المقررة لإنجاز بحث الماجستير، فاستقرّ الأمر على مختارات من هذه المادة تخص القضايا الأدبية والثقافية بالدرجة الأولى، على أن

تأتي النصوص التي تحمل مواضيع أخرى في الدرجة الثانية، إضافة إلى ترجمتها إلى اللغة العربية.

تأسس اختياري للموضوع السالف الذكر على أسباب ذاتية، جعلت أهمها دراسة الأدب الجزائري كأولوية، وذلك لا يعني بأي حال من الأحوال "شوفينية" أدبية، وإنما يفهم الباحث الظاهرة الأدبية إذا كان قريباً منها. إضافة إلى جمع المادة الإعلامية غير المعروفة لمالك حداد ووضعها في متناول القراء بعد أن كانت حبيسة الأرشيف، وترجمة بعضها إلى اللغة العربية لإزالة الحواجز بين الباحث المَعَرَّب واللغة الأجنبية للمدونة المختارة.

أما الأسباب الموضوعية فتمثلت في الكاتب نفسه، وما شاع عنه من توقُّفه عن الكتابة بعد الاستقلال وعن حقيقة صمته، واكتشاف القيمة الفنيّة لهذه المقالات التي تنوّعت بين التحقيق الصحفي إلى التأمّلات والاقصوصة والعمود الصحفي والحكاية.

قامت هذه الدراسة أساساً على تتبّع إنتاج مالك حداد عبر أعداد مختلفة من جريدة النّصر لسنوات متتالية، فرأيت أنّ المنهج الوصفي التحليلي المشفوع بالجمع والترجمة هو الأنسب لهذا الموضوع، لأنه يقوم على أساس تحديد خصائص الظاهرة ووصف طبيعتها ونوعية العلاقة بين متغيّراتها وأسبابها واتّجاهاتها؛ ويعتمد هذا المنهج على تفسير ما هو كائن، ولا يكون مجرد جمع ووصف للبيانات، بل يتعدّها إلى الرّبط والتحليل والتّفسير. وتوصف الظواهر هنا على أساس كمّي أو نوعي. وإلى جانب هذا المنهج لا تخلو الدراسة من المنهج التّاريخي، الذي يتتبّع المسار الأدبي للكاتب عبر فترة زمنية محدّدة، تحكمها ظروف سياسية واجتماعية، تنعكس على النّصوص بشكل من الأشكال، فتجعلها تتميّز بخصائص معينة. (لأن الفترة التي كُتبت فيها هذه المقالات عرفت ظروفًا سياسية واقتصادية واجتماعية خاصة، كانت فيها الدّولة الفنيّة تبحث عن خط سيرها ومكانتها بين الأمم).

جمعتُ مقالات المدوّنة المدروسة على أساس ما ائتلف من مواضيعها، في تسلسل منطقي يقيم علاقات متينة بين المواضيع في الفصل الواحد؛ فجاء البحث مقسما إلى ثلاثة فصول، تسبقها مقدمة وتليها خاتمة كحوصلة ونتيجة وإجابة، لما كان قد طرح في مقدمة البحث.

جاء الفصل الأول ترجمة لأهم المقالات التي خضعت للتّحليل في الفصلين اللاحقين (الاستعمار-المدرسة- الأدب-الثقافة-السياحة-الوسائل السمعية البصرية).

أما الفصل الثّاني فقد خصصته لمواضيع كبرى: الاستعمار والمدرسة والأدب. تقرّعت بدورها إلى عناصر تفصيلية شارحة. وتصدّر الاستعمار هذا الفصل، لأن الكاتب اعتبره سبب كل المآسي والتخلف والآلام، التي ظلّ الشعب الجزائري يجتر نتائجها لفترة طويلة وفي كل المجالات، وهذا ما أثبتته جل المقالات التي اعتمدت عليها.

أما المدرسة التي تُعتبر أول موعد للإنسان مع العالم، فكانت مدرسة كولونيالية في الجزائر المستعمرة، استهدفت الهوية بالدرجة الأولى، فجاءت نتائجها مؤلمة ومدمّرة. ومع ذلك فقد أنتجت رُغما عنها، كُتابا تحدّثوا بلسانها عن واقعهم الخاص، وعقدوا آمالا كبيرة على المدرسة الجزائرية الناشئة.

يفضي موضوع المدرسة مباشرة إلى موضوع الأدب، الذي كان طويلا مقارنة مع المواضيع الأخرى، لأنه لخص فكر الكاتب واتّجاهه ونظرته المفصّلة في أمور الكتابة والكاتب، وجاء أيضا كإجابة على القنوات الكبرى لمالك حداد:

*أراد التاريخ أن يكون لدي عيب لغوي.

*اللغة الفرنسية هي منفاي.

*أكتب الفرنسية ولا أكتب بالفرنسية.

خصّصْتُ الفصل الثالث والأخير للثقافة والسياحة والوسائل السمعية البصرية. وكانت الثقافة هي الرابط بين هذه المواضيع، حيث ناضل الكاتب من أجلها ورآها متغلّغة في حياة الانسان، متعلما كان أم أميا. وتحدثتُ عن السياحة كفعل ثقافي -كما رآها الكاتب-، إضافة إلى دور وسائل الاتصال التي تختصر العالم وتقرب الرّيف من المدينة، وتساهم مساهمة حيوية وفعّالة في نشر الثقافة أكثر مما يفعله الكتاب.

اعتمدت في بحثي على مراجع قليلة حاولت أن أربط بينها وبين الدّراسة، وكانت كلها بالّلغة الفرنسية؛ مما اضطرني للترجمة كلما احتجت إلى تنقيص. والسبب في ذلك أن أقسام اللّغة العربية في جامعاتنا المختلفة تفتقر إلى دراساتٍ بالّلغة العربية لمدوناتٍ بالّلغة الأجنبية. زد على ذلك طبيعة المادة الصّحفية التي لا تستهوي الباحثين كثيرا، مما جعل رسائل الماجستير والدكتوراه في هذا الشأن تكاد تكون منعدمة.

كما كان عليّ الانتباه لطبيعة المواضيع التي مرت عليها سبع وأربعين سنة، والتي كانت مواضيع السّاعة في وقتها، وعدم إخضاعها لإسقاطات معاصرة، (تختلف عن الرواية أو الشعر اللذان يكتسبان روحا جديدة كلما أعدنا قراءتهما في أزمنة مختلفة) ووضعتها في نصابها التّاريخي، حتّى تكون النتائج قريبة من الدّقة والأمانة.

لا يخلُ البحث العلمي من صعوبات متوقّعة وأخرى غير متوقّعة، فقد تكون ندرة المراجع أو صعوبة الحصول عليها -كما سبق وأن أشرنا- عائقا يحول دون السّير الحسن للبحث، فما بالنا بمدونةٍ مقالاتٍ في صحف موجودة في الأرشفة منذ سبع وأربعين سنة، ولا يصل إليها الباحث بالسهولة التي يصل بها إلى الكتاب.

وللإشارة فإن جهاز التّصوير كان معطلا في المكتبة الوطنية، واستخراج الأرشفة لتصوره على حساب الباحث، تتوقّف عليه موافقة المسؤولين -الذين يخشى بعضهم ضياع الأرشفة-، إضافة إلى وجود بعض المقالات في حالة سيئة من فعل الرطوبة أو مؤثرات أخرى، واختفاء البعض منها؛ مما اضطرني إلى السّفر إلى مقر جريدة

النّصر بقسنطينة لاستكمال المدونة، ومطابقة بعض النّسخ الرديئة بالنّسخ الأصلية في قسم أرشيف جريدة النصر.

إنّ التّرجمة لكاتب في مستوى مالك حداد ليست بالشّيء الهين، وخاصة إذا كان المترجم طالبا قليل التجربة يحاول أن يمسك بهذه اللّغة الانزياحية التي تتقلّت منه في كل مرة، (يستطيع المطلّع على هذا البحث أن يلاحظ اللّغة الشّعرية العالية التي كتب بها مقالاته والتي خصّصنا لها ملحقا في الأخير). ومع ذلك حاولت أن أتحرى الدّقة قدر المستطاع حتى تكون الترجمة أمينة.

قد تكون الفكرة التي يوحى بها الأستاذ للطالب نواة أولية لتطور بحث ما، ومن هنا يبدأ فضل الأساتذة في وضعنا على أول الطريق إلى غاية الإشراف والمتابعة الدؤوبة التي لا يستغني عنها الباحث؛ فلا يسعني إلا أن أشكر الله على نعمة التوفيق والسداد، وأتقدّم بجزيل الشّكر والعرفان إلى الأستاذ المشرف الدكتور واسيني لعرج الذي آمن بفكرتي وأمدّني بالتشجيع والمساعدة. والشكر موصول أيضا لبعض عمال المكتبة الوطنية، وعلى رأسهم المدير عز الدين ميهوبي، إضافة إلى طاقم جريدة النصر القسنطينية، وعلى رأسهم الرئيس المدير العام السيد العربي ونوغي ووسام المسؤولة عن قسم الأرشيف. دون أن أنسى لجنة القراءة التي تأخذ على عاتقها التقويم والتصويب.

التمهيد

إن الجمهور العام أو المتخصص، لا يعرف على الأرجح من إنتاج مالك حداد، سوى رواياته أو أشعاره التي تعد على رؤوس الأصابع والتي كُتبت كلها قبل الاستقلال:

*Le Malheur en danger (poèmes) 1956.

*La Dernière Impression (roman) 1958.

*Je t'offrirai une gazelle (roman) 1959.

*L'Elève et la leçon (roman) 1960.

*Le Quai aux fleurs ne répond plus (roman) 1961.

*Ecoute et je t'appelle (poèmes), précédé de l'essai Les Zéros tournent en rond 1961.

بينما كانت لديه مساهمات متعددة، في دوريات كثيرة خارج الوطن وداخله نذكر منها:

*Alafak, Genève, Novembre 1961.

*Atlas Algérie, Avril 1963.

*Espoir et paroles poèmes algériens, Paris, 1963.

*Dialogues, Décembre 1963.

*Alger ce soir, Alger, Mai 1964.

*Al Djazairi, Paris, Mars 1965.

*Confluent, Meknès /Paris, Janvier/Mars 1965.

*Algérie Actualité, Alger, Octobre 1965.

Avril/ Juin 1968.

*El Djeich, Juin 1968.

ومن هذه المساهمات ما كُتب قبل الاستقلال ومنها ما كُتب بعده، ولعل أهم مساهماته في الدوريات وأطولها، كان في جريدة النصر من 1965 إلى 1968. حيث كتب مالك حداد ما يفوق التسعين مقالا بأساليب مختلفة:

Conte, nouvelle, opinion, réflexion, reportage, billet, poème...

وقدّم خلالها دراسات هامة جدا، ترجمت فكره ورؤيته إلى الأشياء والعالم. وتفاوت طول هذه المقالات بحسب ما يستدعيه الموضوع؛ فمنها ما كان سلسلة مقالات في عنوان واحد: *Grandeur et misère de la littérature algérienne/ une clé pour Cirta/ Dialogue au pied du sable*.

ومنها ما كان دراسات أو تحاليل آنية لمواضيع الساعة.

تطرق الكاتب إلى مواضيع مختلفة، كالاستعمار والمدرسة والأدب والثقافة والسياحة والوسائل السمعية البصرية، إضافة إلى المكان الذي تمثّل في المدينة وفضاء الصحراء الواسع، كما تعرّض إلى جوانب من حياة شخصيات من رجال الفكر والأدب، ولم تخلُ هذه المساهمة أيضا من متفرقات عامة.

إن هذا الإنتاج الهام لكاتب بثقل مالك حداد لا يزال مجهولا لدى الكثيرين، ومن هنا جاءت فكرة استخراجه من الأرشيف، وإقامة دراسة على جزء منه، ونشره في ملحق الدراسة، حتى يكون في متناول القارئ بصفة عامة والباحث بصفة خاصّة.

وقد يتساءل البعض عن القيمة الفنية لهذه المقالات، وقد يعدّها كتابات صحفية مثل التي يطالعها كل يوم في الصّباح. لكن هذا الشّكل من الكتابة (الكتابة الصحفيّة) لم يختلف كثيرا عن الكتابة الأدبية لدى مالك حداد، وبقي بنفس الأسلوب والعبارات والانزياحات التي جعلنا أمام مقالات الأديب أكثر من الصحفي، فلم يعمد فيها إلى المباشرة إلا نادرا وكان يحيط بالفكرة من كل جانب باستعارات وكنائيات وتشبيهات تكاد تذهب بالمعنى لدى المتلقي العادي، مما جعلنا أمام كتابات صحفية من نوع خاص تستحق البحث والتنقيب.

الفصل الأول

ترجمة النصوص المدروسة

مدلول عَلم

أه طبعاً لا يتعلق الأمر بالبقاء طويلاً في الحقد و الاستياء. من النادر جداً أن تخطأ الأمثال، ومع ذلك فواحد من أمثالنا الذي فهم بطريقة معينة هو مشورة سيئة ويقول : "اللّي فات مات". لا يحب التاريخ فاقدى الذاكرة ويُقصيهم على رفوف المواد عديمة اللون والتماسك و عديمة الكمال.

شعب يُحدث القطيعة مع ماضيه هو شجرة تَجْتثُ نفسها من جذورها و يُحرّم منذ ذلك الحين من مستقبل أصيل و مستقر. يَبْتَرِه من شخصيته العميقة، يتخلى عن المساهمة في توازن الحضارة العالمية. وعندما يتوقّف عن كونه هو بالذات كي يشبه غازيه القديم (son ancien conquérant)، يتوقف عن الوجود بكل بساطة.

في أيام الدّخول المدرسي هذه، أين تتحيّن التأمّلات و التّبصّرات أمام حتمية الحقيقة، يحسّن بنا أن نتذكر بدون تفخيم أو تفاصح، نستطيع القول بأن دور معلمينا يقاس على الصعيد التاريخي. يتسع علم التربية و يجد بعداً آخر، أصبحت المدرسة حارسة دهر بأكمله.

دفعت الجزائر ثمن حريتها غالباً جداً بدون تردد أو مزايدة، كانت حربنا التّحريرية محنة طويلة في وسائل قمع جهنمية وأسلحة ولغة شيطانية لقتال بدون هوادة. نابالم، تمشيط، تعذيب، إعدامات بدون محاكمة، سجون، معتقلات، نفي، حرق، سرقة و اغتصاب، قرى مدمرة ...

هذا التكرار الطويل الممل، الرتيب والجنازي يتردّد صدهاء دائماً في قلوبنا و في ذاكرتنا.

تتلخّص الحصيلة و تعود إلى قضية كلمات كُتبت بأحرف دامية، إلى أرقام بدون رحمة، أرقام تستغني عن التعاليق، أرقام لا تحتاج إلى البيان، بفضاعة كبيرة: مليون و خمسمائة ألف قتيل ! مليون و خمسمائة ألف قتيل أكثر من عُشر سكاننا ! الحياة بصرامتها التي لا تُكسر تستعيد حقوقها منذ الآن.

يتأكد هذا الاندفاع الحيوي في نوع من التفاؤل الآلي والبيولوجي المحض، البذرة لا تموت، أطفال يولدون، والمدن تُبنى من جديد، والجروح تندمل وتعود إلى شفاهاها الابتسامات المستعارة من خطورة لا تزول.

حتى النظرات المثقلة بكآبة دائمة تستضيئ بالتفاتها نحو الغد. مليون و خمسمائة ألف قتيل! كثير! جسيم! أكثر من اللازم... لا يعي الخيال هذا و يبقى الذكاء مذهولا، وتعترف الكلمات بعجزها أمام هذه المذبحة، ولا تصنع الثقل المطلوب أمام هذه الحصيلة.

لا تنكسر الحياة في شدتها. الحياة التي تستعيد حقوقها تأخذ أحيانا طعم التجذيف، فبالرغم من الأحزان والجراح والذكريات وبالرغم من الرضوض من كل نوع، تستمر بنداء فطري خفي و عجيب.

يُخلق دوام الشعوب من هذه البدايات و هذه التعويضات. وأحسن ما نقدمه لموتانا – مع اعتذارنا على بقائنا أحياء- هو تبليغ رسالتهم، وتحقيق آمانيات أبنائهم، فالوفاء للوصية هو مدلول العَلم و يعطي مدلولاً لَعَلَم.

إن رهان ثورتنا التحريرية في الحقيقة يتعدى – ومن بعيد – إطار معركة ضد المحتل المستعمر. كان أولا وكان دائما قضية حياة أو موت لكل الأمة الجزائرية...

فَهمها المستعمرون جيدا، هم الذين كانوا يرفضون حتّى فكرة وجودنا الوطني، تجاهلوا ماضينا كي يمنعونا من المستقبل. لكن البلد الجزائري كاد يلامس انتهاءه وتعديمه، وبهذا المعنى يكون استقلالنا أكثر من انتصار، و لا تخيفنا كلمة معجزة لوصفه.

بمزية السلاح والذكاء أحرزنا أكثر من قرار، بل أثبتنا تجاه العالم إرادتنا أن نكون جزائريين في جزائر عربية مسلمة، والالتفات نحو الامكانيات الفاخرة التي تنفتح في الزمن الحديث .

الفواكه والأزهار ليست ظواهر عارضة، إنها تتويع للصبر المبدع للمائية (النسغ) التي ذهبت جذورها تستقي من قلب قلب تاريخنا الوطني.

حضور نوفمبر

ليس ككل عام، اهتزاز أوراق الشجر وركن كآبة فوق السقوف والدخان الأكثر ثقلا في الآفاق العابسة، ولا السهل الأكثر تأثيرا أو البحر الأكثر بعدا، لم يعد طريق المدرسة فقط أو عاداتنا الأولى وفجرنا المبهم، ولا العتمة المستترة أو هذا الحزن الضمني الذي يتماشى مع الأراضي المرتفعة، لا، لم يعد الآن مجرد صيف ينتهي.

لم يصبح -من الآن فصاعدا- مجرد شهر من بين الشهور. تُحضره لنا اليوم مناورة فلكية كي نتذكر. نوفمبر كنت ستمّر دون أن ينتبه إليك أحدا، لولا أن رجالا اختاروا تشريفك بحبهم وغضبهم ودمائهم. كنت نُذكرنا في رزنامة المصائر المقبولة بالأمطار التي ننتظرها للحرث والبذر، والفواكه التي علينا قطافها والحطب الذي علينا إدخاله، تغيّر في الوقت وتغيّر في الملابس، وأيام قصيرة وليالٍ طويلة.... في رزنامة المصائر المقبولة، الهزيلة والصمّوتة، مجموع أسابيع قاسية ومملة.... في رزنامة الخريفات الأبدية.

التعلق الشديد بالذكريات —أية ذكريات- ليس عاطفيا محضا أو موقفا حنينيا متصلبا أو تأملا سلبيا للماضي. نستطيع أن نقرأ كتابا مائة مرة ونكتشفه دائما لأول مرة بنفس الحرارة ونفس العنفوان ونفس الانبهار، ونستقي منه تعلّمات جديدة بدون انقطاع، لأن نوفمبر تعلّم ودرس وبرنامج، وهو ليس فرصة للهروب من الحاضر ويفضي من الآن إلى المستقبل.

قبل نوفمبر 1954 كانت الجزائر أهلة بالسكان ومنذ نوفمبر —ودون حتى أن ننتظر جويلية 1962 الذي لم يقم سوى بتأكيد هذه الحقيقة التي لا تُدحض- أصبحت الجزائر أهلة بالمواطنين.

هنا، ظاهرة لا يمكنها أن تكون بدون نتائج في الحياة العميقة والحميمية للبلاد في كل المجالات، وخاصة المجال الثقافي.

منذ 1954 نوفمبر حاضر فينا بدون انقطاع، في تفكيرنا كما في أفعالنا مثلما تحضر الأم في حياة ابنها وتطبع تفكيره وردود أفعاله. صحيح أن نوفمبر ميلاد، وشهادة ميلاد، ومعمودية قتال (اشتراك في القتال لأول مرة)، إنه جدّة روح وطنية ومصير وطني.

عَدَ 08 ماي 1945 أيضا من اللحظات الهامة في حياة الشعب. هذا الربيع الكارثي الذي أدخل سطيف وقالمة وخراطة في تعبير الشعراء والروائيين والشعراء المتجولين والمطربين. التاريخ -نميل كثيرا لتصديقه- ماضيا متجاوزا من الحاضر وعلم واسع نجده في الكتب، ومنذ الآن أقرض 8 ماي 1945 أغنيته الطويلة وابتهاله إلى الأمل الغاضب للشعب الجزائري.

1945، نوفمبر 1945 تصعد النبرة إلى الغناء العام وتصبح الجمرة حريقا، ومنذ ذلك الحين لم يكتف الرسامون والموسيقيون والكتاب بتمني الاستقلال بل أصبحوا يتغنون به ويصرخون من أجله. ولا يتعلق الأمر بإدانة الاحتلال الذي أدان نفسه بنفسه، بل يتعلق بالمساهمة والمشاركة في التحرير الوطني بطريقتنا الخاصة. وجدت الرسائل الجزائرية حروفها النبيلة.

نوفمبر ليس فقط عيد ميلاد لشعب تعذب كثيرا، ودمى كثيرا وأهين بشكل كبير، في الحقيقة، كل الأيام عيد ميلاد وكل الأيام تستحق التخليد. نوفمبر ليس فقط انتقاما من القمع والعنصرية والاستغلال بل يبقى دائما أملا رائعا. أعطانا وأعطى للعالم المندehش قدر شعبنا وأبعاده.

ليس ككل عام تهتز الأوراق، ولكن في ضباب "شيليا" فجر مكتسب فجر تم فتحه. ليس ككل عام الفلاح الأول في الصمت المقدّس للسهل، ولكن روح لهذا القلم، مدلول يتعدى القمح، محفظة تتعدى المدرسة بذر يتعدى الحصاد.

لم يعد ككل عام، نهاية الصيف ونهاية العطلة ولكن مثل موعد مع ذواتنا، مثل صلاة من شدة صفائها تصبح مبهجة، ارتقاء في العرفان ونمو في العزة.

حضور نوفمبر جلي كجلاء النهار الذي يطلع.

دخول الأمال

أتذكر كل سنة سماء الخريف المضطربة... لا أتذكر من هو الشاعر الجزائري الذي ألقى هذه الصرخة " تركت قلبي في المدرسة ". و من منا لم يترك قلبه في المدرسة؟ كانت أول موعد لنا مع الحياة وأول مواجهة لنا مع الواقع. لو أعاد معلم طفولتي المناداة اليوم، سوف ينقص بعضهم ومن أحسنهم، و تكون الذكريات وحدها المجيبة بـ"نعم" لمناداة الأسماء التي لن ترَ هذا العام السماء المضطربة والحادة للفتاح أكتوبر.

مرّ التاريخ من هنا، و لا يعيش صانعوه إلا نادراً. كانت القائمة طويلة في لوحة الاستعمار السوداء. أما في لوحة شرف الاستقلال، هذه الأسماء التي لا تجيب للمناداة أصبحت صفات مميزة، و مضت على السبيل الذهبي للجزائر الحرة. في الفاتح من أكتوبر 1965، هذا الطفل الذي أراه فخورا و خجولا في هذه الصبيحة وواع بهذا الحدث الذي سيبدأ. هو نفسه حدث - جدلية هائلة - و لن يذهب إلى المدرسة كي يتعلّم بأن إخوانه كانوا غاليين، وأن العرب كسالى، و القبائل عاملين، اليهود والبولونيون مدمنين على الكحول و أن الصّينيين ماكرون.

سعيد هذا الطفل الذي يدخل إلى القسم مثلما يذهب إلى نبع الماء. كنا نذهب إلى المدرسة - في وقتنا - مثلما نذهب إلى المنفى، لم تكن الكلمات تقول شيئا و كانت العبثية مكان التربية و اللامعنى مكان الثقافة. لم يكن الجهاز التعليمي الاستعماري سوى مؤسسة لمحو الشخصية و البئر و الاستلاب. مؤسسة واسعة و مُدبرة من أجل تشيئة الأنا الأساسي الجزائري. والاعتداء العسكري تبعه اعتداء على الروح(...). كان لابد من غزو العقول بعد غزو الأراضي. " غسل الأدمغة " لم يكن جديدا. كان لابد من استعمار الروح.

فلنسمع ما قاله أحد رواد التعليم الابتدائي في الجزائر في أوائل القرن واسمه Bernard، تحت لطف مزيف وإخلاص وإه كانت الوقاحة تتفجّر، صحيح أن الاستعمار ليس قضية بنادق فقط فلنستمع إلى هذا الرائد النبيل:

" ليس كَرَمًا أن ترغب الجامعة في نشر التعليم و إنما في صالح فرنسا فلنقلها جيذا هذه المصلة الوحيدة الحاضرة في أذهاننا أعطت طابعا لمعلمينا و مناهجنا وأساليبنا. و الأشكال الحالية لبرامجنا. و من المهم أيضا أن تكون للأهالي الفكرة القصوى و العليا عن وطننا؛ سوف نعطي لتلاميذنا عبر دروس مناسبة لسنهم و درجة ثقافتهم، مفاهيم حول عظمة فرنسا و قوّتها العسكرية و غناها. و يكون موقفنا أكثر قوة إذا توصّل الأهالي إلى التفكير في قوة الفرنسيين و كرمهم، و بأنهم أحسن المعلمين الذين قد يحصلون عليهم. مدرسة الأهالي في شكلها الحالي عبر تأثيرها الإيجابي المزدوج ليست وسيلة إصلاح أخلاقي فحسب، بل هي بالخصوص وسيلة سلطة و تأثير. تصنع من المعنيين أعضاء نافعين جدا للمستعمرة، مُساعدٌ وفيّ لفرنسا"

لا داعي للتعليق على هذا النثر، انتهى الكسوف، و تستعيد اللّغة العربية حقها، لأنه لا يكفي التردد بأن الجزائر التي تتخبط في الحاضر و التي ترغب في العيش في الحاضر، لا تملك فقط مستقبلا عليها أن تحضيره، وإنما ماضٍ تستثمره وتكتشفه وتسيرّه. الرّجوع إلى المنبع ليس منعكسا تقهقريا إلى الخلف لكنه اهتمام إيجابي بنتائج حيوية.

في الفاتح من أكتوبر 1965، تتحمّل الدولة الدّخول المدرسي بتعقيده المريعة، أمام الصّعوبات التي تصنع شرف ومعاونة معلمينا وأصدقائنا المتعاونين. ويعتبر هذا السّباق مع الشّمس مسيرة مشروعة لشعب متعطّش للمعرفة، وشعب يسجّل نفسه في جامعة الفجر.

الفاتح من أكتوبر 1965، هذا الطفل الذي أراه فخورا و خجولا في هذه الصبيحة، وواعٍ بهذا الحدث الذي سيبدأ، هو نفسه حدث. هو وعد ورجاء في جزائر عربية ومسلمة واشتراكية. هو شاهد وهدية نقدّمها للغد.

طريق المدرسة

قلناها مرارا و تكرارا، بأصوات موثوقة وأصوات مجهولة، لأنه الجلاء عينه ولأنها الحقيقة. قلناها مرارا وتكرار: الثقافة ليست رفاهية ولا يجب أن تكون حُضوة أو امتيازاً.

ليست رفاهية، لأن الانسان يحتاج إليها و يتنفسها، يتنشّقها ويحسّها، لأنها تدل عليه بحضورها أو غيابها.

يجب أن تتوقف عن كونها امتياز، لأن المساواة التي كرّسها القانون يجب أن تتجسّد في الواقع، وأن الثقافة جزء لا يتجزأ من هذا الواقع.

إنها ليست رفاهية ويجب أن لا تكون امتيازاً، لأن الانسان يستقي منها احتياطه ويأخذ منها أبعاده، ولأنها بهجة عالية يحتاجها الانسان كي يعيش ويصبح هو بالذات. إنسان بدون ثقافة هو فرد ناقص، مثله مثل الذي يعاني نقصاً في التغذية. ولهذا تكون كلمة المرور المقدسة أكثر إلحاحاً من ذي قبل: "الثقافة للجميع".

المجاعة التي تهدّد أو تضرب مئات الملايين من البشر، وتذهل علماء الاجتماع والاقتصاديين والحكومات، والسلطات الدولية. بالكاد نفهم ونستوعب أن القرن العشرين الذي يبعث بالصواريخ إلى القمر، ويضاعف من سرعة الصّوت لوسائل النقل، والذي حرّر الطاقة النووية، وغير مجاري الأنهار. بالكاد نفهم ونستوعب بأن قرن العلوم والتقدّم، مازال يواجه هذه المأساة التي نظّمها خاصية القرون البائدة، والهمجية الجاهلة.

ليس في نيتنا النّظر لمعرفة إذا كان الانسان يحتاج الخبز قبل الأزهار، أو إلى الأزهار قبل الخبز. يكون هنا مشكلاً مزيفاً. نظن فقط أن الحياة بدون خبز ليست بحياة. وليست حياة بأن معنى الكلمة إذا لم تأت وردة لطمأننة أنظارنا.

نظن فقط أن مجاعة الفكر هي بنفس المأساة و اللاإنسانية كمجاعة المعدة. نظن خاصة بأن على الأمية – هذا الشقاء الموروث عن الحقبة الاستعمارية – أن تختفي كما يجب

أن تختفي بقايا بشعة لحقبة لعينة. نطن أخيرا بأن الحديث عن الثقافة غير مجدٍ وخاطئ ومخرج نوعا ما، طالما لم تختفِ هذه الأمية. ليس معنى هذا أن نتوقف عن الكتابة والانتاج والرسم والتأليف بل بالعكس! عندما يكون الليل شديد السواد يجب أن نشعل أنوارا كثيرة.

عشية الدخول المدرسي، لم تلتفت أنظارنا قط بهذا القدر من الاحترام والانتظار نحو المدرسة، ولم نعهد إليها أبدا بأمنياتنا قبل هذا.

يوجد الحل في المدرسة ويوجد العلاج والخلص. هنا، في المدرسة، وفي المدرسة أولا، يرجع الشرف المهيب لتخصيب الحاضر وتسييره وإنفاقه. هنا، في المدرسة، أحسن درع ضد الليل وآخر درع ضد العمى الآخر المسمى أمية.

لطالما كان للمدرسة مكانتها المحفوظة في قلوب الجزائريين. إحاطة المعلم بالعرفان والاكرام هي عادة قديمة لدى شعبنا. وللاقتناع بذلك يكفي أن نشاهد بأي عطف نتحدث عن انحنا على سنواتنا الأولى وكوّنوها و طبعوها بأثر لا يمحي. ويكفي للاقتناع بذلك تحليل انفعالاتنا التي تعانقنا فجأة عندما نصادف معلما قديما، أو عندما تأخذنا خطواتنا لحج أمام المدرسة الابتدائية لطفولتنا. يكفي للاقتناع بذلك سماع تساقط الندم لدى الغافلين في الماضي الذين أدركوا خطأهم في عدم تقدير دراستهم الأولى حق قدرها. كل منا ترك قلبه في المدرسة و يكفي للاقتناع بذلك أخيرا، أن نرى اليوم في الجزائر المستقلة الأولياء الذين يسجلون أبنائهم وبناتهم، وكيف يسهرون على بداياتهم وكيف يتابعونهم أو يكلفون من يتابعهم، فيثأرون في تنقيف أبنائهم وبناتهم الموعودين بمستقبل آخر والموهوبين من الآن لمصير آخر. يمرّ طريق المستقبل بالمدرسة أكثر من أي وقت مضى، تنبت الثقافة و تتطوّر و تتجهّز.

من الظلم أن نكون متعجلين، يجب أن نكون واعين بحجم الصعوبات التي علينا قهرها، والعقبات التي علينا تخطيها: نمو بدون انقطاع، تنمية القوى العاملة، مشكل المنشآت المدرسية، التكوين ونوعية التعليم، مشكلة البرامج والكتب...إلخ.

كل دخول مدرسي هو صعوبة كبيرة، وكل دخول مدرسي هو أيضا أمل وانتصار ومعجزة في العديد من المرات.

عندما تؤدي المدرسة دورها في جزائر الغد، وعندما يتمكن كل الجزائريين والجزائريات من القراءة والكتابة، وعندما تصبح الوسائل السمعية البصرية مكملًا حيويًا لقاعدة مكتوبة، عندها فقط يتوازن مفهوم الثقافة في أبعاده الحقيقية وسياقه الحقيقي. بما أن رجل أو امرأة الثقافة يشكل الآن الاستثناء، فهو محكوم عليه بنوع من العزلة. عزلة لا تعبر عن الانقطاع، وإنما هي عزلة واقعية لا تكتب بشكل كامل للقراء الذين نحلم بهم، ومرة أخرى نلتفت نحو المدرسة لأنها الوحيدة التي تخرج رجل الثقافة من عزلته ولأنها أيضًا مشتتة رجال و نساء الثقافة.

و من جهة أخرى لن تعرف الأجيال الصاعدة المشاكل التي تتصل مباشرة بالجوّ الاستعماري، فالكاتب الجزائري للعام 2000 مثلاً – والعام 2000 ليس بعيداً، فقط 33 سنة – و ثلاثون سنة هي تقريباً المدة اللازمة لصنع الكاتب، bref. ربما يندهش الكاتب الجزائري للعام 2000 مما يشغلنا اليوم، سوف يكون متاحاً حقاً وفي اتحاد وثيق مع شعبه وقرائه، ولن تصبح الأمية إلا حلماً مزعجاً أو موضوع دراسة تاريخية. تأخذ المقاييس الصحيحة من مضار الاستعمار التي ستختفي آثارها هي الأخرى.

الطريق إلى المدرسة يؤدي إلى أبعد من المدرسة. يؤدي إلى المستقبل.

على هامش القصيدة والرواية

أدب وصحافة:

نستطيع انتقاد قناعة Goethe بإسهاب ودون توقف، والتي مفادها أن كل شعر هو شعر مناسبات. لقد انقسم السرياليون حول هذا الموضوع في العالم بعد حرب 1914\1918 وجعلوا منه موضوعهم المفضل. المناسبة تقودنا حتماً بمعنى أو بآخر - إلى الالتزام، وكلمة التزام هي من الكلمات الأقل جمعا لرجال الأدب والفنانين عموماً. قد نلتزم بشيء أو ضده، بفكرة أو ضدها، وننسى في أغلب الأحيان بأن كل فعل ثقافي، وكل فعل يستدعي حكماً هو فعل التزام، وعدم التزامنا لا يمثل تحرراً من الالتزام وإنما هو اتخاذ موقف، ويعتبر الامتناع في حد ذاته اختياراً. أما في ما يخص النقص في الأفكار فذلك يعني موت الروح.

إن الشعر علة وحافز، وهو انعكاس ونتيجة، وتأويل لحدث أو فعل شخصي أو خارجي ملفت ومعروف بما يكفي، كي يُسجّل وينقل إلى لغة شعرية، وعادة ما يتم هذا النقل بصفة تلقائية، ويفرض نفسه بالحاح على يومياتنا الخاصة ويترجم حالة روحية أو un état de fait.

نستطيع أن نتفق مع Goethe بأن الشعر كله هو شعر مناسبات وهو فرصة تُنتهز تلقائياً وبدون علم، فقط إذا لم نعن بكلمة "مناسبة" المفهوم الضيق للحقيقة المحتملة. الأدب، الشعر أو النثر، كان واقعياً أو لم يكن فهو شهادة، يقدم تقريراً ويُفسّر ويحكي بطريقة ما، ونرى بذلك أن الصحافة تُصاهر الأدب نتيجة لطبيعتها العميقة.

هناك القليل من الكتاب والروائيين والشعراء الذين يُكرّسون أنفسهم لرواياتهم أو أشعارهم فقط، لأن صعوبات ومقتضيات الحياة المادية لا تسمح لهم بذلك. تحدثنا كثيراً عن هذا الموضوع، وأعني بذلك تحليل إيجابيات وسلبيات مهنة ثانية.

في اللحظة الدقيقة للإبداع - وهذه اللحظة قد تدوم شهوراً وشهوراً - من البديهي أن لا يرغب الكاتب في التشتت أو الالتفات إلى نشاطات موازية تشغله عن مؤلفاته، فليس

هناك ما هو أكثر هشاشة من مخطوط يتلأأ، لأن الأفكار تُأخذ في طيرانها مثلما نستقل قطارا سائرا، ولأن أي تأخير أو تأجيل أو عائق قد يكون وخيما، ولأن المواعيد التي نُخلفها والفرص التي نُضيّعها لا نستعيدها أبدا، وذلك مؤسف.

يلتقت الكاتب اليوم وبصفة عامة وأكثر من قبل إلى الصحافة والتعليم، لكي يجد حلا لمشاكله المادية. لماذا التعليم والصحافة (وأحيانا الاثنين)؟ الإجابة بسيطة لأن هذين الشكّلين من النشاط ملائمان لممارسة مهنة الكاتب. (اللقاء مع الشباب، المؤتمرات المدرسية هي عوامل تدخل في الاعتبار)، أما فيما يخص الصحافة "فمعرفة الكتابة" و اكتساب "قلم سيال" يمنح منفذا طبيعيا ومناسبا لرجل الأدب.

هذه المهنة الثانية ليست تدبيرا مؤقتا أو السبيل الوحيد المتبقي، أو عجلة إنقاذ مريحة نوعا ما. معظم الكتّاب الذين أعرّفهم يمارسونها بنفس الحماس الذي يخصّون به مؤلفاتهم.

الكتابة مثل الرسم ليست موضوعا مفضلا ليوم الرب الذي نخصه بحب وعناية كبيرين. إنها هنا مجالات تتكامل وتتتابع أحيانا، ويغتنى بعضها من بعض في أحيان كثيرة.

لقد أعطى الكتّاب للصحافة أحرفها السّامية في الكثير من الأحيان، وتوقع الأسماء الكبيرة أكثر فأكثر مقالات في الصحافة، وتحاول الصحافة ربطهم شيئا فشيئا لأسباب نتكهن بها وخاصة في أيامنا، حيث نراها تتخصّص وتتسيّس بدون انقطاع. ومن جهة أخرى نجد تضاعف تعليقاتها وتحقيقاتها ونقلها للأخبار وموائدها المستديرة... الخ وحتى صيغ النشر: أسبوعيات ودوريات ومجالات أو صفحات منتظمة، تدعو إلى هذه المشاركة وتوسيع المعنى المشترك لكلمة صحافة.

هذا بديهي، فالكاتب لا يحتاج فقط إلى تأمين معيشتة وتلبية حاجياته المادية، بل يحتاج أيضا إلى التواصل مع نظرائه. والجريدة تمنحه هذه الإمكانية وتمنحه جمهورا لا

يستطيع مغالطته بكتبه. وبينما ينتظر الكتاب مجيء القارئ، تذهب الجريدة نحوه كل يوم أو كل أسبوع مباشرة وبمكر في آن واحد.

لكن لا يجب التصديق بأن مهنته ككاتب تسمح له بأن يصبح صحفيا بطريقة آلية. أعرف كتّابا كثيرين لا يمكنهم أن يُصبحوا صحفيين أبدا، لأنهم يعتبرون الصحافة—عن خطأ بالطبع—شكلا متدنّيا من التعبير، أو أنهم عاجزون بكل بساطة. تسمح الصحيفة وتفرض اتصالا مباشرا بالقارئ، قارئ مجهول ومستعجل في أغلب الأحيان، ويريد أن يكون مطلّعا بشكل سريع وشامل، بينما يبحث الروائي وأكثر منه الشاعر عن هدف أبعد وأقلّ وظيفية، تبادل وتواصل ومعلومة أكثر شخصية، ولا تقيم الصحافة—ماعدا التحقيق المطوّل—مثل هذه العلاقات. وهذا يتأتى بشكل كبير من كون عمل الكاتب عمل منعزل و متمعّن و بطيء، أما عمل الصحفي فهو نتيجة عمل جماعي وسريع على إيقاع الحدث، عمل متحرّك بطريقة جنونية، متكرّر ومتعدّد يوميا. عندما نفتح جريدتنا في الصّباح، نُسجّل حاصلا وتركيبا، باختصار نتيجة مشتركة. من التحرير إلى طاولة التركيب والمطبوعة الدوارة، تقوّل تفكير الصحفي وذاب مع الرّصاص الذي يعطيه أبديته اليومية.

إن الاتصال المباشر والمتكرّر للصحفي مع الأحداث اليومية ومع قارئه، هو بمثابة البعد الذي يُغني الكاتب المعرض دائما إلى التأمل المنعزل. لكنّ خطرا آخر يتربص به ويتمثل في هذه الرطانة التي قد يعود عليها لتسهيل التعبير الذي يختصر فكره. يمتعّ الفن ويتكيّف بشكل سيء جدا وتصبح طاولة التركيب شاهدة جنائزية لمشوار أدبي أو مخطوط لامع لتعليقٍ على أنباء لا تنتهي أبدا.

عظمة الأدب الجزائري وبؤسه (المشكل الثقافي في الجزائر)

إن الثقافة، الثقافة الحقيقية (وهل هناك غيرها؟) تسافر بدون جواز سفر، والتأثيرية الوحيدة التي تطلب منها تكفي لتعريفها: ميزتها الإنسانية. إنه هنا مثال نادر للدولية التامة، فوق الطوباويات والمعاهدات والسفارات والمرجعيات فوق وطنية. هي حقيقة تمتلك من البداهة ما يعرضها للمرور بدون ملاحظة. إنها أيضا انتصار للعقل والقلب والتي بإمكانها أن تفاجئ في القرن العشرين، خصوصا في القرن العشرين، إذا فكرنا في آلاف الفرص التي نخشاها يوميا على السلم، على السلم معنى هذا على الحضارة العالمية في نهاية الأمر.

ألا يكون إشعاع الكتاب والرسامين والموسيقيين والعلماء، في مقابل وحدتهم وزوالهم. هم الذين لا يمثلون في أغلب الأحيان لا الأحزاب ولا المصالح القوية، هم الأغراب في هذه الرطانة: "علاقة قوة"، "بدعم من"، "لحساب كذا".... الخ، وفي الأخير هم الذين دوما لا يعرفون المجد، ولا التشريفات ولا الثروة وهم في غمرة سكون تأملهم وقحولة مسارهم يقودون ربما من المعارك أصعبها: مكافحة اللامعقول؟... معركة غير متكافئة يخرجون منها منتصرين دائما وفي يوم أو في آخر نحن سعداء أي أذكاء.

هنا مولود معمرى نفسه مؤخرا بحق كون الجزائر بعد استقلالها عرفت كيف تجيب نفسها عزلة ثقافية كادت تكون وخيمة عليها. كي تعيش ثقافة وطنية وتفتح، من البديهي أن تحتاج للمواجهة(...) تحتاج أن تهوي وتتوسع بدون انقطاع وتجد في أصالتها وخاصيتها بذور عالميتها.

ثقافة منغلقة على نفسها ثقافة (...) ¹ تصاب بالضّمور في الآجال القريبة أو البعيدة وتورث (...) و تُنجب فكرا سقيما، فكرا سجيناً لنفسه ولرطانتها، فكرا خطيرا، فكرا لا يلتحق بصحة الفعل أي بالفعل الصحيح.

¹ تشير نقاط الحذف التي بين قوسين(...) في كامل المقال إلى رداة الطباعة في المقال الاصلي باللغة الفرنسية في جريدة النصر مما اضطرنا إلى تجاوز بعض الكلمات غير الواضحة والتي أحدثت بعض الاضطراب في الترجمة.

الثقافة حقيقية حيّة: هي حيّة بحق، وحيّة بطريقة خيّرة. هذه هي دعوتها، أن تكون في خدمة الإنسانية، أن تساهم في إعداد المثل التي تصنع مجد الظروف الإنسانية، وربما يكون عذرها لو تذكّرنا "هيروشيما" التي قامت لتوّها، و صهرت شمس نهاية العالم وولدت مع ذلك في دماغ الإنسان.

الثقافة حقيقة حيّة تتحقّق بتكوّنها. دراسة للدكتور "خالد بن ميلود" في « Révolution Africaine » نظّفتها من خطيئتها الجهوية وأوجدتها في قلب "الأنا الوطني" هي من (...) عيينين، هي تمثّل للحدث، إنها ظاهرة وليست ظاهرة عارضة.

لا أحب التعريفات، أرفض التعريفات، أندّد بالتعريفات للمادة الثقافية، فعادة ما تكون التعريفات من صنع المنظرين الذين يبحثون عن حجج لإقامة نظرياتهم، وتكون الثقافة ذريعة بالنسبة إليهم ولا تعنيهم. بل يستعملونها ويعيشون بها فحسب، بينما نحن كثيرون فوق الأرض الذين قد نموت بها.

تتميّز الثقافة على أكثر تقدير! وهذه المميّزات ماهي إلا سهولة مواضعة في الزّمان والمكان، وهي محاولة بسيطة للبحث عن مُحدّدات يستعملها الفضوليون خاصة، ويتّخذ منها الكسالى نشاطا لهم ويتشرّفون بكونهم متعلّمين، والعلماء المزيّفون الذين لا ينجحون في إخفاء بريق معارفهم بواسطة التّوفيق بين أطروحات مختلفة. الثقافة هي السرّ الأخير لشعب ما، أوّل و آخر تنهّده، هي أيضا الحياة الخاصة لشعب ما، وهي خصوصيات بسيطة لمجموعة ما، ودوما الانعكاس المباشر لروح وطنية، وخاصيّة جغرافية، وأصالة تاريخية.

فليكن، أتذكر دائما "برغسون" عندما يتعلّق الأمر بالتّعبير عن دقائق الفكر، "برغسون" أمير الحيرة "برغسون" الذي (...) حاول استخلاص التشعّب المثير لمساعي الإنسان.

الوفرة هي وحدة متنوّعة (...) صحيح أن القاسم المشترك للثقافة هو الإنسان، أكان أبيضاً أم أسوداً، صينياً أم عربياً، سوفياتياً أم روحانياً. هذا القاسم المشترك هو الإنسان وكلمة ثقافة هي الوحيدة (...) الإله الذي لا يقبل الجمع.

قلب مفتوح وعقل متفتّح، الجزائر لا تخشى الحوار ولا المواجهة. رفضت وطالبت بهويّتها في محكمة الاستعمار عديمة الرّحمة، ولأنها كانت متّهمة (...) ماضيها وقوّة بحجّجها القطعية: لا تنضب الثقافة المكونة لشعبها.

من فم وقلم جزائري، وأكبرهم ربما، الكلمات تنتظم في منطقية نبيلة لحتميتها التاريخية، ومن الكلمات من تصنع الموسيقى. وكلمات تغوص في الجُمْل وتحتفر في بلاغة لا متناهية العمق، بدون نهاية وبدون قواعد. أعرف أيضا كلمات تنفجر كالرّصاص والأنوار، وكلمات تُطمئن.

هذه الكلمة للشيخ عبد الحميد بن باديس: "العربية لغتي والإسلام ديني والجزائر وطني".

لم يكن أكبرنا يحبس نفسه في تعريف، بل نصّب نفسه برنامجا. لم تكن هناك بندقية فقط في فجر الفاتح من نوفمبر 1954 بل كانت الكلمة قبلها. عادت الثقافة إلى بيتها في الجزائر.

كي تُفَلت الجغرافيا من رتابتها بل من تجريدها، يحسن بنا توضيحها وتجسيدها -إن صح القول- بشكل آخر غير المدن والجبال والأنهار. أحب هذه المسالك التي تأخذ طابعا إنسانيا والتي تُقترح علينا كمرشد ودليل سياحي، أولئك الذين يمتهنون الاستماع إلى أعماق الأرواح في سكون ضوء قمر أو اهتزاز عوالم راقصة. "قالمة" هي كاتب ياسين وهذا يشبهه: الفاجعة والغضب والشّغف وغنائية الهضاب العليا فاتحة الأوراس.

تلمسان متأنية وحكيمة، مفرطة في الانتباه، مفرطة في الرّزانة، والتي يكون حذرهما المُتمعّن شكلا آخر للجرأة. "إنه محمد ديب" الذي أحسّ بأن "جون عمروش" بفجره الممزّق وسِتْرُ الأرملة المحيط بالأغاني الحزينة للصّومام ونجوى الوادي؟ يعود مولود

معمري دائما فوق ربوته و يأخذ بإملاء من "بني يني" ملاحظات تُخَلِّدُ وقتا طويلا من التاريخ.

"أنا غريكي" التي أفجعتنا بفراقها مؤخرا، صرخت لنا بحبها للأرض الحسيّة "

"Algérie capitale Alger"

البلدية ليست في راحة ولا تتفق (.....) الذي لا يحاول أن يعتقد أنه لا أحد شاعر في بلاده، فوق كل مرارة ومن أجل تشريفه.

أتذكر " إليسا رايس" لزمن جزائر أبي ، للزمن البعيد للكرز واليوسفي قبل أن تثور الفاكهة نفسها، وتصبح للرّشق بدلا من القطف وتصبح قنابل يدوية.

أتذكر "هنري كريا" الذي طلب من جبله أن يُقرضه اسمه كي يُوقّع اسمه الشّخصي بطريقة أفضل.

أتذكر خاصة، أتذكر أولا من هو أكبرنا ربما، الشّاعر المرهف والخطير إلى المؤرخ المتردد إلى المواطن المثالي: عَيَّنْتُ "مصطفى لشرف".

مشاكل الأدب الجزائري بالتعبير الفرنسي... هذا العنوان كغيره من العناوين على كل حال ليس إلا إشارة وملائمة بسيطة للغة والكتابة كبقية العناوين، إنه اعتباطي وغير تام، وربما حتى ملتبس بشكل غامض.

لولم تكن العبارة مطروقة، متكلفة ومُفخّمة: لكنت عن طيب خاطر عَنَوَنْتُ محاضرتي: "عظمة الأدب الجزائري بالتعبير الفرنسي وبؤسه".

لمذا عظمة وبؤس: "أدب جزائري بتعبير فرنسي"؟ الإجابة بسيطة: بكل طيبة لأنه يوجد أدب جزائري بتعبير عربي بكتابة عربية.

تعبير عربي، كتابة عربية، لا أنا لا ألعب بالألفاظ، الحذر يفرض نفسه لأن الفارق على جانب من الأهمية، سوف نعود إلى هذا بتوسّع لأن هنا "قلب" الموضوع حسب ظني.

سوف أنقادی لو سمحتم التحليل النظامي والنقدي لکتابنا ومؤلفاتهم ولأتقيّد بمنظر شامل للمجموع وأستخلص الملاحظات العامة.

ترتسم نفس الظاهرة قبل 1954 بكثير ، فتظهر أسماء "مولود معمري"، "محمد ديب"، "جون عمروش"، "فرعون"، "مصطفى لشرف" في تونس والمغرب.

لا أظن أنه بإمكاننا الحديث هنا عن مدرسة أو حتى تباشير. لكن الملفت والذي يمكننا الإشارة إليه في الحال، هو تلك العلاقة الضيقة التي توجد بقلة لدينا بين الظاهرة السياسية والظاهرة الأدبية، وبين الحقيقة الاجتماعية والرسالة التي تتضمنها هذه المؤلفات بالموازاة مع مجموعة الكتاب الأصليين، لا نجد كلمات أخرى هذا يعني كثيرا ما يعنيه(...).

موازاة مع "معمري" مع "فرعون" مع "محمد ديب"، أسس كُتاب يعيشون في الجزائر ما استطاعوا تسميته بمدرسة "البحر المتوسط" التي أثبتت فيها أسماء "غابريال أوديسيو" "بلغري" "جول روي" "روبلس" "رينيه" "جون كلوس" وأكثرهم إبهارا "كامو".

نتطرّق مع هؤلاء الكتاب إلى موضوع حساس، حساس جدا ومؤلّم أيضا. السّنة الماضية (...) حقبة إن لم تخنني الذاكرة انفجر جيل جديد، بخصوص نشر أنطولوجيا الكتاب المغاربة بالتّعبير الفرنسي -بالنسبة لبعضهم- تحت إدارة "ألبار ميمي". أنطولوجيا احتل فيها الكتاب الجزائريون المكانة الأكبر، لا يتعلق الأمر (...) شوفينية لكنها مسألة حسابية. يتفق أن الكتاب الجزائريين (...) الأكثر قيمة بل الأكثر عددا. إذن وبمناسبة نشر هذه الأنطولوجيا عبّر كُتاب عديدون عن طريق الصحافة عن سخطهم لعدم ظهورهم. "بلغري" كاتب أشجار زيتون العدالة كان عنيفا جدا، "غابريال أوديسيو" كان متأثرا (...) من نفسه، وعبر لي "جول روي" عن مرارته (...) يجعل من هؤلاء الكتاب الذين موهبتهم وإيمانهم الصادق ليسا محلا للشك (...) انتماؤهم إلى الجزائر يقودنا إلى تحديد، تعيين و تحديد معايير الجزارة.

من الواضح جدا أنه في بلد(...) مثل بلدنا -وأي بلد ليس كذلك- الجزارة أن لا تكون لدينا قاعدة عرقية، وتعود أسماء إلى ذاكرتي حالا: "فرانتز فانون"، "هنري كريا"، "جون سنالك"، وأما "آنا غريكي" التي غيَّبها الموت عنا ليس أكثر من أن تستطيع (...) لمعيار وحيد الديانة. أحد أكبر الكُتَّاب "جون عمروش" من أب وأم مواطنين، ألم يكن من طائفة مسيحية؟

ومن كان سيجادله في جزائريته؟ إذن أين هي معايير الجزارة بالنسبة للكاتب؟ نستطيع أن نفكر في اللغة؛ ولكن اللغة لا تكفي، معظمنا يكتب الفرنسية، وكاتب ياسين الذي يكتب الفرنسية هو جزائري بنفس الدرجة كمحمد العيد مثل الذي يُعبر بالعربية.

نحن إذن مضطرون للعودة إلى المعايير السياسية مع كل ما يحمله ذلك من ضيق واعتباطية مصطنعة أحيانا.

أما بالنسبة لي فأظن أن كُتَّابا مثل أوديسيو، روبلس، جول روي بلغري، وقروا على أنفسهم هذا التمزُّق وهذا الغموض وأخيرا هذه الوحدة في وضعها الخطير؛ بالتحاقهم بالجزائر في معركتها كأبناء وطن واحد.

أعلم أنه ليس بالشيء الهين وليس لنا أن نحكم عليهم، فالمأساة الكورنيلية أسهل فصلا في قراءة مشروحة منها في واقع الحياة.

في أحد الأيام بباريس قال لي "بلغري" الذي أكنُّ له الكثير من المحبة و التقدير : "الجنسية ليست مسألة جواز سفر"، في جمهورية الحروف الجميلة أين تكون المواطنة الوحيدة هي الموهبة والجمال، ولكن ليس في عالم ذا بنية، أين يكون الانتماء إلى مجموعة خيار يتحقَّق في خيار قطعي.

ومن جهة أخرى مع الأسف؛ عندما يطلب ضابط الشرطة أوراق شاعر ما، فلن يرض فقط بمؤلفاته.

كي نغلق هذا القوس نستطيع القول بأن الجزائر تنشأ أساسا من تَعَلُّقِ ثَبَّتِه لنفسها وتراقبه في الأفعال التي قامت على نقض ومحاربة الاستعمار وتقوم اليوم على التّشديد السّار للوطن الجزائري.

بعبارة أخرى ودون أن نُقصي أحداً، ليس جزائرياً من أراد، أكرّر فلنتجنب محاكمة أولئك الذين فاجأهم التاريخ وجرّدهم من عاداتهم. هم الذين أيضاً كَوّنوا فكرة معيّنة عن الجزائر، جزائر السّاحل التي تكون أكثر سياحية و غرابة من كونها إنسانية .

يكون ضعف الإرادة في بعض الأحيان شيئاً محترماً ويكون دليلاً على الحيرة أكثر من دلالاته على الجبن، ومع ذلك يظهر جلياً بأنني لا أشعر بأي تسامح حيال "كامو".

كان يعلم جيداً بأن حربنا كانت حرباً عادلة وأنّ المعركة ضد الاستعمار أصبحت مساهمة فعّالة في الأخلاقيات العالمية. بتفضيله أمّه على العدالة -ولكن من ذا الذي لا يحب أمّه- وبوضعه المظليين وفدائيّينا على قدم المساواة، وبعدم رميه بثقل شهرته وبجائزة نوبل في المعركة، لم يتوقف عن كونه كاتباً و كاتباً كبيراً جداً، لكنّه توقّف في إحساسي عن حقه في المطالبة بالجزائر.

لكن فلنعد إلى الكتاب الجزائريين.

هناك تاريخان من أجل تحديد موقعهم في الحالة المدنية للتاريخ، تاريخان كبيران رافقا المؤلفات، وسير الكتاب الذين هم من جيلي. تاريخان كبيران فاقما في شعورنا الوطني غضبنا من استعمارنا، تاريخان كبيران فعلاً حدّداً وجلبا المشكل إلى سهولة حلّه، الحل الأقصى والوحيد الممكن: الكفاح المسلح، 1945، 08 ماي 1945 لم يكن إلا فاتحة وأول نوفمبر 1954 كان مقدمة.

ليس في علمي من الكتاب الجزائريين مع التزامهم، شجاعتهم، تألّقهم وشهرتهم من بقي غير مبال أمام هذه المغالاة العظيمة هذا الحد الأخير، هذا الحد الأول، إحدى المعجزات التي تتكرّر من وقت لآخر في تاريخ الشعوب.

يبقى أول نوفمبر كالانتفاضة في التاريخ الجزائري، برفض الأمة للزّوال، وإرادتها الملحّة في البقاء في جلدّها وروحها. كانت الثّورة الجزائرية فترة يُمّن وخصوبة للأدب الجزائري. في ظروف صعبة وخطيرة، وفي عدم تفهّم أحيانا، مشتتين بلا هدف في المنفى، في السّجون وفي المعارك، الكُتّاب الجزائريون، ينشرون، لا يتوقّفون عن نشر روايات وأشعار، مقالات ومسرحيات، ومنحتنا أعداد خاصة من مجلات أجنبية ضيافتها الشّجاعة والمتفهمّة.

تُرجمت مؤلفاتنا إلى لغات عديدة وكُيّفت للخشبة والمكروفون وترسّخت أسماء كمصطفى لشرف، وكاتب ياسين، محمد ديب، وبوربون، آسيا جبار وسيناك، كريا وجون عمروش، نيتافي وكثيرون غيرهم الذين اعتذر عن عدم ذكرهم.

النقد الأجنبي يُحيي، فنحتار ونندّش، ساهم الأدب الجزائري بتواضع أيضا في المقاومة التي كانت تجري.

من مزايا الحروب العادلة، أن تجمع في الجبهة المقدسة كل الإرادات الخيرة وكل المواهب ومن جهة أخرى اختلاف الأمزجة و الإيديولوجيات الخاصة.

عرفت كل المقاومات الوطنية هذا التجاوب المؤثّر الذي لا يصمد دائما أمام حدث السلام والاستقلال. تتفرّق الأرواح بدورها و تتّجه إلى الخيارات المتشعبة لكل منها، فالسياسية إذن تنسحق أمام السياسة و تجمع الأمة دائما ومن كل جهة أكثر مما تجمع الدولة وهذا مفهوم، فواحدة تدعو إلى القلب، والأخرى إلى العقل.

ليس هناك ما هو أكثر واقعية من هذا الحاصل الجغرافي والاجتماعي وهذا التعايش، هذا التركيب المفعم بالنشاط لشعب أو بلد ما.

هذا يسمى الوطن الذي يصمد رغم الرجال والأنظمة.

أحرزت الحرية سنة 1962، فُتحت وانتزعت، فبأي ثمن يا إلهي !

الوطن حر والدولة تنتظم وتستقر، فتفتتح بذلك فترة عالية الكثافة والاضطراب بالنسبة للكتاب وكل الجزائريين. لا يمكن تفادي الأزمة، إعادة التكيّف مع الحياة على أرض الوطن بالنسبة للكثيرين منا، اكتشاف البلد والبلد الحقيقي إدراك هذه النقلة العظيمة المتمثلة في الاستقلال، الحالة العصبية للأوقات المضطربة على نحو محتوم، هذا الجمع الإنساني الرائع الذي يبحث عن فائدة توازنه، استعجال الأولويات، باختصار، كل هذا يستأثر عقولنا على حساب الإبداع الخالص ربما، أقول ربما لأنه هنا تجربة فريدة بالنسبة للكاتب.

يجب أن نواجهه بإرادة حسنة أو بطبع حسن.

تحدّثنا كثيرا، وكتبنا أيضا في الجزائر وفي الخارج عن صمت الكتاب الجزائريين. هذا الانتقاد غير عادل لأننا لم نتوقف عن التعبير والمساهمة في صحافتنا الوطنية، والمشاركة مع عزلتنا في الحياة الثقافية للجزائر، ونشر الأعمال وكذا مساهماتنا في التّقنيات السّمعية البصرية للبلاد.

عمل "لأنا غريكي" تحت الطّبع الآن والذي لن تستطيع مؤلفته أن تهديه لنا، لأن ظهوره سوف يكون له طعم رسالة من وراء القبور. أصدر "مولود معمري" مؤخرا "الأفيون والعصى" ومنحنا "رضا فلاكي" "الوسط والهامش". يهدينا مالك بن نبي بداية جدارية واسعة "بمذكرات شاهد على العصر". يعطينا صالح "انهاء استعمار التاريخ". يُحلّل "مصطفى لشرف" ماضينا تحليلًا علميًا ب"الجزائر دولة وأمة". عرض علينا ديب مؤخرا "من يتذكر البحر"، رأى "أطفال العالم الجديد" لآسيا جبار النور بعد الاستقلال. لم يبق "محمد محمصاجي" و"جمال عمران" بدون نشاط، ويضع كاتب ياسين اللّمسة الأخيرة "المضلع المرصع" وتعلن المنشورات الوطنية "أصابع اليد الخمسة" للشاعر "حسين بوزاكر"، و لم يتوقف "كاكي" عن تموين المسرح الوطني الجزائري.

أعلم ما لهذا الإحصاء من اعتبارية ونقص، لا أنسى الشباب ومن هم أقل سنا والذين يساهمون هنا وهناك في صحافتنا بأصواتهم في هذا المجموع. توفير منشورات وطنية يكون بلا شك مساهمة قطعية في الحياة الثقافية لهذا البلد، وبهذا الإحصاء للأسماء والأعمال الذي أكرّر بأنه غير تام، أردت بكل بساطة أن أبين بأنه لم يكن هناك سكوت منذ الاستقلال.

كانت المقاومة ضد الاستعمار منبعا لا ينضب للإلهام.

الآن وقد أصبح بإمكاننا التحدث عن الاستعمار بصيغة الماضي المستمر، تظل مواضيع الروايات وأسباب القصائد بدون حصر. لا يرتبط مصير كاتب جيد بحدث تاريخي قد يسبّب زواله انقضاء الوجود الشخصي لهذا الكاتب. عيشنا في حد ذاته هو مادة لرواية أو قصيدة.

رسمت لكم لحد الآن الخطوط العريضة للمشهد العام، -وكم هو سطحي وناقص- للأدب الجزائري باللسان الفرنسي.

أريد أن أحدثكم الآن عما اعتبره ميزته الأساسية أو على الأقل ما يميّزه أحسن في نظري.

إن كان ثمة جبن يُوضّح "وهذا لا يلزم إلا شخصي" هناك دائما بعض الوقاحة في تنصيب أنفسنا ناطقين رسميين، وتأدية مهمة لم توكل إلينا. وبناء عليه فإن هذا الأمر المُسلّم به، الضمير الشخصي جدا "أنا" يُهذّب من كل نرجسية مزعجة وكل تمثيل مُنتحل.

حرصت على هذا التأكيد لأن الكثيرين من زملائي وأصدقائي لا يشاطرونني آرائي ومواقفي مما أسّميّه مأساة التعبير، مأساة لخصّتها وحاولت تحليلها في مقالتي "الأصفار تدور حول نفسها " "الشقاء في خطر" بهذه العبارات الثلاث:

- أراد التاريخ أن يكون لدي عيب لغوي واللغة هي منفاي.

- أكتب الفرنسية ولا أكتب بالفرنسية.

أريد وأحرص على تكرار وتوضيح كما وضّحت دائما في الجزائر وفي فرنسا وفي بلدان أجنبية أخرى، في كتبي ومحاضراتي وفي مقالاتي الصحفية بأنه ليس في تفكيري ولا في نيّتي مجال لإدانة اللغة الفرنسية.

ليس في تفكيري ولا في نيّتي البحث من قريب أو بعيد بشكل مباشر أو غير مباشر، بشكل موضوعي أو ذاتي عن محاكمة اللغة الفرنسية ولا حتى مناقشة وجودها.

اللغة الفرنسية هي الوسيلة الوحيدة التي أمتلكها للتواصل مع بني جنسي، مع قرائي وحتى أبناء بلدي. إنها تواصلني الوحيد بدون وسطاء، لأنني هنا لا أتحدث عن أعمال المترجمة إلى الروسية والألمانية والصينية والإيطالية أو العربية.

أعطتني اللغة الفرنسية أول انفعالاتي الأدبية وسمحت بتحقيق موهبتي المهنية. أجد روعة في تحيّتها وأصبحت بطريقتها وسيلة هائلة للحريّة، نطقت لأول مرة كلمة استقلال بالفرنسية.

شاء التاريخ أن يكون لدي عيب لغوي، لا يترجم الاستعمار فقط بزوال سياسي لدولة ما. لا يكفيه الاستغلال الاقتصادي والاعتداء الجسدي، وفي الجزائر يتطابق مع الاعتداء الأخلاقي والفكري والديني. مصابة في بنياتها التّحتية محتلة جغرافيا، كانت الجزائر محتلة في روحها إن صح التعبير بهذا الشكل، كانت اللغة العربية أول هدف وأول ضحية. وكان الاستعمار يرى بعيدا جدا فوظّف طُرُقا في غاية الفعالية. محظورة في الجزائر، لجأت اللغة العربية إلى بعض الجامعات التونسية والمغربية وخصوصا الشرق أوسطية، ووجدت مأمنا في الجزائر أيضا لدى حماة الإسلام الذين ينبغي لنا تمجيدهم و تمجيد أسلوبهم في التّعليم، أو على الأقل للحرص والغيرة التي جلبوها لإنقاذ ما أمكن إنقاذه.

الاستعمار ليس فقط علة للتاريخ، بل يبقى قبل كل شيء محاولة مُبَيّنة ومدبرة، لنقل وتحويل ملكية منظّمة. فرض علينا قانونه ولغته؛ وعندما لم يستطع تحطيم الشعب الجزائري جسديا أضناه في جوهره وأناه العميقة والأساسية.

جعل منه أو حاول أن يجعله يتيم التاريخ، والكل يعلم أنه من الجهل إلى فقدان الذاكرة لا توجد سوى خطوة واحدة.

اللغة الفرنسية هي منفاي: اللغة ليست اتفاقا بسيطا، ملائمة بسيطة، وسيلة تواصل بسيطة. بل تمثل روح شعب وفرد، وبهذا المعنى يكون الكاتب نتاجا للتاريخ وبهذا المعنى يكون الكاتب الوطني الأصل ممثلا لبلاده إلى أبعد حد، لم يكن "شارل بيغي" إلا فرنسيا، ولم يكن "جوت" إلا ألمانيا، "غوركي" إلا روسيا، "سرفانتيز" إلا إسبانيا. ما قد يكون إلا عائقا وثنائويا في مجمله بالنسبة لرجل العلم، ومن غير أهمية بالنسبة للرسام والنحات أو الموسيقي، يصبح قضية حياة أو موت وطنية أو مهنية بالنسبة للكاتب. مواد الكاتب من فاتورة خاصة لا تبلغ العالمية إلا بلسان حال الترجمة.

يكون الوسيط مشكلة في المادة الأدبية كما في المادة الاقتصادية ، فليس من الضروري معرفة الإسبانية لتقدير لوحة لغويا في رسالتها عامة. لكن يحسُّ بنا أن نعرف الإسبانية لتمكين كل المفارقات في عمل لسرفنتيز.

وكذلك لا نحتاج إلى معرفة الفرنسية لتذوق "رونوار" وهل يمكننا حقا تذوق "فرلن" أو "أراغون" دون معرفة اللغة " فرانسوا فيلون".

باختصار نستطيع مضاعفة الأمثلة إلى ما لا نهاية فلا نحتاج التحدث بالبولونية لسماع بولونية "شوبين". لأنه في حقيقة الأمر لا نتحدث لغة بل نحسها نفكر بها، نعيشها، تحدّد وتمثّل أشكالاً من الحساسية الخاصة. ليس لكلمة خريف نفس الإيقاع ونفس المحتوى بالفرنسية والعربية أو الصينية.

الكاتب باعتباره صانع كلمات مثلما يوجد صانع أخشاب وصانع أحجار، لا يستطيع أن يتخذ بأدواته نفس المسافات كنجار الأبنوس مع الخشب، أو الحجار مع الحجارة أو الصائغ مع معدنه لأنه يعيش في لغة، يسكنها وتسكنه، إنه مقيم بها.

إنه مقيم والأمر كله هنا، نستطيع أن نكون مقيمين بالخارج. الكاتب الجزائري باللسان الفرنسي هو إذن ضحية مباشرة للاعتداء الاستعماري، طُرد من لغته مثلما انترعت ملكية الأراضي من الفلاحين. لكن المأساة هنا، إذا استرجع الفلاحون أراضيهم في الاستقلال فإن الكتّاب الجزائريين من جيلي تقدّموا في السن بما لا يسمح بإعادة الوضع على ما كان عليه. أقولها بدون مرارة: أظن أنه حُكم علينا باللغة الفرنسية إلى الأبد.

أكتب الفرنسية ولا أكتب بالفرنسية، أصدقاؤنا الفرنسيون يحتارون بمجرد تطرقنا إلى مشاكل اللغة الفرنسية ومستقبلها هنا وفي العالم، إنهم محقّون لأنها جميلة جدا. استطعت شخصا أن ألاحظ هذه الحيرة خصوصا لدى الصحفيين والكتّاب خلال المحاضرات التي ألقيتها منذ بضعة أشهر في باريس وستراسبورغ ونانسي. أنا متأكد أن هذه الحيرة تُفهمهم أحسن ارتباطنا بالحنين الذي نحمله للغتنا الأم الضائعة، والتي من واجب الأجيال القادمة استعادتها.

الكتّاب الجزائريون باللسان الفرنسي أكان اسمهم ديب، ياسين كاتب، فرعون، أم لشرف -وهذا الأخير كان استثناء لأن لديه ثقافة مزدوجة- لا يبقون أقل تمثيلا للجزائر، ربما ليس في شموليتها واستمرارها ولكن لفترة معينة في الجزائر. والاستعمار جزء من تاريخنا شئنا أم أبينا.

سنكون بالنسبة للمؤرخين توضيحا للثمن الذي يدفعه بلد ما، عانى من احتلال أجنبي لمدة تفوق القرن.

لكنّ الأذى لا يكون سلبيا في المطلق، فقد يفرز أحيانا دواءه الخاص، ذلك أنّنا استخدمنا في أعمالنا اللغة الفرنسية كوسيلة للتعريف بالجزائر للعالم، واليوم كأداة للتحرر. في حقيقة الأمر لا تأتي عزلة الكاتب الجزائري باللسان الفرنسي في هذا البلد فقط من عدم تعبيره باللغة المنطوقة وليست المكتوبة أوكد.

أضرار الأمية التي نعرف علاجها- لكن ومع الأسف لا يكفي معرفة العلاج ولكن يجب اكتسابه- لا تستثني أضرار الأمية المُعربين ولا المفرنسين، وعندما نشكي أو على الأقل نتأسف لعدم وجود قراء لنا في الجزائر، فالكتّاب الجزائريون الذين يكتبون بالعربية هم تقريبا في نفس الموقف.

إذن، إذا كان من الحسن الالتفات إلى الماضي للعثور على روحنا لنكون نحن بالذات، فمن الصّواب أن لا نبقي طويلا في النّدم العميق. لم يضع الاستقلال حدا لمشاكلنا، بل مكننا بكل سيادة من دراستها وتبني حلولها. فلا توجد معجزات في المجال الثقافي أو في غيره. الجزائر غنية في طبيعتها بشخصية جد مركبة وعربية مسلمة، هي مستقلة منذ الآن، فرايتنا ترفرف فوق العاصمة وفوق قصر الأمم المتحدة في نيويورك.

تنتظم الجزائر في فقرها، مشاكلها وآمالها، تركتها حرب التحرير منهكة في عالم لا يقبل الضعفاء.

يجب أن تكون مقاومة التخلف الاقتصادي مصحوبه بالضرورة بمقاومة التخلف الثقافي. يمر التحرير الوطني أيضا، ويمر أولا بالمدرسة.

تستعيد الجزائر شخصيتها واستقلالها بشكل حقيقي عندما تستطيع كل جزائرية وكل جزائري قراءة لغته، كتابة لغته. عندها فقط نستطيع وضع نقطة النهاية في مسار القضاء على الاستعمار.

أما بالنسبة لنا، فأظن أننا ولدنا مع الاستعمار وسنزول معه ، ارتياد المدارس المنظم، و تعليم تربوي صحيح بالنسبة للغة العربية يجعل من جزائر الغد جزائر المستقبل تمتلك كُتّابا، والكُتّاب قراء. أذهب إلى أبعد من ذلك، أظن أن زوالنا يتسارع في هذه الفترة لأنه من السهل مقاومة "ماسو" على مقاومة "موليير".

يشبه الأدب السفر بخرابة، نقوم بجولة في القلب، جولة في الروح مثلما نقوم بجولة في حديقتنا ومثلما نقوم برحلة حول العالم.

يبقى القلم الوسيلة الأسرع والأنجع في الانتقال من إنسان لآخر، حتى في زمن البوينغ و الكارافيل.

الفن في المدينة:

نعرف المقولة الشهيرة "عندما يتحدثون عن الثقافة أشهر مسدسي"¹ الدكتور الصداح Gobbels من الحكم النازي الذي لم يكلف نفسه عناء الغش أو ستر كلماته وتفكيره، ومن النادر أن يكون المجرمون، قتلوا الفكر والروح ومدمري القيثارات والعنادل بهذه الصراحة، عندما يتحدثون عن مهنتهم ويعلنون عن مبادئهم. وفي الحقيقة لا يتعلّق الأمر هنا بالصراحة بل بالواقعة وهذه الكلمة الشهيرة في زمن ما، أجاب عنها كاتب بقوله: "عندما يكلموني عن المُسدس أخرج ثقافتني".

من الجيد والصحيح والمطمئن أن يردّ الشرف على الغباء، وفي حقيقة الأمر يردّ على السخافة.

لم يكن الفاتح من نوفمبر 1954 مقاومة شعب من أجل حريته السياسية المحضة فقط، بل سجّل بذلك وقبل كل شيء، إرادة شعب في العثور على شخصيته الحقيقية، قيمته المسحوقة، لغته المكروبة، روحانيته الخاصة، طريقته في التواجد، بكل بساطة: أنه الوطني والتاريخي الذي ظلّ يخنقه الاستعمار بمنهجية في انتظار إزالته.

شخصية أصلية، روحانية خاصة، قيمٌ محدّدة، لغة، طريقة في الإحساس والتفكير، كل ما يُحسّسُ بنبرة عاطفية لشعب ما، كل ما يخصّه، كل ما يُرهِف حسّه ويأتي من أعماق روحه وفطرته، كل هذا يسمى ثقافة.

ضُحِّمت كلمة ثقافة بتهكم أو تصنّع في اللغة، وكُرِّست هذه الكلمة لكل العبارات والتعريفات. حبيسة المعاجم ولعبة في يد المنظرين، أصبحت كيانا، سرايا، مفهوما فارغا من كل لحم بشري. فكرة مجردة من كل حقيقة إنسانية، بطريقة ما ميتافيزيقية، والميتافيزيقا والتجريد هما غالبا ملاذا للبهلوانيين الذين يقلّقون على مآثرهم أكثر ممّا يقلّقون على ما يسمى عادة حقيقة.

¹ هذه المقولة كانت لهناس جوست المولود 1890/7/6 والمتوفى 1978/11/23 كاتب ومؤلف مسرحي وشخصية نازية. ابتداء من سنة 1935 أصبح رئيسا للغرفة الأدبية وأكاديمية الشعر في الرايخ الثالث وكان ضابطا في SS. كتب عام 1933 مسرحية عن الإيديولوجية النازية وعرضت في عيد ميلاد "أدولف هتلر" للاحتفال بوصول النازية للحكم. والجملة المذكورة أعلاه المنسوبة عادة إلى المسيرين النازيين جاءت من نص هذه المسرحية. لكن العبارة الأصلية مختلفة نوعا ما: "quand j'entends parler de culture je relâche la sécurité de mon Browning"

Acte 1 scène 1 وتُردّد هذه العبارة من طرف إحدى شخصيات المسرحية في حوار مع زميله Schlageter الشاب. وفي هذا المشهد Schlageter وزميله Thiemann يدرسان في زمن الحرب- لتحضير امتحان جامعي ويدخلان في شجار عن جدوى الدراسة بينما الوطن في حرب، فيؤكد Thiemann أنه يفضل القتال على الدراسة ويتلفظ بهذه المقولة التي أشرنا إليها. (Wikipédia l'encyclopédie libre) dernière modification de cette page 14 dec 2011.

لإثارة الفتنة وتعقيد الأمور تُقَحَّم الخلافات المدرسية القديمة، أو الأكاديمية أو الحزبية، فواجه الماديين بالمثاليين، والماركسيين بالروحانيين في نقاش عقيم يجعل من رجل الثقافة الحقيقي يبتسم. هذه النقاشات والمباحثات والمناظرات لا تنتهي ولا تستطيع الانتهاء إلى شيء، وتنقلب في أغلب الأحيان إلى تصفية حسابات.

وإن كان النور يُشعّ حقيقة من المناقشات الصريحة والنزيهة، فإنّ هذه المشادات العامة أو الخاصة لا تجعل الثقافة تخرج كبيرة.

لكل منا طريقته في أن يصبح رجل أو امرأة ثقافة. الحرفي في دكاكين طرقاتنا عندما يحفر فوق النحاس أو الجلد رسومات أو أشكال آتية من الماضي فهو رجل ثقافة. الصانع وصانع الخزف هم رجال ثقافة. البناؤون – هؤلاء المعماريين المغمورين الذين شيّدوا مدننا في الصحراء والذين جعلوا Corbusier يحلم – هم رجال ثقافة. مثل الأم التي تحكي قصة، كانت قد روتها لها أمها. مثل شاعر القرية المتجول الذي يرتجل على ربابته -تعيسة الحظ- أشعارا رتيبة تجعل الريح تغار. مثل الروائي أمام أوراقه والرسام أمام لوحته والباحث أمام وثائقه.

كلمة ثقافة هي كلمة مكتفية بذاتها ولا تحتاج إلى نعت يؤهلها.

أغنية بدوية تُقشّر بحنان الحضنة الكئيب، سجّاد الوادي المُحمّل بالشَّمس المنتصرة للبلد السوفي، قصيدة لكاتب ياسين، حلم لمحمد ديب، منمنمة لراسيم، تمثيل لبايا، مقطع للحاج العنقة، قيثارة أندلسية، قطعة مختارة من أنشودة قبائلية جمعها جون عمروش بورع، وغنّتها أخته الطاوس بالورع نفسه. كتاب للأشرف، لوحة لإسياخم، صرخة لأنا غريكي، فكر عبد الحميد بن باديس، هنا تكون الثقافة، هنا تكون ثقافتنا وتكون هنا شكل آخر من وجودنا ومن دوامنا، تمثيلنا لهذه العاصمة التي لا تمتلك إلا اسما واحدا، الحضارة العالمية.

يجعل الشقاء من الإنسان فنّانا بسهولة، وتعذّب الجزائريون بما يكفي كي لا يبقوا غير مبالين بأمور الفن والعقل.

تقاس حيوية البلد بالطبع، بإنجازات ملموسة وذات أولوية مستعجلة وفورية: إعادة هيكلة اقتصاد سليم، التصنيع، محو الأمية، التعليم... الخ، وفي الحقيقة كل الأشياء في الجزائر ذات أولوية، وكل شيء يتماسك ويشكّل لحمة تقوم بمساهمة الجميع.

لم تعد الثقافة اليوم تلك العلاقة البسيطة التي تجمع المبدع بعمله، الفنان- رجل حر بامتياز وهذه الحرية تكيف الإبداع بشكل هام- لم يعد مسؤولا فقط عن عمله أمام الفكرة التي يكونها عن واجبه كفنان. دون أن يكون حبيب نفعية مناسباته وبدون روح

أو يكون ملهما بفرصة، أكثر من إلهامه بمزاجه. يقدّم رجل الثقافة عمله كي يثري التراث الوطني ومن ثمة التراث العالمي.

إنه تلك القطرة المتكررة والمضاعفة إلى الأبد والتي تشكّل النهر والمحيط.

إنه شاهد على عمله وشاهد على عصره. موهبته وإخلاصه ونزاهته هم أفضل ضمان لتحضره وإنسانيته. هل يكون لديه طموح آخر غير أن يكون في مستوى عزلته ويكون جديرا بمكانة محظية في المدينة؟

ثقافة ورفاهية

تكون أيضا فنانا ملتزما إذا سألت زهرة عن سرّ تألقها، وإذا تأملت الغروب الحارق ومفخرة الفجر فوق الأراضي المرتفعة. هو أيضا فنان ملتزم من يرى في الريح الأماني العميقة للنأي ومداعبة الأحلام في شعر امرأة.

تكون أيضا فنّانا ملتزما عندما تهرب من دوار الكلمات وآلية الرطانة، إلى جمل بسيطة، جمل تحكي عن البرتقال، عن طفل مندهش، هيجان ينطفئ، مياه تجري نحو مصيرها، يد تتبسم لك... الفن في كل مكان، وبهذا المعنى هو إنساني وبهذا المعنى هو ربّاني.

مهما تكن الحقيقة عسيرة، فهي تسمح دائما بشعاع من الحنان وبقطعة من سماء زرقاء. خلق الإنسان من أجل السعادة، وهذا ما يجتهد في الوصول إليه وتحقيقه، رغم كل اعتقاداته الفلسفية والسياسية. لا يستطيع كل التعبير البرغسوني أن يعبر عن "اندفاعية الحياة".

هذه الرغبة في الحياة، هذا النداء الذي يحرك الجزائريين، ويضع في يد أبنائنا المحرومين هذه الأمنية المأساوية، هذه الشعلة، هذه القابلية للسعادة، هذا التعطش للابتسامة.

كان الاستعمار يمنعنا من الولوج إلى وجود عادي، من عتبة السعادة العالية، من تحقيق أحلام طفولتنا. ننتمي إلى جيل ينبهر دائما بهذه الرؤية وبطاقة التعريف الوطنية وجواز السفر، التي نعرف جيدا ثمنها. هذا الانبهار ليس وطنية قديمة ضيقة، مرور للأبيض والأخضر، بل هو وعي نيرّ بالنصر، والمقياس الحقيقي للكرامة. الحرية هي المقياس الأول للكرامة الإنسانية.

لمن كانوا يلومون الإنتاج الجزائري على أنه أعمال مقاومة وأعمال حزينة، من السهل إجابتهم بالزامية الأولويات، وبأن الحقيقة الاستعمارية لم تبعث أبداً على السعادة، ومع ذلك فإن هذه السعادة موجودة، كامنة، غير مشبعة، سليمة وخصبة، وكلنا يعرف أن الأمل هو بداية سعادة.

لم نُخلق للحزن أكثر من خلقنا للشقاء، لم يخلق أحد للحزن أو الشقاء، والفنان أقل من غيره، فهو يمتلك الامتياز الأعلى في الإبداع. الفنان أقل من غيره، هو أمل ورجاء في الوقت نفسه.

لم نُخلق للحزن أكثر من خلقنا للشقاء، لأننا ندرك بأن الفاتح من نوفمبر 1954 كان فعلاً نبيلاً للتفائل، تفاؤل شعب بأكمله، لأننا نعيش في أرض ذات نور كبير وآفاق رحبة في ثنايا القلب والجغرافيا.

لم نُخلق للحزن أكثر من خلقنا للشقاء، لأن هلكى الأرض يرفضون هلاكهم ويدفعون باللعنة ويأخذون مصيرهم بأيديهم في كل أنحاء الأرض.

من هنا مدلولها السياسي، كان درس "باندونغ" الطموح إلى حياة عادية. من هنا مدلولها الاقتصادي، هذا الطموح نفسه كان موجوداً في العاصمة أثناء اجتماع الـ "77"، والمؤتمر الذي افتتح في "كوبا" والذي كانت مهمته دراسة أشكال الكفاح ضد التخلف الثقافي، فأضيف إليه هاجس الرجال الذين قرروا العيش واقفين.

تجد الثقافة مكانتها ومهمتها بشكل طبيعي في هذا الكفاح من أجل التنمية والتوزيع الصحيح للثروات، من أجلها أيضاً يقاوم الرجال ويموتون أحياناً من أجلها، لأنه من غيرها ينقص بُعداً ما للإنسانية، وقد يكون هذا البعد أهمها على الإطلاق.

متقف جدير باسمه لا يقف غير مبالٍ أو يلجأ إلى علية التجريد المريحة. "الغصن العالي جدا" "البرج العالي جدا" أو "البرج العاجي". هي مواقف غير معقولة وممقوتة وتصبح في بلاده تجذيف حقيقي. يرتبط مصير المثقف بمصير الأمة كاملة، شاء أم أبى هو مواطن محظوظ، وهذه الخطوة تربطه برباط روحي مع مجتمعه.

يجب أن تتجه كل الجهود إلى ملء هذا التباين وهذا الهامش المدوّخ بين المثقفين وباقي الأمة في البلدان التي تعاني من الأمية، وهذه قضية حياة أو موت بالنسبة للأمة. منذ ذلك الحين ودائماً وبدون انقطاع ولا محالة، نجد ويعترضنا مشكل التعليم ومحو الأمية.

منذ ذلك الحين نجد المدرسة، المدرسة الجزائرية بعناية إلهية لا تعوض، هذه المدرسة-طال الزمن أم قصر- سوف تتغلب لا محالة على التخلف الثقافي.

الثقافة ليست ترفاً، ولا رضى لمتذوقي الجمال، إنّها تلوّن الحياة ومعيشة كل يوم، تطبع الأقدار بطابعها، ترفع من مستوى الحياة مثلما يرفع الدّخل الجيّد من القدرة الشرائية ومنه الاستهلاكية. تعرف الشّعوب التي مازالت تناضل من أجل الحرية ثمن الثقافة.

مؤخراً وبمناسبة السنّة الجديدة، خاطب الرئيس "هو شي مينه" شعبه الفيتنامي الشّهيد والبطل بأبيات من الشّعير.

من أجل عطلة في الجزائر

هذا البلد الكبير و الذي أتانا من زمن بعيد، ناجٍ من كلّ فيضان تاريخي أراد أن يودي به، ويذهب إلى منتهى الرّمال ومنتهى الذروة ويعود إلينا كالفكرة الثّابتة العجيبة، مثل الهوس الطاهر، معرفته ومعرفته الجيدة، معرفته من القلب هو أيضاً فعل ثقافي.

نستطيع منذ ذلك الحين أن نوّمن به أحسن ونحبّه أكثر ونأمل أكثر. إذا لم نزره عندما تتاح لنا الفرصة، هذا يعني حرمان أنفسنا من مسرّات نتعنّت في البحث عنها في مكان آخر. حزين هو الكتاب الذي لم نقرأه والذي لم نُقصّ حتى صفحاته ! هذا الكتاب الذي لا يطلب منا سوى أن نأخذ بنظرة، ويأخذنا من أيدينا. من المهم أن نعرف بلدنا أكثر مما نعرف ذواتنا. إنه شرط أصالة الفنان عامة والكاتب خاصة وشرط تمثيله أيضاً. الجزائر ليست وطناً مجرداً، بل هي جسد وروح في آن واحد وحقيقة غنية جداً، و ثمينة وأصيلة ولا تقبل الشّبّه، حية، بالأخص حيّة.

بما أنّني سافرت كثيراً، أعرف كيف يوضّح السّفر الآفاق ويغنيها، وكيف تتوازن النظرات في موضوعية أكثر نجاعة، وكيف يصبح الإعجاب حذراً وكيف أن الأحكام المسبقة لا تقاوم امتحان التواصل والتّبادل والاكتشاف. لكنني أعرف أيضاً أن الأسفار لا تملك كل المزايا ولا تُكوّن الشّبيبة بالضرّورة، وتُحرّفها في معظم الأحيان. أحب كثيراً عبارة "نعود بسرعة" لأنها تتضمن فكرة العودة، العودة إلى المنبع. عندنا وفي بيتنا. "نعود بسرعة" هذا لا ينم عن الخيبة مثلما ينم عن الحكمة.

فرض علينا الاستعمار شكلاً من العبثية - لم يكن بلدنا سوى احتجاج- لم نكن نُقرّر. المفارقات المأساوية، عديمة الإنسانية. وكان اللامعنى البليد والمثير للسّخرية يسُنُّ

القانون. لا يمكننا تذوق غروب الشّمس تحت ظل قبعة ليست لنا. لم يكن الاستعمار مجرد تناقض مُفزع، وقهر بغيض بل كان سبباً متواصلاً لأمر الروح وتجذيف لا يمكن احتماله.

في ساعة الاعتداء الاستعماري -ودام هذا الاعتداء من 1830 إلى 1962- كان واضحاً بالنسبة للجزائريين بأن الجزائر لم تكن تدفع إلى السّفر، ولا متأهبة إلى سياحة سعيدة أو عطل مريحة، لم نكن في بيتنا، كنا أمام عتبة منزلنا وفي شارع التاريخ. اليوم وقد أصبحنا في بيتنا، مثلما نعثر على بيت احتل طويلاً من طرف متطفّلين، من الآن فصاعداً يحق لنا زيارته وإعادة امتلاكه وجردّه وإقامة جولة المالك في أرجائه، ونبعث فيه من عقلنا وروحنا ونعيد تأثيثه. ومنزلنا هذا لديه بالطّبع نوافذ مفتوحة على العالم، واستقلاله لم يكن سبباً في عزلته، بل يسمح له بامتلاك شخصيته. لم تكن الجزائر أبداً أكثر حضوراً على الأرض مثلما هي منذ أن تحرّرت. نقيم مجدداً في قدر الإنسان عند شارع التاريخ.

هذه العبثية التي جعلت منا نعرف Nevers أو Genève دون أن نضع أقدامنا أبداً في العاصمة أو تلمسان -يجب القول إذن بأن آباءنا كانوا غاليين وكانوا يحدثوننا عن Guillaume Tell بدلاً من المقراني- هذه المفارقات التي جعلتنا نحلم بثلوج Morzine بينما تمتلك ثلوج Chelia نفس الحياء الرّائع. إنه وقت مضى، وقت سيء قبل جويلية، جويلية الذي أنسانا في جويلية أخرى في صبيحة 1962.

إن تصوّر أسفار وعطل وسياحة ثقافية أو ترفيه خارج الجزائر فقط يعتبر إحساساً بالاستعمار، وهذا سهل جداً. بالتأكيد La Savoie، باريس بلا ريب، ولوزان طبعاً، الرفاهية أكيد، العربات الهوائية، صاحب المرآب والغربة بالتأكيد.... لكن إلى متى. نعرف طبعاً كل ما يدعو إلى هدوء الرّوح إلى درجة نسيان أنفسنا، في بلدان تبدو بدون مشاكل وتوفّر علينا منظر البؤس. ولكن أليس في هذا الهروب ما يذكرنا بالنّعامة ونوع من الكسل وبعض الدّناءة؟ وبعد كل شيء نحن ما نحن عليه، ومن حقّنا أن نكون كما نريد. يتعيّن علينا أن نجعل من هذا البلد الرّائع، أرضاً مختارة للعطل والسّياحة الدّاخلية. لديه كل الامكانيات ويهبّ موارد قد نُحسد عليها.

أنا متأكد بأننا نستطيع أن نتعافى من مرض في "الشريرة" أكثر من Comblouse .
وإن كانت هذه الجبال تعجبني فلن أؤكد جمالها أبدا بقولي: "آه نظن أنفسنا في ... " في
جيجل- بجاية، تنزل أشجار الوزال إلى البحر الأزرق المُعْرم، الذي يتسلّى باستنزاف
حلمها: "نظن أنفسنا في la coté d'Azur. أشجار السدر في بوحمامة التي ترفع
أجمل سماء في العالم، نظن أنفسنا في جبال "الألب". تذكر بجاية ب Super-cagne.
ميناء العاصمة يثير La Baie des Anges، وتذكر المتيجة ب La Provence
وتذكر "تيازة" Le Lavandou. باللسخرية نظن أنفسنا في مكان آخر، في كل مكان
بعيد إلا هنا، إلا في بلادنا، إلا في بلادنا الجزائر المتواضعة والمجهولة، السيدة الكبيرة
والجميلة في حُلبيها. هذه الجزائر التي تُبْهَج الكثيرين من الأجانب ولا تؤثر في هؤلاء
الذين لا يعرفون حتّى أنهم يعيشون بجانب كتاب مغلق يحتوي على أروع الصّور.
الغروب الذي رأيته يزيل تجاعيده على المدينة، صدّقوني لا نراه إلا عندنا، ونوارس
سيدي راشد لا تجهله، وتتنبه دائما لمعجزة كل مساء.

مرحبا

الايدي عصافير... أعرف بلدانا نفقرب إليها بواسطة الذكريات. الجزائر من كثرة ما
جعلت الحديث عنها كثير فهي لا تُكتشف بل تُزار، فهي دوما تؤكّد انطباع المألوف.
جاءت هذه الطائرة مثلما ندقّ على الباب "ادخلوا كنت بانتظاركم..."
لم أكن أعلم ما لكلمة "كنز" من معنى والتي أريد أن اجعل منها اسما.
الجزائر العاصمة... كلمة لها ايقاع موسيقي. كلمة تريد مجازفة كبرى. هي قطعة
صغيرة من الغنائية. قطرة من الخيال، المدينة تطمئن في الشّمس وتتبعثر في حيائها.
هذه الرّاية، إلهي كم كلّفت، إنهم حواشي تزيينية، وهذه السّماء الموهوبة. ننزّه بواسطة
لحن موسيقي، وأسلّك طريقا ولا أعرف كيف أختار عندما يكون بوسعي الاختيار.
هذه الطريق التي تنقطع وتطوف، الجبل والبحر، نوع من التّخلي وطريقة في العرض
بالألوان الطبيعية. النظرات لا تمنع نفسها من شيء. بلاد القبائل ... بجاية....

القبائل هي تصدير لقسنطينة، هي نقطة تعجب. هناك نوع من التّحدي في هذه التحفة. قاعدة، الحنين يتأملنا. تنتشر السّهول في الأسفل تماما، سلطنة بالقرب من حارسها. والرّمال يلتحق بها. الرّمال يتحرّر من صبره الطويل.

تلك المستحّمات تمتزج بالحياة.... حياة الرشاش.... في عرفنا الحياة تسمّى الماء. الحياة تسمى أيضا الموسيقى.... جميلتي لها صاحبتها التي تمتد حتى الأوراس...."سأدخل تمقاد من بوابة TRAJAN نائما".

ينتابنا بعض الدوار بمعايشة الماضي، مع أن هذه الأبدية تواسينا، وتحرس تمقاد رهافة الحضارات في ظلال "الشيليا".

أدركت لتوّي أن كلمة "آثار" لا تعني شيئا... نعلم أن المقابر لا تموت أبدا والسعادة تتدفّأ في الشّمس.

يأتون من الأفق ويذهبون نحو الأسطورة، إنهما الأسطورة والأفق يرفعان الرّمال والملحمة. إنه لقاء أكثر منه مزارا.

استقرّت تلمسان في نبلها، وهي تعلم بذلك، وعذرها هو جمالها. نَقّحت مهدها، وحافظت بغيرة على أوقات عظيمة للإنسانية، وهي تشهد بذلك. وهذه.... من الشّعْر، أعلم أنها حوار ذاتي لماضي يحكي، هي لا تقص، ولكنها تتدفّق... لديها لطافة بسيطة من الأصالة. عندما يثرثر التّاريخ يصنع دائما أغاني.

وهذه الشّلالات، تلمسان بدون بومدين تصبح نورسا في تحليقه. وتبقى هذه المنارة مثل دعامة عجيبة من النّعيم لتدعم السّماء كتأهبها لأداء اليمين. الباب يفتح.... قلب بخافقين، كتاب فن، الإسلام قدّم إهداء على رسالته. موسيقى الكلمات تجد إيقاعها.

المزاب مقطع أيضا يحلم في مكان ما بهذه الجملة التي لا تنتهي... ها هي تُجمع حارة، ومن صميم القلب، وهناك أيضا الإله والرجال، غرداية. الرقصة هنا هي طريقة في التعبير....

خطيرة هي الرمال.

الغزلان تقودنا، الميدان ينتظرنا. تتذكر الصّحراء صيتها، هذا السيّد المُفترى عليه يبذل جهده في بسط عظّمته ولا يعرف إلا أن يكون كبيرا. إنها طريقته في تهدئة

خواطرنا..... بعقريته، ينتقم في رخائه، هذا الفنّان له قلب بل لديه عدة قلوب.
"القوليه"، بمجرد التلقّظ بهذا الاسم يُخَيَّل إلينا أننا نروُّغ سرباً من اليمام، الظِّل أزرق
تماماً، تلهو الطرقات في ضياعها ويصنع البستاني روائع.
هل هو فعل فكاهة أم ضيافة، هذا النّهر، الذي تخترعه لنا الصّحراء. هذا النّهر ليس
معجزة، وربما يكون مرآة لهذا الكبير المتألق. أو يكون نظرة يعكسها إلى السّماء. نجت
الإبل من بعض نهايات العالم.
وجاءت الطّائرة، وجاءت الشّاحنة، والإبل اليتامى مآثر الزّمن الغابر، بواخر جميلة في
تقاعد، الصّخرة التي تمل فوق شاطئ الرمل، لقد قضت وقتها.
أمضى "شارل دي فوكو" الكتاب الذهبي للرّمال، عصفور فوق الأشجار متأكد من أن
هذا ليس سوى وداعاً.....
الحياة التي تريد أن تحيا، فلتسترجع الحياة حقوقها. نزور الابتهاج ومثلما هو الحال في
كل العالم الحياة تبدأ بالزواج.
إنها ليست طلقات بنادق إنها صرخات الفرحة، هي طريقة في وضع علامات الحماسة.
يتقدم مَفَوّض السّعادة. لكن يجب استحقاق المنبع، هذا الماء الذي سوف أشرب أشربه
من المنبع. والمنبع يدافع عن نفسه، يتظاهر بالدّفاع عن نفسه لكنه يرغب في
إنعاشي....
يعود الشّعْر إلى بيته.... تمثيلية هزلية رائعة سوف تُلعب الآن، التقاليد في الصّحراء
ترى بأن عائلة الخطيبة باعتبارها المتضرّرة تستقبل سيّد المستقبل بحفاوة.
تعاقيه على جرّأته باتخاذ امرأة.
بدورها الشّمس تعود إلى بيتها.....
ينفتح الأفق كذراعين....
أعرف بلدانا نتقرّب إليها بالذكريات.
وأعرف بلدانا لا تغادرها كلية أبداً.

حضور السينما الجزائرية ومهمتها

أعطت السينما الجزائرية دلائلها قبل الآن مع "يسمينة" و"بنادق الحرية" في ضوء السلاح، عندما كانت الجزائر توجه ضربتها الأخيرة ضد الاستعمار. مهدت سلسلة من الأفلام القصيرة منذ الاستقلال لإخراج أفلام يعرفها كل واحد منذ الآن ابتداء من "معركة الجزائر" إلى "ريح الأوراس" مروراً بـ "فجر الهلكى" "الليل يخاف من الشمس" و « une si jeune paix ». وعلمنا مؤخراً بأن محمد الأخضر حمينا بدأ بتسجيل "حسان طيرو" مع "رويشد". من جهة أخرى المشاريع التي تداعب المخرجين المتلهفين لإثبات أنفسهم في الأعمال كثيرة. تملك الشاشة الكبيرة والتلفزة مرديها وخدمها، ومن المؤكد أنهم يحضرون لنا مفاجآت سارة. وأخيراً فإن شغف الجمهور للفيلم يعطي هنا التدبير للأهمية التي يوليها الجميع لما هو صناعة وفن في آن واحد.

ولدت السينما الجزائرية من الحرب ولم تكن ممكنة إلا مع الاستقلال. ونظراً لطبيعتها لم تستطع فرض نفسها على الجهاز الاستعماريين أو تُصنع رغماً عنه كما فعل الأدب أو الرسم.

كانت في أيدي القوة الاستعمارية كلية، وتفترض وسائل مادية هائلة مع حرية التعبير. إذن يصبح ذلك مستحيلاً وبعيداً عن التفكير. فالتحقت السينما في الفترة الاستعمارية بنفس الشكل للقمع والاستلاب اللذان يميزان النفوذ الإمبريالي. كان ينقل على الشاشة مواضيع تُستغل بصرياً لإضفاء الشرعية على الاستعمار وتبريره المنظم على حساب كل حقيقة تاريخية، وكل أصالة اجتماعية وكل احترام للقيم الموقرة مع ذلك.

كانت هذه، تُمثّل السينما الوقحة للغزو والغرابة المريبة، كان نجاحها التجاري الكبير دالاً جداً، ويبيّن إلى أي درجة دخل الاستعمار في الأخلاقيات الغربية كالمسلمة التي لا تناقش ولا تدعو للصدمة أبداً. ومن جهة أخرى نجد نفس الضمير الطيّب ونفس الجهل في أدب كامل فُرض علينا، واستمر كأفطع تقدير للعنصرية المعترف بها أو غير المعترف بها، ولاستغلال الإنسان في جنة العاطلين والمغامرين اليائسين .

كتاب كبار ك Gide وشاعر كبير منعزل مثل Saint Exuprey لا يفلتون من هذا الإغراء السيء. سوف يقال الكثير عن هذا الأدب الذي اكتشف "البلاد الحارة" عامة والجزائر خاصة، وتوجد "الخطيئة" نفسها في سينما تلك الفترة. سينما اكتشفت "الرجل الأزرق" وصليب الجنوب، دروب منسية، سيدي براهيم، الرمال الحارة والقبعة العسكرية لعضو جوقة الشرف (...). عواصف رملية، سرب أبيض و"البلد"، التأثير السحري المؤذي لشرق من الخشب لم تتمثل الوقاحة والفظاظة في إنجاز هذه الأفلام فحسب، بل كانت تفرض علينا على شاشاتنا. صحيح أن الاستعمار لا يتراجع أخطاء الذوق.

كان علينا إذن انتظار حربنا التحريرية واستقلالنا كي تأخذ الجزائر مصيرها في يدها، وتعطي نفسها أخيرا السينما التي تستحقها، والتي تعيد وضعها في إطارها الأصلي وتنوع فكرها الرائع وعمقه وتفرد وأصالة بكل بساطة.

إذا أكدنا وقبلنا بأن الجزائريين وحدهم قادرون على التحدث بشكل جيد عن الجزائر، والتغني بها والإحساس والتأثر بها، هذا لا يعني أننا مأخوذون بنوع من الاكتفاء الثقافي، أو شوفينية عقيمة ضيقة، أو حتى نرجسية وطنية عبثية. كي نعرف بلدا جيد، يجب أن نكون من هذا البلد، وتنتمي إليه بكل أرواحنا وأعصابنا، مرتبطين إليه بجذورنا الضاربة في الماضي البعيد للفطرة. إذا كان Aragon يُغني "باريسه" بشكل جيد ذلك لأنه منتوجها التاريخي وحاصلها الأدبي. وإذا فهم كاتب ياسين "الرمال" ذلك لأن لديه النبرة الشديدة. إذا ولد Chlokov من الموهبة ذلك لأنه عاش نهريه. لا يستطيع Federico Garcia Larca أن يكون إلا إسبانيا و Césaire من جزيرته. يشبه Ramuz ال Valais. Pablo Neruda سلسلة جبال Andes. إنما هنا حقيقة أولى تراقب دوما. تركيا Pierre Lati ليست نفسها تركيا Nazim Hikmet والموهبة لا دخل لها في معظم الأحيان.... لكن في مستوى الانشغالات العليا للإنسان تلتقي الأعمال. تلتقي الجبال وتعترف الجغرافيا بعجزها. هي منذ الآن معجزة الثقافة الكونية، وكي يصل هذا النشيد العام إلى هذه الكونية يحتاج لإفراز وتخصيب من الأرض الحسية.

للسينما الجزائرية الشرف الهائل والامتياز الكبير في التعريف بالجزائر للجزائر، والكشف عنها للعالم بشكل سريع وواسع أكثر مما يفعله الأدب والرسم أو الموسيقى – وهذه طبيعتها الخاصة التي تؤهلها- لأن الفيلم يمس أكبر الشرائح. وتجعل منها مساحتها الوطنية والدولية شاهدا وسفيرا. ولا ننسى أنها تظل مع التلفزة التعبير الثقافي الوحيد الذي يمتلك هذا الانتباه داخل وخارج حدودنا. السينما ليست فنا قاصرا أو سهلا. إنه فن حقيقي، راشد، وبالغ بامتلاكه طرائقه وأساليبه وكتاباته. ربما سوف يقول التاريخ يوما بأنها أكمل الفنون.....

صوت وضوء

من بين التقنيات السمعية البصرية التي جاءت لتعطي أبعادا حساسة للثقافة وتثبتها وتكثرها وتساهم –من هذا المنطق- بوفرة وفعالية في الحفاظ عليها وتطورها وإشعاعها، هناك واحدة حديثة نسبيا والتي لم تكشف ربما عن كل مواردها وإمكاناتها الأصلية: إنها مشهد الصوت والضوء.

يقال أنها ابتكرت (تقنية الصوت والضوء) في ليلة عاصفة من طرف صاحب قصر اكتشف جمال قصره وحضوره المأساوي وحياته المضطربة، في وميض البرق وثوران الرعد والإعصار. تأسس الصوت والضوء على إحدى الفتن الرائعة: الليل. يمتلك الليل موهبة، وهو عبقرى عندنا في الجزائر، يبسط العوالم في نفس الوقت الذي يتداول معها حركة باطنية عجيبة وعميقة. هو سرُّ قبل كل شيء، أي مسرح. يبدو أنه مكتف بذاته ويوقظ فينا خاصية لا يثيرها النهار إلا قليلا: الخيال. من الخيال إلى الحلم لا توجد إلا خطوة أو عتبة نتخطاها عند الغروب. الليل دعوة للأسفار الكبيرة عبر الزمان والمكان، والاستدعاءات الكبيرة و المصالحات التاريخية الكبرى.

مكان، مكان عالٍ، ضوء، تعليق، موسيقى.. التقنية بسيطة نسبيا وأساسية. يعمل الضوء هنا عمل الذاكرة التي تُخرج الذكريات من طي النسيان وتعيد بعثها، يُعيد تحيين حدث في إطاره وتستثمر الأضواء الكاشفة الليل والماضي. يُعَلِّق الميكروفون وتخلق

الموسيقى وتعيد خلق الجو، أصوات مصطنعة في هم من الواقعية، تعطي للحياة الصوتية نكهة الوثيقة والشهادة، وينتزع المشهد من الليل ويصبح انتصارا على ليل السماء وليل النسيان.

منطقيا وطبيعيا، ينتظر من الصوت والضوء أن يلعب دورا كبيرا في الجزائر، بلد فيه لليل مزية نادرة، بلد بكثافة تاريخية عالية وأسطورة وملحمة، نجد أطلالا في كل مكان لحضارات بائدة وآثار وأنصاب، من هذه الأماكن -الأماكن العليا- مدن شهيرة وساحات قتال، قصر من عصر المجد، قلاع، مواقع حصينة وأزقة قديمة تغوص في ثنايا الروح.

هناك بلدان تمتلك فيها كل مدينة مشهدها "صوت وضوء" حتى وإن لم يكن لها سوى قصر ريفي قديم، برج مهدم، جسر تحصين أو بقايا ميدان. صحيح أن كل ماض هو موقر. للصخور سحرها. تُنطق أثينا الAcropole، وتعتبر la Loire في فرنسا دراسة أحادية بليغة. ويحكي "أبو الهول" حكاية الزمن الأول لليل.

"الصوت والضوء" هو مشهد ليلي وفصل جميل بامتياز، ترتبط انطلاقته بالسياحة مباشرة. يجب أن يُسجل إما في إطار دورات للزيارة، أو يبرمج في مجموع المهرجانات. من البديهي أننا نستطيع ضبط هذا الأمر نهائيا بتسجيله لإعادة إنتاجه كلما أردنا. فيمكن بناؤه على موضوع محدد أو استحضار مشهد تاريخي واسع، وقد يكون عرضا بسيطا، مضاء ومعلق عليه لموقع يتطلب استعمال أصوات مشهورة أو مجهولة. جوق وإيقاع لتخطيط صوتي مناسب. يسمح "الصوت والضوء" في كل الأحوال للصوت الإنساني باحتكار، بالاحتكار الحقيقي للعوالم، ويثبت سيادته الملكية وأبديته المتعالية. وبينما يجعلنا المسرح والسينما مجرد متفرجين: الإخراج، لعب الممثلين، حضورهم الجسدي، لباسهم واللقطات نفسها، فإن "الصوت والضوء" يجذبنا إلى أبعد من الصورة البسيطة، إلى الزمن، الزمن المسترجع. يعطي صوت الإنسان منتهى الدلالة للعوالم والأشخاص والأشياء بعد امتلاكها. يتحدث من أجلهم وفي مكانهم وفي أرواحهم.

يستيقظ التاريخ ويخرج من الكتب والمتاحف، ويخرج من الصحف والنجوى الليلية ! هذا المنحدر الذي يستعيد الحياة، يُحدِّثنا عن ربيع مغتال في 1945، هذه الراية في الظل وهذا الأمل في العتمة. آه ! لو استطاع الرمال أن يتكلم! لكنه يعرف كيف يتكلم ! الصخرة شديدة الحرّ من اللّهفة، الغنائية الكامنة، الصخرة، هذا النصب الذي عُدَّ فخامة، مزهوٌّ في أسطوره ويعطيه ضوء القمر أبعاده الأولى ليحكي حياته التي لا تكفيها ألف ليلة وليلة... يفيض الخيال من كل جهة كسيل خام. إضاءة مرتفع "الشيليا" بأضواء أقوى من النار تجعل النجوم تغار، الذهاب إلى غاية القصبة للطلب منها أن تحكي العاصمة، والذهاب إلى غاية الصحراء والطلب منها أن تحكي عن الغزلان. هذا الظل في الطريق، ربما يكون "بن باديس"، وهذا الخيال على حافة الماء قد يكون "بن مهدي". يستطيع صوت الإنسان أن يلتحق بالأبدية، أكان صلاة، غضبا، ابتهالا أو استحضر تواجه الموت. صوت من وراء القبور، من وراء القرون بمجرد حضورها السحري وإقناعها تساهم في إعمار الغابات أحسن من العصافير، تتساعل في السهول أفضل من الريح وتُحفر على الصخور أحسن من النقوش. أصبح لمشاهد "الصوت والضوء" حق المواطنة في عالم الثقافة، هذه التقنية الجديدة، هي في الحقيقة قديمة قدم العالم والإنسان. ويكفيانا للاقتناع بذلك أن نرى اقتراب الماضي منا تحت ضوء القمر في الكواليس المبهرة لليل .

الفصل الثاني

الاستعمار - المدرسة - الأدب

1 الاستعمار:

دخل الاحتلال الفرنسي أرض الجزائر بنية الاعتداء والإبادة ونهب الخيرات والتوسع على حساب السكان الشرعيين ، ففرض عليهم وصاية دامت مائة وثلاثين سنة، تضررت منها أجيالا كاملة، اضطرها الاحتلال إلى العيش على الحواشي في كل المجالات، بينما سيطرت القلة الأوروبية على الأماكن الاستراتيجية للبلاد وعامل الفرنسيون الجزائريين معاملة السادة للعبيد، فكانت آثاره واضحة جدا في حياة الشعب على جميع الأصعدة. كان هذا الاحتلال من نوع خاص —حسب مالك حداد- لأنه كان يستعمر الروح بعد اغتصابه للأرض وكان سببا لجميع المآسي والأحزان والتخلف¹ وبقي الجزائري يجتر آثاره حتى بعد الاستقلال، كما وضّح الكاتب في مقالاته التي رغم أنها كتبت بعد الاستقلال بسنوات إلا أن قارئها يستحضر لحظات قاسية عايشها شعب تطلع إلى الحرية.

تطرقت هذه المقالات إلى موضوع الاستعمار بشكل مباشر وعناوين واضحة تارة، وبشكل غير مباشر كان فيها الاستعمار سببا في المشاكل تارة أخرى وهي كالتالي:

- La signification d'un drapeau/ 05 Octobre 1965.
- Cela s'appelle colonialisme/ 26 Janvier 1966.
- Les yeux et la mémoire/ samedi 18 Mars 1967.
- La fin d'un mythe/ Samedi 24 Juin 1967.
- La mémoire du peuple/ 26 Aout 1967.

¹ عن الاستعمار يقول مالك حداد:

Directement ou indirectement, il était en effet la cause des cent mille raisons que nous avons d'avoir des rides et des cheveux blancs, d'avoir un rire amer et des printemps en deuil, des vingt ans bousculés par une maturité précoce et cette gravité douloureuse qui se lisait dans les yeux effarés de nos enfants. Les blés en herbe se débattaient parmi les rances. Les oiseaux sont savants au règne de l'oiseleur et préfèrent aux clairs-de-lune l'obscurité complice des Partisans. Journal En Nasr, "A chaque jour suffit sa joie, 1^{er} Juin 1965,p 13-16.

- La présence de novembre / samedi 08 octobre 1967.

- Le racisme cette occasion perdue/ samedi 20 Janvier 1968.

1.1- النزعة العنصرية للمستعمر:

لم تكن الفئة التي دخلت الجزائر مستعمرة، من القادة العسكريين والجنود فقط بل "تعدّد سكان المستعمرة (الجزائر) من المالك الغني للأراضي من أصل فرنسي إلى الفلاح الصغير من الجنوب، وشكل هؤلاء تدريجيا مجتمعا فعل كل ما بوسعه ليثبت نفسه في الجزائر الفرنسية، وزرع هؤلاء أيضا العنف بتأسيسهم لفكرة الاحتلال والإبادة"¹، وكانت الشعوب المستعمرة عبارة عن حقول مفتوحة للتجارب والنظريات التي صنفت البشر إلى صنفين: صنف متحضّر له مهمة الإدارة والتحكّم، وصنف ثان يتصفّ بالدونية والبدائية من الناحية الفيزيولوجية، وعليه أن يكون عبدا أو تابعا للصنف الأول. "هذه الأفكار المهيمنة أصدرها مفكّرون فرنسيون خدمة للسلطة الاستعمارية، وحتى أطباء العقل ساهموا في ترسيخ أفكار عنصرية معادية للأجانب. وكان على رأسهم طبيب العقل Moreau de tours الذي مضى نصا افتتاحيا سجّل إلى الأبد ما يسميه المؤرخون اليوم "بطب العقل الاستعماري"²

في سنة 1932 دافع Antoine porot* على أطروحة "السلوك الإجرامي المتهور لدى الجزائريين، التي مفادها أنّ الأنديجان الشمال إفريقي والذي قشرة المخ لديه غير متطورة، هو كائن بدائي وحياته خاملة وغريزية بالدرجة الأولى، ومضبوطة بدماغ متوسط"³ وتتلخّص الأطروحة فيما يلي: "متبجح، كاذب، سارق وكسول. الشمال إفريقي المسلم يُعرف بأنه أبله وهستيري علاوة على كونه فرد يندفع إلى قتل غير

¹ Laoudj Mabrouk, (psychiatre et maitre-assistant en psychologie clinique) El Watan, 30 /11/2010.

² Ibid, (ce texte a été un acte de naissance portant comme ultime conviction que le colonisé est un sujet inférieur à tous point de vue.... Que la maladie mentale est fortement tolérée au Maghreb musulman, et ce, du fait du climat et de la pratique de l'islam. Ce sont des déclarations arbitraires qui ont dominées pendant plusieurs années, les travaux de la psychiatrie coloniale française en Algérie).

*Antoine Porot est un psychiatre français né le 20 Mai 1876 à Chalon-sur-Saône, décédé en 1965. Il est le fondateur de l'école algérienne de psychiatrie à laquelle Frantz Fanon s'opposa.

³ Pendant un demi-siècle, les psychiatres de l'école d'Alger ont placé « l'indigène nord-africain » à mi-chemin entre l'homme primitif et l'occidental évolué. Leur thèse était que l'indigène, étant dépourvu de lobe préfrontal, est dépourvu de morale d'intelligence abstraite et de personnalité. WWW.cijoint.fr.

متوقع، وبالنسبة لـ Porot فإن المغاربي غير قادر على تولي نشاطات راقية ذات طبيعة أخلاقية وعقلية. وابتداء من الثلاثينيات تجاوزت مدرسة الجزائر المرحلة الوصفية وأعطت قاعدة علمية لمفاهيمها"¹.

الاحتلال فعل سبقته فكرة لدى الفرنسيين، فسيطرت الفكرة على صاحبها (المستعمر) أولا ثم امتد أذاها إلى الفرد المحتل بعد ذلك. وبهذه النظرة أصبح الفرنسي مستعمرا مثله مثل الجزائري- حسب مالك حداد- "لأنه مصاب بطبع قذر وسيء يُفسد العلاقات ويُحرم الصداقات ويُشوّه الإثراء المتبادل، وتُسيّر فكره فكرة متعفنة تعيق تقدمه هو أيضا. فإزالة الاستعمار ليست ظاهرة تخص المستعمرين القدامى فقط، بل يجب أن تحدث بنفس الطريقة في فكر المستعمرين القدامى(....) وإذا لم نستطع منع المعتوهين من العنصرية الموجودة بداخلهم وفي لا شعورهم أحيانا، فمن حقنا وواجبنا -يضيف الكاتب- التّبلغ عنهم، وإزالة أُنعتهم التي لطّخت المؤسسة الشريفة للتعاون"².

العنصرية ومن ورائها الاستعمار ليست سوى فترة مرضية من التاريخ un moment pathologique de l'histoire ، وهي الموعد الذي أخلفه المحتل مع الإنسانية ومع الله -مثلا عبّر عنها الكاتب-، لأنه في كلّ زمان وكل بقعة من الأرض يرتدي المستعمر قناعا جديدا ويبدأ رحلة جديدة من التقتيل والنهب "ويتعلّق الأمر هنا بموقف عميق ومحسوس، وكره تجاه المستعمرين العرب على وجه الخصوص. هو إحساس أعيد تحيينه و الاعتراف به في الحرب في الشرق الأوسط، فلا نستطيع أن نكون بقلوبنا مع استقلال الجزائر، دون أن نتمنّى تحرير فلسطين. ولا نستطيع إدانة الامبريالية الفرنسية دون إدانة الامبريالية البريطانية الأمريكية، وقاعدتها المتقدّمة إسرائيل"³، ويشير الكاتب أيضا إلى كلمة الحروب الصليبية، التي أصبحت فيها طريق أشجار الزيتون تؤدي إلى آبار البترول في العصر الحديث.

¹ Laoudj Mabrouk, El Watan, 30 /11/2010.

² Malek Haddad, En Nasr, Le racisme cette occasion perdu, 20 Janvier 1968 (n°829).

³ Malek Haddad En Nasr, La fin d'un mythe, 24 Juin 1967 (n°650).

الحذف من عند الطالبة (.....)

2.1 الذاكرة الحية:

عاش شباب ما بعد الاستقلال في زمن لم يعرف فيه الاحتلال إلا من كتب التاريخ، لكن العنصرية التي عايشها أسلافه تظهر واضحة على أجسادهم المشوهة وتمسح نظراتهم العميقة "فهذه المرأة الشابة بابتسامتها الحادة نوعاً ما، هذه المرأة الشابة التي تهز طفلها بعد أن رفعت الطعام عن المائدة، هذه المرأة الشابة الصامته والممحوة، ربة بيت مثلها توجد الكثيرات والكثيرات، لو أرادت الانحناء على ماضيها لأثرت كاتباً أو مخرجاً سينمائياً: معقل المقاومة، في السن الذي تحلم فيه الفتيات بمستقبلهن، المعقل، الجبل، الخوف، الطائرات، الكمائن، المشي وكذلك المشي.... ثم في يوم من الأيام السجن الاستعماري، التعذيب ثم تتحرر بالاستقلال وبفضل الاستقلال¹" فهذه السيناريوهات البسيطة -إن صح التعبير- التي كتبها مالك حداد في مقالاته² طبعت حياة كل فرد من الأفراد الذين عايشوا الاحتلال. "ويكفي أن ينحني أحدهم على ذكرياته، حتى يأتي تاريخ نصف قرن أو أكثر بحمولته القاسية. وبذلك يدرك الشباب ثمن الرّاية التي يراها مرفرفة على البنايات الرسمية للدولة"³.

عندما رأى مالك حداد بعض المواقف والمعاملات في جزائر ما بعد الاستقلال، أحالته مباشرة على ذكريات مؤلمة ومزعجة "كانت لي هذه التأمّلات في هذه الحانة الكبيرة في العاصمة، والتي كانت تحتفظ بجو مشوب بخطأ تاريخي فوق التحمل، وتحمل صورة المعاش (le déjà vie). هذه الحانة التي تدور بانتظام، وتسير جيّداً، أين كان بعض الزبائن الأوروبيون، بكل براءة وبكل طيبة وعدم إدراك، وبكل فظاظة يخاطبون بعض النوادل الجزائريين بصيغة المفرد (بدون تكلفة)، والذين بدورهم

¹Malek Haddad En Nasr, La mémoire du peuple, 26 Aout 1967 (n°704).

² المرجع نفسه، رأينا أنه من المهم إدراج أمثلة أخرى وردت في المقال نفسه:
- هذا السيد الهادئ مجهول الاسم، في هذه القرية الهادئة مجهولة الاسم، هذا الرجل الصغير الذي يمسح نظراته، الحسير قليلاً والخجول قليلاً، يكفي أن يتذكر حتى يأتي كل تاريخ نصف قرن ويتفجّر ويحيا من جديد. محكوم عليه بالإعدام في 45!، سجون، تعذيب... يتحدث بهدوء. الأبطال عندنا لا يعرفون بأنهم أبطال.

- هذه الأم العجوز، عجوز إلى درجة أنه لم يعد لديها سن وأصبحت مظهراً للخلود. هذه الأم العجوز لديها ابنان وبنت في معقل المقاومة، ابن قتل في المعركة وابنة أخرى وابن آخر في السجن. هذه المرأة العجوز التي لا تريد تصديق موت أبنائها تذهب للاستفسار عن أخبارهم من ضابط عدو، ويستقبلها الضابط العدو، ويدخلها الضابط العدو إلى فناء صغير، ويطلق عليها الضابط العدو أربعة من الكلاب المسعورة... تقية جداً. امرأة عجوز من عندنا- مثلما توجد الكثيرات- تحمد الله على بقائها حية لأنها رأت الرّاية ترفرف والتي تعرف قيمتها.(ترجمة الطالبة).
³ المرجع نفسه.

يخاطبونهم بصيغة الجمع"¹. قد يظن البعض أن هذه المعاملة هي معاملة طبيعية في إطار احترام النادل للزبون (le client est roi)، لكن رأي الكاتب غير ذلك، "فبالنسبة إليه الاحتلال عادة قديمة وطويلة تظهر في ردة فعل المستعمر وردة فعل المستعمر أيضا، وهذه المعاملة العنصرية ليست بعيدة الزمن عن هؤلاء النوادل (كنت سأكتب الأهالي بدلا من النوادل يقول مالك حداد). إضافة إلى أن بعض المخاطبات بصيغة المفرد والمتسترة من جانب واحد تدلّ على أن المؤسسة الاستعمارية لم تنته بطريقة أو بأخرى"².

كانت حيازة الاستقلال تعبّر عن مقدار الإرادة في الحياة والكيونة، "وتتأثر من الليل القدر والفظ للاستعمار الذي يزدرى الانسان ويجرده من صفته الإنسانية، ويذله و ينتقص من قدره، ويضعفه ويتجاهله، حتّى أصبح اسم فاطمة مرادفا لمهنة الخادمة"³ هذه الصّور والأحداث وغيرها لن تمرّ بدون أثر في ذاكرة الشعوب، "فالجزائر لا تنسى شيئا وشعب فاقد للذاكرة هو شعب بدون ماض، وشعب بدون ماض هو شعب بدون روح، فقلب الصفحة إذن ليس واردا هنا"⁴.

لكن الذكريات المؤلمة يجب أن تحيا وتُثبت كسيرة وملحمة بين الحقيقة والحلم، وإذا أدركنا ظهورنا إلى الماضي لا نستطيع فتح أعيننا على المستقبل، وفي هذا المعنى يؤكد الكاتب على دور الشبيبة الجزائرية -التي لم تعرف الاستعمار ولا حرب التحرير- دون أن يربطها بدين العرفان "الذي يصبح قيّدا أو رهنا يُعطّل مسيرتها، فهم ليسوا أقل أو أكثر احتراما من أسلافهم، لأن من التحرير إلى التشييد تتواصل المهمة نفسها، ولا بأس أن يكون البناء أكثر صلابة وعبقريّة إذا لم تكن الأساسات مجهولة (إشارة إلى الماضي). ولأنّ إرادة الشهداء سجّلت فوق الشواهد الجنائزية، وكتبت على جدران السجون، وبذلك لا تصبح الذاكرة حجة واهية لعدم التقدّم أو نظرة جامدة للأشياء"⁵.

¹Malek Haddad En Nasr, Les yeux et la mémoire, 18 Mars 1967.

² Voir Malek Haddad En Nasr, Les yeux et la mémoire

³Ibid. اسم فاطمة الذي يعتبر من أشرف الأسماء لدى الجزائريين والمسلمين عامة لارتباطه بفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ أصبح لدى المحتل الفرنسي اسما لمهنة الخادمة.

⁴ Ibid

⁵ Ibid.

وأضاف الكاتب أمثلة عن ذاكرة الشعب بشيء من التحليل والتفصيل، عندما أعطى بعدا أعمق لشهر نوفمبر، الذي كان مجرد إيدان بقدم فصل من بين الفصول، "ننتظر فيه الحرث والبذر والفواكه التي علينا قطفها، والحطب الذي علينا إدخاله، وتغيّر في الوقت تصحبه ليال طويلة وأيام قصيرة، وتغيّر في الملابس بسبب برودة منعشة"¹.

أما بعد سنة 1954 أصبح له مدلول عميقا، صحّح مسار شعب كان يسير نحو الهاوية، "فأصبح هذا الشهر حاضرا في حياة الفرد الجزائري، مثلما تحضر الأم في حياة أبنائها وتطبع سلوكياتهم. ودخل أيضا في تعبير الشعراء والروائيين والمخرجين والشعراء المتجولين"² وأصبح مادة ملهمة لكل الفنون.

3.1 إمتداد فكرة الاستعمار:

لن نتوقف عجلة الاستعمار عن الدوران ولا عجلة التحرّر أيضا، وتسيران في خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا، والاستعمار فكرة قديمة جديدة يعاد تحيينها كلما دعت المصلحة إلى ذلك. "فهؤلاء الذين يُسمّون أنفسهم يساريين تعودوا أن يكونوا محتلين حتى بزعمهم محاربة الاحتلال، وهم مصابون بـدرجات متفاوتة- بنفس المرض ونفس اللّعة ولم يعلق مسار إزالة الاستعمار في أذهان هؤلاء المثقفين النّعساء الذين لم يفهموا التاريخ، فصنّع التاريخ من دونهم"³.

إن بعض المفكرين الذين تمنوا حرية الجزائر في وقت من الأوقات، خطّطوا في حقيقة الأمر لجزائر بتصورهم الخاص، جزائر فرنسية مبتورة من مميزاتها الأساسية: العروبة والإسلام. "كانوا يظنون أنفسهم سادة لنا -يقول الكاتب- ويفكّرون من أجلنا، حتّى جاء الاعتداء الصهيوني على الشرق الأوسط، فوضّح الأمور وبسّطها، وأزال الغموض والالتباس، وساعد أيضا في ظهور النوايا على حقيقتها. وكان بالأخص موعدا لإزالة الخدعة في عالم الروائيين والشعراء والمخرجين، وعالم الأغنية

¹Voir Malek Haddad En Nasr, La présence de Novembre 28 Novembre 1967 (n°758).

² Ibid.

³ Malek Haddad En Nasr, La fin d'un mythe, 24 Juin 1967 (n°650). إشارة إلى جون بول سارتر والمثقفين اليساريين الذين ساندوا الاحتلال الاسرائيلي فكانوا أول الضحايا لهذا الاعتداء- حسب مالك حداد- وماتوا في إسرائيل.

والصحافة. "حتى Pablo Picasso صاحب Guernica يُمضي بياناً رسمياً لصالح إسرائيل، والذي لم تقل ريشته أبداً استشهاد الشعب الفلسطيني. ولطّخ سارتر يديه بنفس القدر أيضاً، وأصبح مناقضاً لنفسه فيما يخص حرب الجزائر، فلا نستطيع أن نتحدّث عن خطأ، لأن الخطأ يصبح جريمة عندما يكون لصالح حرب استعمارية -يقول مالك حداد- ويكون المثقف لسان حال المجرمين ومنشدهم"¹. "لدينا لحسن الحظ-يضيف الكاتب- في أذهاننا أمثلة أخرى للتّوايا الطيّبة والأخوة، حتّى لا نسقط في تعميم غير عادل"².

4.1 البعد الإنساني للثورة:

أينما وجد الإنسان على ظهر الأرض، فهو يتطلع دائماً إلى الحرية والاستقرار وينشد الطمأنينة والأمان "في كل مكان يريد أن يعيش، وفي كل مكان هي قضية حماسة وحرية، وفي كل مكان وداخل عمق بؤسه أو ضيقه يريد أن يكون جميلاً."³

جاءت حرية الجزائر بعد حرب تحريرية "لم تكن بأيّ حال من الأحوال مجرد تسلسل للأحداث، أو تتابع بسيط للحقائق في كرونولوجية باردة (...). إنّما هي ألف ألف حدث بطولي، وبذل للنفس وتواضع وذكاء، ومآسي وفواجع وتفاؤل، وتحكي طاقة شعب حمل السلاح مثلما يرفع التحدي، ويتحدى القدر بالوسائل المتاحة"⁴... "فرغم القاموس الجهنمي الذي طبع يوميات الثورة التحريرية وأخبارها، ورغم الثمن الذي دفعه شعبها بدون مساومة، كانت الحياة نفسها تريد أن تعيش وتسترجع حقوقها بعد أن استشهد أكثر من عشر شعبنا-يقول الكاتب-. هذا الاندفاع الحيوي يتأكد في نوع من التفاؤل الآلي والبيولوجي المتمثل في البذرة التي لا تموت، والأطفال الذين يولدون، والقرى التي

¹Voir Malek Haddad ,En Nasr, La fin d'un mythe.

² Malek Haddad, En Nasr, Le racisme cette occasion perdu, 20 Janvier 1968 (n°829)..

(نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر... Frantz Fanon, Isabelle Eberhardt...)

³Malek Haddad, En Nasr, Ballade sur trois notes, 16-17 Aout 1965 (n°78-79).

⁴Voir Malek Haddad, En Nasr, Les yeux et la mémoire.

يعاد بناؤها، والجراح التي تندمل، والبسمة التي تعود إلى الشّفاء، والنظرات التي تستضيء بالتفاتها نحو الغد"¹.

لقد أعطت الثورة التحريرية أبعادا جديدة للأشياء وصحّحت المفاهيم، "فقبيل الفاتح من نوفمبر 1945 كانت الجزائر أهلة بالسّكان، ومنذ نوفمبر- ودون انتظار جويلية 1962- أصبحت الجزائر أهلة بالمواطنين، وتماشت الأبعاد الحقيقية للثورة مع المزايا الانسانية التي تُعد مقياسا لكل شيء، وبهذا المعنى سُجّلت الثورة التحريرية كفعل متعالٍ للأخلاق العالمية، ومن ثمة أصبح كل فعل لإزالة الاستعمار انتصار للإنسانية"². وسجّل التاريخ مساندة الثورة لكل الحركات التحرّرية العادلة، في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وغيرها "ولا نستطيع أن نقول بشكل كافٍ أبدا بأن ثورة التحرير لم تكن حربا تحريرية وطنية فقط، بل أيضا وبشكل مماثل مساهمة تفوق التقدير في الحرّية ومن أجل تحرير الانسان أينما وجد، وحرّرت المستعمر نفسه، لأن شعبا يستعبد آخر لا يستطيع أن يكون حرا أبدا"³.

5.1 ذهنية التبعية:

لا نستطيع أن نجزم في بعض الأحيان بصحة مقولة "المغلوب مولع باتباع الغالب" لأنّ الموازين تتعرض للاختلال والمفاهيم تحتاج إلى تصويب وضبط أحيانا. إذا كان الاحتلال الفرنسي قد خرج منهزما من الجزائر عام 1962 فذلك يعني أنه هو المغلوب، وأن الشعب الجزائري هو الغالب. أما إذا رأينا بمنظار بعض الذين يحنّون إلى أيام الاستعمار فقد نرى أن الغالب مولع بالمغلوب، وفي هذه الحالة تكون الهزيمة داخلية وعميقة لا يستطيع هؤلاء التخلّص منها " فهذا الضّجر الذي يُرى في بعض العيون ويُطبع على بعض الجبهات، والتشاؤم الذي يُعتمّ بعض الابتسامات، والارتياحية التي تُظلم الآفاق بشكل آلي: "هذا يسمى احتلال"⁴ بتحرّر الوطن، "لم يعد مفهوم الاحتلال هو علاقة التّبعية بين المستعمر والمستعمر،

¹Voir Malek Haddad, En Nasr, La signification d'un drapeau.

²Voir Malek Haddad En Nasr, Le racisme cette occasion perdu.

³Malek Haddad En Nasr, La mémoire du peuple.

⁴Malek Haddad En Nasr, Cela s'appelle colonialisme, 26 Janvier 1966 (n°218).

هذا المستعمر المتوجّش والمستعمر المتحضّر، الذي جاء من أجل مهمة نبيلة، لكن الأسطورة قد انتهت وتخلّى عنها التاريخ وأدانتها الأخلاق"¹.

إن هؤلاء الأفراد الذين وقعوا في تناقض مع أنفسهم قد تخلّوا عن حب الوطن والكرامة الإنسانية، فأنحرفت المقاييس الأصلية لديهم واستوردوا قواعد مرجعية واستعاروا قيما دخيلة عليهم -يقول الكاتب-، لدرجة أنهم يقارنون كل ما هو جميل في الجزائر بما يقابله من مرجعيات في الدولة المحتلة: "هذا الأحد في الشريعة، كان الثلج جميلا حتى خُيّل إلينا أننا في Morzine، وهذا الركن الصّغير من البحر الذي ينتظر العتمة ويبتسم للنوارس فنحسب أنفسنا في Lavandou، وأشجار الزيتون التي تتدحرج في المنحنيات الرعوية للجبال القبائلية تذكرنا La haute provence . وتكون الهزيمة الداخليّة أيضا سببا في الحنين إلى استحضار الشّبه بين المُعلّم والتّلميذ، النموذج والصورة. وكل ذلك من أجل تبرير الحنين إلى جزائر ما قبل الاستقلال، والتي كانت تمنح حياة أكثر حرية لهؤلاء الأفراد*." ومن غير المعقول أن يبقوا طويلا بيننا -يقول الكاتب- لأنهم انبطحوا في النّدم وأحسّوا بغربة في بلادهم، وخلطوا بين السبب الحقيقي لاستيائهم وبين اللّعة والشقاء الأبدي. ومن غير المعقول أيضا أن نتجاهل المشاكل التي تعاني منها جزائر ما بعد الاستقلال، لأن كل الأمور تحتاج إلى الفعل والتفكير والإعادة والتجويد، وكل يوم مكتف بأحزانه، وكل يوم مكتف بأفراحه، وخيبة الأمل لدى هؤلاء هي انتصار لليل وهذا يسمى احتلال"².

¹Voir Malek Haddad En Nasr, Cela s'appelle colonialisme.

*أعطى الكاتب أمثلة كثيرة عن سبب حنين البعض إلى الحقبة الاستعمارية "لن أتحدّث عن الفتيات اللاتي كنّ سهلات المنال وعن الحانات قبل المقاهي القديمة والملاهي الليلية المحبوبة، فنادق مسيرة بشكل جيد، أطباء مؤهلون. إذن كانت السعادة تسكن الأرض الجزائرية وهذه السعادة مرادفة للاحتلال.

² Op.cit.

2 المدرسة:

تحدّث الكاتب بكثير من الممرارة عن مدرسة طفولته، التي لم يختار لغتها ولا برامجها ولا معلميه، وبحنين إليها أيضا باعتبارها أول موعد للإنسان مع المستقبل. وقارن بين جيله والجيل الذي يدخل إلى مدارس الجزائر المستقلة محملا بآماله وآمال أسلافه. فحاولنا حصر معالجة الكاتب لهذا الموضوع في المقالات التالية:

La Rentrée des Espérances 1er Octobre 1965.

L'Ecole des souvenirs 17 Juin 1965.

Le chemin de l'école 9 Septembre 1967.

L'école et le puits 23 Septembre 1967.

Ecole primaire et culture 30 Décembre 1967.

Des instituteurs par milliers 6 Mai 1967.

La leçon de Boulhilet 20 Mai 1967.

La repossession d'une pensée 6 Janvier 1968.

1.2 المدرسة الاستعمارية:

كان الشعب الجزائري أمياً في عمومه أثناء الفترة الاستعمارية، باستثناء فئة قليلة استطاعت أن تستفيد من تعليم بسيط. والسبب في ذلك هو الاستراتيجية التي سطرّتها الدولة المستعمرة في بناء ملامح شخصية الفرد المستعمر.

وأول مفتاح لهذا التخطيط الاستراتيجي، كان اللغة الفرنسية كأداة فعّالة في تشكيل المتعلّم الجزائري على مستوى حديثه ومعاملاته وطريقة تفكيره" فأعطى الإستعمار

الفرنسي أهمية اللغة لنشر اللغة، وكان لديه مشروع تشكيل المستعمر على صورته الخاصة، فكانت المدرسة الفرنسية بذلك الأداة الجوهرية لسياسة الإدماج الإستعمارية، وكان لا بد عليها أن تجعل البرامج التعليمية مطابقة لبرامج البلد الأم، فمن الجزائر إلى الفيتنام كانت دروس التاريخ هي نفسها nos ancêtres les Gaulois¹(Joubert 1997,p19 /20)

"جاء الدستور الفرنسي لسنة 1848 وأصدر مرسوم الجزائر الفرنسية، وجزأها إلى ثلاث مقاطعات لما وراء البحار، وأصبحت اللغة الفرنسية لغة رسمية بقوة القانون، وفرضت نفسها في الأجهزة الاستعمارية: إدارة، عدالة، مدرسة".²

بقناعة راسخة وحرص شديد، جعلت فرنسا من الجزائر تابعة لها وأصبح تعليم اللغة الفرنسية للأهالي ضرورة ملحة يملئها الوضع الجديد "فاستعمال اللغة كان أقوى الوسائل التي يمتلكها المستعمر لإدماج الأفراد الجدد، وتلقينهم الأفكار والعادات ومن ثم تحضيرهم لاجتياز المسابقات الضرورية لمؤسسات المعمرين(...) وتحويل الأهالي الشباب إلى أفراد مخلصين وطائعين لفرنسا، وذلك بتعريفهم اللغة وتشريبهم مبادئ التاريخ والجغرافيا التي تعطيهم فكرة عن عظمة وطنهم الجديد وحضارته".³ وفي مقابل تجذير المدرسة الفرنسية في الجزائر، "كانت المنظومة التعليمية المحلية البسيطة مستهدفة تحت غطاء المهمة الحضارية التي جاء بها المستعمر".⁴

¹Voir Noriyuki Nishiyama, Assimiler ou non les indigènes dans l'empire colonial. Les indigènes devaient-ils apprendre le français ? université de Tokyo.

²Voir Sonia Branca-Rossoff, L'institution des langues autour de René Balibar, édition de la maison des sciences de l'homme , Paris, France, 2001, p130.

³Voir Dossier Faut-il être postcolonial ? L'édification d'un enseignement pour indigènes : Madagascar et l'Algérie dans l'empire français, d'après Raoul Alier, l'enseignement primaire des indigènes à Madagascar, Paris, cahier de la quinzaine, collection « Histoire l'éducation en France », 1904,p90 .

⁴ Pseudo-élite مستعمرية لغة وثقافة مستعمرية وسعى إلى جعلهم تابعين. وحتى في حال تعلمهم سوف يصبحون مثقفين «من الدرجة الثانية Le bon élève indigène saura soutenir en français une conversation simple, rédiger à peu près une lettre et faire un compte : il connaîtra les intentions bien vaillantes de la France (...) aura une idée élevée de ses forces militaires et de sa puissance économique, écrivait encore dans les années 1920, le directeur de l'école normale d'Alger qui avait été créé en 1865, (institution des langues autour de René Balibar, p131) .

على عكس الوجود التركي (العثماني) في بلدان كالجزائر وغيرها

La colonisation turque qui n'était pas une colonisation de peuplement, n'imposait pas sa langue aux peuples dominés. Elle se caractérisait plutôt par l'intégration dans la culture locale des ressortissants turcs transplantés. Ainsi par exemple les populations d'Europe centrale passées sous domination turque, ont

لكن المنظومة التعليمية التي وُضعت في الجزائر والتي كانت وحيدة اللغة (unilingue)، انقسمت مهمتها إلى شقين غير قابلين للانصهار أو الاندماج أبداً. تمثل الأول في استقبال أبناء الأوروبيين ومنحهم برامج تعليمية مطابقة لبرامج الدولة الأم (فرنسا)، أما الشق الثاني فتمثل في تطوير المدارس الخاصة بالأهالي، والتي تسمح بتعليم فرنسية بدائية، وتعلّم مهنيّ فلاحيّ بالدرجة الأولى.* "وفي هذا السياق التاريخي عمل مالك حدّاد عمل المؤرخ الإخباري بتقديمه مشهداً عن الحقيقة الإستعمارية مضيفاً إليها نظراته النقدية".¹

حدّاد الذي كان نتاجاً للمدرسة الكولونيالية، قرّب إلينا صورة التلميذ الجزائري الذي كانت المدرسة أوّل موعد له مع الحياة، وأوّل مواجهة له مع الواقع، وماذا لو كان هذا الواقع يسمّى احتلال؟ "كان التلميذ وقتها يذهب إلى المدرسة مثلما يذهب إلى المنفى، لم تكن الكلمات تقول شيئاً وكانت العبثية مكان التربية واللامعنى مكان الثقافة، ولم يكن الجهاز التعليمي الكولونيالي سوى مؤسسة لمحو الشخصية والبتز والاستلاب. هذه المؤسسة الواسعة والمُدبّرة من أجل تنشيطية الأنا الأساسي الجزائري اعتدت على الروح بعد اعتدائها على الأرض"²، أمّا مهمتها المزعومة في نشر الحضارة "لم تكن سوى وسيلة لتثبيت وتقوية إمبراطوريّتها في كافة مستعمراتها، وكان دور الوصاية

gardés leurs langues, et en grande partie leurs cultures d'origine même quand elles ont été islamisées. (institution des langues autour de René Balibar, p129).

*En Algérie le décret du 13 Février 1883 de Jeanmaire instaure le programme d'enseignement spécial pour indigènes qui n'entre en vigueur qu'en 1892. L'école devient obligatoire pour toutes les communes d'Algérie. L'enseignement est divisée entre les communes de plein exercice et les communes-mixtes (à forte population européenne). Une prime de 300 Francs est accordée aux indigènes connaissant le français. وهذا مع منع استعمال اللغة العربية.

-D'après ces premiers plans pédagogiques, l'enseignement aux indigènes en Algérie est orienté vers un enseignement dit « spécial » professionnel et manuel, avec pour objectif de ne pas déclasser les indigènes. Les premières orientations pédagogiques prévoient un enseignement utilitaire qui forme la masse pour les besoins de rentabilité de la métropole. (dossier faut-il être postcolonial.....)

¹Voir Lamine Koulougli, image de l'école coloniale dans l'œuvre de Malek Haddad, Expression, Revue de l'institut des langues étrangères, spécial colloque Malek Haddad, Janvier 1994, université de Aïn-el-Bey, Constantine, Algérie. p46.

²Voir La rentrée des espérances 1^{er} Octobre 1965, (n°118), P12.

على من سمّتهم بالأهالي، يفرض برامج تعليمية من نوع خاص كان قد صرّح بها أحد رواد التّعليم الابتدائي في الجزائر في مطلع القرن العشرين¹.

لقد اختلف البعض حول مستوى هذا التّعليم الذي كان جيّداً، وعن محتواه الذي لم يخدم الجزائر ولا الجزائريين أبداً، فجاء رد مالك حداد: "يذكّر بعض الدّين يحنون إلى الماضي، وكثيري التّدنّر وعديمي التفهّم والقلقين(...) يُذكّرون دائماً بمستوى معلمي الماضي، والنّوعيّة الرّفيعة للتّعليم-المُستغنى عنه- ودور المعلّمين في الماضي البعيد، مشتلة المعلّمين والمعلّّمات المهينّين لأداء مهمّتهم النبيلة. ولكن عندنا ننسى كثيراً أنّ هذا الماضي كانت رائحته نتنة ويسمى إستعمار، إستلاب، آباؤنا الغاليون (...). كان المعلّمون من نوعية جيّدة من الناحية التعليمية، ولكن، كم من أبنائنا الدّين كانوا في المدارس، وكم من تلاميذنا من إستطاعوا الوصول إلى التّعليم الثانوي والعالي؟ ويضيف الكاتب: محرومون من المستقبل، محجوزون في حاضر هزيل، سرقوا منّا ماضيّنا، ندرس تاريخ غيرنا، وفي الحقيقة، قبل الفاتح من نوفمبر 1954 كان بالنسبة إلينا عصر ما قبل التّاريخ"².

وكان التّلاميذ في نظر حدّاد يذهبون إلى المدارس في الجزائر المستعمرة "لدراسة (برغسون) و (ديكارت) وتجاهل الشّيخ (بن باديس) والشّعراء الجزائريين، الدّين لا اسم لهم ولا لغة"³، و"تظهر مؤسسة التّزوير والمخادعة-أيضاً- في دروس التّاريخ التي تُكوّن الشّاب الافريقي، والذي سيتذكّر طول حياته تلك الأكاذيب التي كان ينشدها بدون أن يفهم منها شيئاً... (عبدو ميموني، التّعليم في إفريقيا، ص56)"⁴.

ورغم ما تحمله المدرسة الاستعمارية من مرارة واعتداء على الأنا واستعمار للرّوح (صحيح أنّنا كلّما صنعنا ناجحا في البكالوريا صنعنا فرنسيا-يقول حداد)، "إلا أنّ

¹Voir La rentrée des espérances.

² Voir Des instituteurs par milliers, 6 Mai 1967 (n°606).

³ Lamine Koulougli, Expression, p51.

⁴Ibid, p54 (réflexion très proche de celle de Frantz Fanon quand celui-ci dresse le portrait psychologique de l'africain colonisé éduqué à l'école coloniale et écrit « Je suis un homme blanc....tous mes amis sont blancs. Je pense en français, la France est ma religion...je ne suis pas négre.p48)

المستعمر إستعملها كسلاح رغما عنها لكتابة "تحيا الجزائر الحرة"¹ وتبقى هذه المدرسة بطعم ذكريات الطفولة "لا أعرف من هو الشاعر الجزائري القائل: تركت قلبي في المدرسة، ومن منّا لم يترك قلبه في المدرسة؟ (...) ولو أعاد مُعلّم طفولتي مناداة التلاميذ اليوم، لغاب عنها بعضهم ومن أحسنهم ربما، وتكون الذكريات وحدها هي المجيبة بحاضر"². وكانت هذه المدرسة "حاضرة هنا وهناك في كتابات مالك حداد الروائية والصحفية بالتصريح تارة وبالتلميح تارة أخرى"³. و"لا داعي لكثرة التعقيب-يقول حداد- فإنّ الكسوف قد زال وأخذت اللغة العربية موقعها رغم كل المشاكل التي تعترضها، وهذا الطفل الذي نراه اليوم معتزا وفخورا لن يتعلّم أنّ إخوانه كانوا غاليين (...) سعيد هذا الطفل الذي يدخل القسم مثلما يذهب إلى نبع الماء"⁴.

¹ Voir Lamine Koulougli, Expression, p49.

² La rentrée des espérances.

³ *Le cahier de Fadila contient tout l'absurde du monde (L'élève et la leçon) إشارة إلى محتوى البرامج التعليمية في المدارس الكولونيالية

*Lorsque Saïd entre chez lui en pressent le pas afin de ne pas rater son frère, c'est devant une école maternelle qu'il passe (La dernière impression).

*De même nul part ailleurs que dans une école à classe unique que le Dr Idir installe son antenne de médecin (L'élève et la leçon).

*De même que l'école des gamins sortant de l'école(ou attendant d'y entrer) , « des gamins remontaient l'avenue George Clémenceau au sortir de l'école bavards et nonchalants »(La dernière impression).

*Les enfants reviennent de l'école en protestants qu'ils ont trop de devoirs (Le qui aux fleurs ne répond plus).

*Ou encore cette image de cartables posés à côté de petits wagonnets sur les rails (Je t'offrirai une gazelle). ويمكن الاحساس بالمدرسة أيضا في العلاقة التي تربط شخصيات الرواية بالمدرسة:

*Lucia enseigne la philosophie dans une grande école de la ville (La dernière impression).

*Mr Belkacem est un instituteur en retraite.

*Djamel étudiant rejoint le maquis, comme le sont d'ailleurs Fadhila et Omar.

*Lorsque le Dr Idir se souvient de son passé au Boutaleb, c'est surtout des cigognes et d'une école blanche qu'il se souvient (L'élève et la leçon).

*Saïd a laissé son cœur à l'école(La dernière impression).

*L'auteur de Je t'offrirai une gazelle, qui s'entoure le cœur de son école primaire.

*Le docteur qui affirme : il y a toujours eu une école entre mon passé et moi.

*Khaled Bentobal pour qui le haut lieu du souvenir demeure le vieux lycée de Constantine(Le qui aux fleurs ne répond plus)." Voir Lamine Koulougli, Expression, p49.

⁴Voir La rentrée des espérances

2.2 الدور الحيوي للمدرسة في حياة الفرد:

بعد حيازة الاستقلال كان واجبا على الدولة أن تنتظم وتعيد بناء ما دمره الاستعمار ماديا ومعنويا، ولكن البناء في نظر الكاتب يبدأ بالضرورة من القاعدة "فانطلاقا من المدرسة ومن المدرسة أولا، نتوصل إلى وضع الكتاب والرّيشة في متناول الجميع. من المدرسة ومنها فقط نلتزم ونطوّر مؤسسة شافية من النور، هذا النور الذي يدفع ويضاعف الآفاق التي تعطي عمقا وبعدا لمجال عملنا وفكرنا فالرجل المثقف هو رجل حر بامتياز"¹.

قد توجد مشاكل قاهرة تجعل من الإنسان يفكر في البقاء والاستمرار في العيش، قبل أن يفكر في المدرسة، "لأن المجاعة التي مازالت تضرب وتهدد مئات الآلاف من البشر تُذهل علماء الاجتماع والاقتصاد، وحتى الحكومات في القرن العشرين الذي وصلت فيه الصواريخ إلى سطح القمر، وحُررت فيه الطّاقة النوويّة، وغيّرت فيه مجاري الأنهار. وأمام هذا الوضع يعترف الكاتب بأن الحياة بدون خبز ليست بحياة، وهي ليست حياة بآتم معنى الكلمة، إذا لم تأت فيها وردة لتُسكّن أنظارنا"². ذلك لأن الثقافة ليست رفاهية ولا حظوة ولا امتيازاً في نظره، فمجاعة الفكر لا تقل خطورة عن مجاعة المعدة.

لقد ناشد الكاتب الحلول الشافية في المدرسة أولا وأخيرا، "لأن فيها الحل والعلاج والإنقاذ، وإليها يرجع شرف تخصيص الحاضر وتسييره وإنفاقه، فهي أفضل درع ضد اللّيل وآخر حصن ضد العمى المسمى (أمية)، والذي يجب أن يزول مثلما زال الاستعمار"³. فمن جهة تعتبر المدرسة مرآة عاكسة للشعوب وفيها يتم تسطير الخطوط العريضة لبناء الفرد الذي يبني المجتمع بعد ذلك "فيتخرج منها نساء ورجال موعودون بوجود آخر وقدر آخر، ويصبحون حصادا مبهجا لبذر الخريف والدّخول المدرسي"⁴.

¹Voir L'école et le puits 23 Sep 1967 (n°728). p 7

² Voir Le chemin de l'école 9 Sep 1967 (n°716).

³Voir Ibid.

⁴ Voir L'école et le puits.

كل هذه الأهمية التي تحظى بها المدرسة ليست غريبة عن شعبنا، فلطالما كانت لها المكانة الخاصة في قلوب الجزائريين، لأن في أعرافهم القديمة "احترام وإكرام المعلم وإحاطته بالعرفان يعتبر واجبا، والدليل على ذلك هو الحديث بحنان عن انحنا على سنواتنا الأولى وكوّنونا، وتركوا فينا بصمة لا تزول ودليل آخر هو تلك المشاعر الفياضة التي تنتابنا فجأة، عندما نصادف المعلم القديم، أو تقودنا خطواتنا إلى حج أمام المدرسة الابتدائية لطفولتنا. فكل منا ترك قلبه في المدرسة"¹.

إنّ الجيل الذي حُرّم من المدرسة في فترة الاستعمار وعاش الأمية، يدرك جيدا أهمية التعليم ودوره الحيوي في بناء المجتمع فينقل لنا الكاتب تجربة "بولهيلات" هذه القرية التي لم يكن لها وجود على الخارطة، "أراض ممتدة مترامية الأطراف وخالية من المياه، أصبح لها ذكر بعد اكتشاف المياه في جوفها، و أصبح رجالها المجتمعين والمتحدين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ولا دفع صداقة الكتاب، أولئك الذين لم يَجولوا ببصرهم يوما في لوحة لبوزيد أو إسيّاخم، والذين لم تداعب أياديهم الجائسة * المساحة الحية لورق أبيض، يخطّطون كلهم للقرية التي ستولد، ولبناء أولا وقبل كل شيء مسجدا ومدرسة.... فكان ذلك-يقول الكاتب- درسا في الثقافة لا حد له. فالمدرسة و المسجد هي أماكن عليا مسكونة وملهمة ومقدسة ومن هنا تكون السبورة السوداء والحجر سببا في استعادة الإنسان لكرامته المهددة، وحقول القمح التي ستتمو بوجود المياه لن تكون سوى حقولا خضراء لو لم تأتي المدرسة والمسجد لتعطي روحا للريجيف الذي سيأكله سكان (بولهيلات)"²

ومن ثمّ فإنّ الآباء الذين حُرّموا من التعليم في الفترة الاستعمارية، والذين يُجلّون المعلم ويدركون جيدا أهمية المدرسة، "يثأرون اليوم في الجزائر المستقلة- بتعليم أبنائهم

¹ Voir L'école et le puits

*خشنة الملمس

² Voir Le leçon de Bouehilet ,20 Mai 1967 (n°618).

وبنائتهم والسّهر على بداياتهم ومتابعتهم شخصيا أو تكليف من يتابعهم، لأن الآن وخلافا لكل الأوقات، طريق المستقبل يمر بالمدرسة"¹.

وجعل الكاتب من المدرسة نواة للقرية والمدينة، وأكّد على أهمية دور المدرسة الابتدائية على وجه التحديد، لأنها البداية وأول الطريق، وملتقى كل الاضطرابات والاحتمالات، ومقدمة لكل التجارب. وتشبه أهميتها حيوية البئر ونبع الماء اللذان تتجمع حولهما القرية (المدرسة والبئر) لضمان استمرارية الحياة.

3.2 المشاكل التي واجهها التعليم غداة الاستقلال:

كانت آثار الاستعمار الطويل بادية على مستوى التعليم لدى الشعب الجزائري بعد الاستقلال، وكان واجبا على القائمين على القطاع وقتها إيجاد حلول سريعة وناجعة لمحاولة استدراك النقص والتأخر، خاصة وأن المهمة التي أوكلت إلى المدرسة بعد 1962 كانت مهمة البناء والتأسيس لقاعدة صلبة، تنطلق منها القطاعات الأخرى لاحقا.

هذه المهمة الصعبة والمستحيلة في بعض المناطق، اصطدمت بعقبات لم يكن من السهل تخطيها، كالنمو الديمغرافي المتسارع الذي فرض نفسه في السنوات الأولى للاستقلال، ومستوى عمّال التعليم وكفاءاتهم البيداغوجية، زيادة على البرامج التعليمية والكتب المدرسية التي أصبحت مشاكل "في غاية الدقة تحتاج إلى حلول وتدعو إلى الإرادة الطيبة والتأني: إنه عمل كبير وعمل جماعات يتطلب النفس الطويل، ومن هذا المنطلق تكون المدرسة الابتدائية في قلب رجائنا، وزيادة على دعوتها التعليمية المحصّنة، تظهر المدرسة الابتدائية من الآن فصاعدا كبوتقة للاتحاد الوطني، والتقاء كل الجزائريين عند نبع واحد وفوق أول حقل لنفس التشييد"².

تعدّدت المشاكل وشحّت الإمكانيات —وانعدمت في أحيان كثيرة— وكان الأمل كبيرا. معادلة لا تحلها إلا الإرادة الطيبة، "لأننا عندما نفكر في التعليم في الجزائر —يقول الكاتب— ينتابنا الدوار ويتمن منا القلق. هذه المدارس في البلاد الكبيرة بدون غاز ولا

¹ Voir Le chemin de l'école

² école primaire et culture 9 Sep 1967 (n°812).

كهرباء وبتموين صعب، هي المراكز المتقدمة للثقافة الوطنية وللبلد الحقيقي".¹ ومع أن الصعوبات كانت كبيرة، إلا أنها لم تثن عزيمة الكاتب فراوح بين الحلول والمشاكل في معظم مقالاته، واستشرف مستقبل التعليم بتفاؤل كبير، وآمن "بهذه المدرسة في أقصى الأفق وأقصى الليل، وهذه المدرسة الموجودة على جبل، وفي السهل أو في الرمال الواسعة والتي نراها في القرية ونمرّ عليها في الدّوار أو في منعرج درب، هذه المدرسة التي تبني جزائر أحلامنا وتحيطها بالآمال".²

ورغم أن فتح المدارس وتكوين المعلمين وإنشاء البرامج ومراجعتها ليس بالأمر الهين أمام هذا الانفجار الديمغرافي وصعوبة المعادلة المركّبة للكم والكيف* يبقى التحديّ حاضرا " فإذا كانت المعجزة لا تجد لها مكانا، فإن التضحية تتمسّك كثيرا ولأن كلمة مستحيل ليست جزائرية"³.

نستطيع القول بأنّ مدرسة ما بعد الاستقلال "قدّمت تعليما معقولا أو ممكنا في بعض الأحيان، ومَرّت بتجارب عديدة في بحثها عن هيأتها وتوازنها، فمهما كان مستوى مؤطريها ووسائلها التعليمية، فهذه المدارس الابتدائية البدائية في بعض الأحيان -يقول الكاتب- تبقى أفضل درع نُصب ضد الجهل، وأفضل سلاح -والوحيد- الذي كان متاحا لتثقيف أكبر عدد من الشرائح، ومن ثمة لا يمكننا انتظار نتائج مثيرة من البداية".⁴

4.2 إشكالية التعريب:

لم تعش اللّغة العربية في وسطها الطبيعي في الجزائر، ولم تسمح لها الظروف الاستعمارية بالنمو والتطوّر، مثلها مثل اللّغات الأخرى التي تحيا بالاستعمال والتفاعل بين مستعمليها المحليين فيما بينهم، ومع الأجانب في مرحلة ثانية. و"حرمان الجزائريين من تعلّم لغتهم- يقول د. عز الدين صحراوي- عطّل أجيالا بكاملها عن

¹ Voir Des instituteurs par milliers 6 Mai 1967 (n°606).

² Voir Des instituteurs par milliers

*الكم والكيف من حيث المعلمين والبرامج التعليمية.

³ Ibid

⁴ bid.

مواكبة الحياة، وخلق لدى القلة المتعلمة منهم تفاوت ثقافي وطبقي، وبعد ذلك بينهم وبين الفئات الأخرى للمجتمع".¹

إن اللغة الأم ليست مجرد منظومة من الإشارات، وإنما هي طريقة تفكير وقاعدة متينة، تُبنى عليها الثقافة الأصلية للناشئة، حتى يتسنى لهم استيعاب ثقافات أخرى دون إحساس بالاغتراب، كما يشير إليه مالك حداد في قوله: "يوجد فرق بين تفكيري العربي ولساني الفرنسي، ويضيف بأن الثقافة تنمو لا محالة ودائما على حساب ثقافة أخرى، فمنذ المدرسة الابتدائية يتغذى الطفل -المتلقي المحض- من المادة التي نقرحها عليه ونمنحها له أو نفرضها عليه"²، فحرص الاستعمار الفرنسي وتركيزه على تكييف اللغة والمنظومة التعليمية لصالحه، جعل من التعليم وقتها "تعلّما استعماريًا بحثًا لا يعترف باللغة العربية، ولا يقيم لوجودها أي حساب، فاللغة الفرنسية هي وحدها لغة التدريس في جميع مراحل التعليم"³ وكانت اللغة العربية "تُقرح في التعليم الثانوي -المحظور على أبناء الأهالي كلغة أجنبية، لا تُختار إلا نادرا من طرف الأوروبيين".⁴

لغة غريبة في وسطها ومُعطّلة عن مهمتها الاجتماعية والثقافية هي لغة مستعمرة ومسلوبة، وتحتاج إلى تحرير واستعادة لدورها الحيوي، فكان تعريب التعليم ضرورة ملحة يفرضها حال اللغة وقتها*، ونتيجة بديهية لزوال الاستعمار. فالتعريب في نظر الكاتب "ليس ميزة ولا اختيارا ولا قرارا، بل يُسجّل طبيعيا ومنطقيا في إطار محو الاستعمار عن الجزائر القديمة، و بناء الجزائر الجديدة، ويتفق مع إعادة دمج البلد في

¹ د عز الدين صحراوي، اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية، جامعة فرحات عباس سطيف، ص7 بتصرف.

² Ecole primaire et culture, 3 Décembre 1967.

³ د عز الدين صحراوي، اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية، ص12.
*لعبت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست عام 1931 دورا بالغ الأهمية (صمّام الأمان) في المحافظة على الثقافة العربية ونشر التعليم العربي الإسلامي على نطاق واسع حيث شملت مدارسها في كافة المناطق الجزائرية، ثلاثة ميادين متنوّعة ولكنها متكاملة (الميدان العلمي- الميدان الديني-الميدان التهذيبي) ، أما مؤسسات هذه الميادين فكانت المساجد، والمدارس الحرة والنوادي في الجزائر وفرنسا وكان من غاياتها الكبرى نشر اللغة العربية بين أبناء الشعب على نطاق واسع وإحياء الثقافة العربية الإسلامية. وكان من أهدافها أيضا إصلاح أساليب التعليم وإصلاح الكتب المدرسية

⁴ L'institution des langues autour de René Balibar,

دورته التاريخية –التي تم إيقافها بدخول الاستعمار – واستعادة هويّته الوطنية وإثبات وتأكيده شخصيته الأولى والحقيقية"¹.

فلم تكن فكرة بل قناعة التعريب لتناقش بعد الاستقلال، لأنه كان أحد أهداف ثورتنا التحريرية –يقول حدّاد- وتحقيقه توجّح حريتنا وجعلنا نلتقي مع ذواتنا.

وبعيدا عن النظرة العاطفية للغة، فإن الإنسان في أعماقه لا يستطيع اكتساب ثقافة أصيلة بلغة الآخر، و التي يتوقف عن استعمالها بمجرد خروجه من المدرسة – في حالة الجزائريين قبل الاستقلال- "فقد أخطأ الاستعمار عندما ظنّ أنه بإمكانه فرنسة أناس لا يتكلمون الفرنسية في بيوتهم، وبذلك لا يتجاوبون معه بالفرنسية"²، وعليه تكون الثقافة الأصلية لدى الفرد امتدادا طبيعيا وتاريخيا لأمة بأكملها، ويستطيع من خلال هذه القاعدة أن يستوعب ثقافات أخرى غريبة عن تراثه وموروثه "ولأن الجزائر اليوم مستقلة نستطيع أن ندرس موليار دون التباس ولا غموض... وبتحرير الجزائر، حرّرنا موليار أيضا"³ فدراسة الأدب الفرنسي باللغة الفرنسية في جزائر مستعمرة يعتبر أدبا مفروضا بقوة الاستعمار، وليس تذوقا لجماليات الكلمة.

وبما أن البناء يكون عادة من القاعدة، فقد ركّز الكاتب على المدرسة الابتدائية التي كان يعوّل عليها كثيرا بعد الاستقلال، وبشيء من التحليل وضح الأهداف البعيدة التي كان ينشدها التعريب في الجزائر، "فمع المدرسة الابتدائية والتعريب الكلّي-يقول- نكون حقيقة بصدد قلب صفحة جزائر الأمس، التي لم تكن حرة إلى درجة أن تعليم لغتها كان محظورا عليها. والدور الهام لهذه المدرسة يتجسد عندما يلتقي أطفال البلد الواحد لسماع المعلم نفسه، ودراسة اللغة نفسها واكتشاف تراث مشترك. في هذه المدرسة الابتدائية للجزائر المستقلة يتعرّب التلاميذ في نفس الوقت، ويصبحون غدا مواطنين متجانسين لبلد واحد، ومشربين بنفس التكوين. وبذلك ستنتهي الاختلافات الموجودة بين المعربيين والمفرنسين إلى الأبد، فهذه الاختلافات جاءت مباشرة من الاعتداء والبر

¹ Ecole primaire et culture.

² La repossession d'une pensée, 6Janvier 1968 (n°817).

³ Ecole primaire et culture.

الكولونيالي، لأن تجانس التعليم يكتيف ويقوي التماسك الثقافي لدى المجموعة الوطنية"¹ الكاتب المفرنس (مالك حدّاد) الذي دافع عن التعريب، كانت له دائما نظرة توفيقية بين مختلف الاتجاهات والتيارات لصالح استقرار البلاد، الذي يُعتبر شرطا ضروريا لحدوث التنمية. فيردُّ على بعض الذين أبدوا تحفظا حيال فكرة التعريب ويقول: "هذا التعريب الذي يُحير البعض من أصدقائنا، لا يجب أن نعتبره انغلاقا للجزائر على الثقافات الأخرى التي تساهم مثلها مثل الثقافة العربية في إثراء الثقافة العالمية وانتصار الإنسان. هذا التعريب لا يُصنع ضدّ ثقافة، بل لصالحها لأن الذي يُميّزنا بأصالة، سوف يُغني أكثر، التراث الثقافي العالمي. وثقافة تحترم نفسها، لن تكون تنافسية بعطر امبريالي"²، ولم يدن التعريب اللّغة الفرنسية أو لغات أخرى إنما كان شكلا من أشكال محو الاستعمار وناقل طبيعي للفكر الجزائري، وهو لا يشكّل -حسب رأي الكاتب- مشاكل ولا صعوبات أكثر من تعليم اللّغة الفرنسية أو باللّغة الفرنسية، حيث نلتقي معه بنفس المشاكل ونواجه نفس الصعوبات فيما يخصّ العمال والمناهج والمنشآت.

¹ Voir Ecole primaire et culture

² Ibid.

3. الأدب:

طرح مالك حداد قضايا متعددة (في المدونة محل الدراسة) تخص الأدب والكاتب واللغة وغيرها، وعالجها بعمق واقترح حلولاً رآها مناسبة في الظروف التي حكمت الدولة الفتية بعد الاستقلال، فشددت انتباهنا مجموعة من المقالات اختصت بموضوع الأدب والكاتب واللغة إضافة إلى فعل الكتابة والابداع الذي يستهوي الكتاب الناشئين، دون أن تكون لديهم دراية بأصول هذا الفعل أو الصبر على مشواره المضني.

وبذلك تكون هذه المقالات قد مست كل ما يخص المشهد الأدبي تقريبا، في عالميته الواسعة تارة أو وطنيته المحدودة تارة أخرى، ونشير في هذا الصدد إلى أن المقال المطوّل "عظمة الأدب الجزائري وبؤسه" الذي جاء في خمس حلقات متتالية من مقاس A3 أخذ الحظ الأوفر من المباحث لأنه طرق مواضيع متعددة.

وتكون المقالات مرتبة حسب ظهورها كالتالي:

- Grandeur et misère de la littérature algérienne
Problème culturel en Algérie 3/4/5/7/8 Février 1966.
- Le seul respect que je dois à Camus 18 Février 1967.
- Les générations se continuent vingt ans et plus 25 Février 1967.
- De l'écrivain et du lecteur citoyen et sujet 1^{er} Avril 1967.
- En marge du poème et du roman Littérature et journalisme 8 Avril 1967.
- Au fil des lettres 15 Juillet 1967.
- Fixer l'éternité 30 Septembre 1967.

1.3 الأدب الجزائري بالتعبير الفرنسي قبل الاستقلال:

لم تكن الأمية التي عانى منها الشعب الجزائري ظاهرة عارضة، بل كانت استراتيجية منظّمة استهدف بها المستعمر الفرد الجزائري في أعماقه، ومع ذلك استطاعت فئة قليلة من أبناء هذا الشعب الأمي التعلم في المدارس النظامية الفرنسية، فأتقنوا اللّغة حتى صارت أداة طيّعة في أيديهم، وكتبوا بها إلى درجة الإتقان والإبداع، وما إنتاجهم في هذه الفترة من شعر ونثر إلا دليل على ذلك. واعتُبرت الرواية الجزائرية باللّغة الفرنسية ناضجة بمجرد ولادتها ويعود السبب في ذلك إلى تمكّن الكتّاب من الأداة اللّغوية والتكوين العالي لدى البعض منهم، كما كانت هذه الرواية متقدمة في الظهور تاريخيا على الرواية باللّغة العربية وعلى درجة عالية من الإتقان والإبداع، ويعود هذا التقدم إلى أن تعليم اللغة العربية كان محصورا في أحسن أحواله في الزوايا والكتاتيب، وكان الإنتاج المحتشم آنذاك ذا طابع توجيهي إصلاحي.

كانت الجزائر من ضمن بلدان العالم الثالث التي عرف أدبها الوطني باللّغة الفرنسية صدى كبيرا وإنتاجا أكثر خصوبة¹، ومرة أخرى تعود الأسباب التاريخية إلى الواجهة، لأن الاستعمار الذي يدوم قرنا ونصف من الزمن لا يمكنه أن يكون بدون أثر على حياة الأفراد. فالكتّاب بالنسبة لمالك حداد هو نتاج التاريخ و الاستعمار الفرنسي- بالنسبة إليه- شئنا أم أبينا يشكّل جزءا من تاريخنا الوطني . ونظرا للسياق التاريخي والاجتماعي الذي وُجد فيه هذا الأدب "كان أولا سلاحا إجابة على خطاب أفكار مُنكرة استعملها المستعمر"² فكتب أبناء الجزائر عن وطنهم موظفين شخصيات جزائرية لمعالجة القضايا التي مست المجتمع في أناه العميقة وهويته الوطنية، إلى درجة اعتبار الكاتب الجزائري صاحب مذهب أكثر منه مبدع "لأنه مثقف ومن هذا المنطلق كان

¹ Voir Charles Bonn, La Littérature algérienne de langue française et ses lecteurs, imaginaire et discours d'idées, Ottawa, éditions Naaman 1974 p12.

² Ibid p16.

عليه أن يتّخذ موقفاً و يحدد نفسه بالنسبة لمذهب ماّ وحتى تمثيل هذا المذهب، فمالك حداد، مصطفى لشرف ومالك بن نبي هم مذهبيون أكثر منهم مبدعون".¹

ولكن إذا كان الكاتب هو نتاج التاريخ كما أسلفنا لا يمكنه بأي حال من الأحوال وضع حد بين إبداعه الفني وموقفه من الثورة، وخاصة إذا كان المثقف هو لسان حال مجتمعه، فتجد البلاد بذلك من يعبر عنها من خالص أعماق أحشاء بُنُوْتِهَا كما يقول مالك حداد.

على عكس الذين كتبوا قبلهم عن جزائر الشمس والسياسة الاستعمارية دون ذكر للفرد المواطن ولا حتى على سبيل التمثيل "ففي رواية الطاعون التي جرت أحداثها في وهران دفع Camus بعنصريته الواعية أو غير الواعية إلى حد عدم تصوير مصاب بالطاعون من ابتكاره، ولا حتى موبوء عربي صغير واحد، واحد فقط، مراعاة للمبدأ"²

ونظرا لأهمية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية يستدعي الحديث عن كَمِّهِ أو مستواه الفني أو قضاياها المتعددة بحثاً قائماً بذاته مما لا يتسع له الأمر في هذا المقام. ومع ذلك نشير إلى أن الإنتاج الأدبي في هذه الفترة والروائي منه على الأخص عرف منعطفا حاسما بعد صدور رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب سنة 1952 ومع أنها لم تكن أول رواية³ جزائرية باللغة الفرنسية إلا أنها جاءت مختلفة من حيث المضمون، إذ كشفت للرأي العام عن وهم التعايش السلمي بين الأهالي والمعمرين، وصوّرت

¹ Voir Charles Bonn, La Littérature algérienne de langue française et ses lecteurs, imaginaire et discours d'idées, p.79.

² En Nasr Le seul respect que je dois à Camus 18 Février 1967, n°

³ ظهرت في الفترة ما بين 1925-1952 حوالي 8 روايات هي:

* Zohra , la femme du mineur 1925 لعبد القادر حاج حمو.

* Mamoun, l'ébauche d'un idéal 1928 لشكري خوجة.

* El-Euldj, captif des barbaresques 1929 للكاتب نفسه.

* Myriem dans les palmiers 1934 لعبد ولد الشيخ.

* Boulouar jeune algérien 1944 لرشيد زناطي.

* Leïla jeune fille algérienne 1947 لجميلة دباش.

* "إدريس" لعلي الحمامي.

* "لييك" 1948 لمالك بن نبي. * Le fils du pauvre مولود فرعون 1950

المعيشة القاسية للجزائريين ومعاناتهم من الجوع والفقر، وطرقت موضوع النضال السياسي وطرحت تساؤلات عن مفهوم الوطن والهوية الوطنية.** وكان هذا الطابع تقريبا السمة المميّزة لأدب ما قبل الاستقلال.

2.3 أثر الثورة في أدب ما قبل الاستقلال:

اجتمعت الكتابة في الفترة الاستعمارية حول الثورة كموضوع رئيسي، وكان التاريخ حاضرا كموضوعة مؤسّسة لكل الكتابات الجزائرية باللّغة الفرنسية عامة. فالأدب الذي ولد في بيئة استعمارية وجد نفسه مقحما بشكل أو بآخر في بحث مستمر عن الأنا المفقود والهوية المُغيّبة من طرف الاستعمار. ولم يبق الكاتب الجزائري في برجه العاجي وشاعريته المرهفة منتظرا ما ستسفر عنه الثورة، بل منهم من كانت لديهم نشاطات مباشرة مع جبهة التحرير خارج الوطن، فدفع بهم الاحساس بالانتماء ومرارة الظلم إلى التصوير الرمزي لهذه المأساة في كتاباتهم، فيقول كاتب ياسين في بعض تصريحاته الصحفية "رافقتني نجمة في جميع أسفاري... كنت في أواخر الأربعينات عاملا مهاجرا في باريس وكنت في نفس الوقت مناضلا في الثورة الجزائرية، وعبر رواية نجمة كنت أعمل لأعيش وكنت أكتب نجمة لإحياء انتفاضة ثوار وطني"¹ ويضيف حول كتابة نجمة كيف كان يفكر في وضع الجزائر في كتاب، وكيف يقنع الفرنسيين بأن الجزائر هي جزائر نجمة وليست كما يتوهمون. وتبقى رمزية نجمة - التي كثر طالبوها مثل الجزائر التي أحبها أبناؤها على اختلاف انتماءاتهم- دليل على حضور الثورة في هذه الرواية. ومن جهة أخرى يتطرق محمد ديب إلى موضوع النضال من خلال شخصية حميد سراج الذي كان يطالب برحيل الاستعمار ويجد لدى عمر- بطل الرواية- الأذان الصاغية والشخصية الحائرة التي كانت تُساءل كل ما يدور حولها. وفي رواية الأفيون والعصا صوّر لنا مولود معمري وعي الطبيب بضرورة الاستجابة لنداء الوطن والمشاركة في الثورة إلى جانب أبناء قبيلاته التي أُبيدت بعد ذلك عن بكرة أبيها.

¹ محمد قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1966 عن مجلة الوطن العربي العدد 354.

** عن محاضرات د، أحمد منور، جامعة الجزائر 2.
... الحذف من عند الطالبة

أما بالنسبة لمالك حداد فكانت روايته الأولى الانطباع الأخير محصورة في الجزائر بأمر من الجنرال ماسو لأنها تضمنت كتابات تُخل بالأمن العام¹ فصوّرت تمزق سعيد بطل الرواية بين واجبه الوطني وحياته الشخصية المتمثلة في حب لوسيا التي انتهت بموتها وانضمام سعيد إلى صفوف المقاومة ولم تخرج رواياته الأخرى** عن سياق الثورة والمقاومة، وطرحت مشكلات لم تجد لها حلا في فترة الاحتلال وعكست بوضوح الآفاق المجهولة للثورة آنذاك.

فُعرفت بذلك معاناة الشعب الجزائري وسافرت خارج الحدود وتُرجمت المؤلفات إلى لغات عديدة وكُتبت للخشبة والمكروفون....فساهم الأدب الجزائري بتواضع أيضا في المقاومة التي كانت تجري² والشهادات المعاشة -حسب الكاتب- ليس لها مثيل لأنها تمتلك طعم الذكريات الشخصية للمشاركة الفعلية والمباشرة، وهي جزء من الحياة أو الماضي أو السيرة الذاتية³. ويضيف بأنه لا يكفي أن نفرك ذكرياتنا لكتابة مؤلف، فأقله أن نكون شهودا مشاركين فيستطيع الكاتب المساهمة بطريقته وبإملاء من التاريخ في جعل هذا الحدث خالدا⁴، وفي حالة الكاتب الجزائري لن يصبح مجرد ناسخ لأحداث الثورة لأنه معني بها بشكل مباشر، و يستطيع تصويرها بكثير من الواقعية والعاطفة المتأججة.

¹ Tahar Bakri, Malek Haddad l'œuvre romanesque pour une poétique de la littérature maghrébine de langue française, l'Harmattan, Paris, 1986.

** "الانطباع الأخير" 1958.

* "سأهيك غزالة" 1959 تروي قصة كاتب جزائري يكتب رواية عاطفية بين مولاي وياميناتا اللذان يسكنان واحة في الصحراء وبعد نفي كاتب هذه الرواية إلى باريس أثناء الثورة التحريرية يقدم مخطوطه إلى ناشر باريسى دون أن يذكر اسمه ويعدّها يكتشف الناشر هوية الكاتب عن طريق الشاعر "فرانسوا دي ليسيو" صديق هذا الأخير. وبعد إعجابها بالقصة التي يرويها المخطوط تحاول "جيزال ديروك" زوجة الناشر التعرف على الكاتب وربط علاقة حب معه. قبل المخطوط وصار على وشك النشر عندما قرر الكاتب سحبه. وفي سياق الحرب التحريرية يكسر أيضا حب "جيزيل" والكاتب ولا تُنشر سأهيك غزالة.

* "التلميذ والدرس" 1960 إدير صالح طبيب جزائري في عقده السادس يعيش في فرنسا ويعاني من مرض عضال. يواجه ابنته التي تلومه على رحيله عن الجزائر وتخبره بأنها حامل من طالب مطلوب لدى السلطات الاستعمارية بسبب نشاطه السياسي. تطلب "فضيلة" من والدها إحقاق "عمر" المطارد ومساعدتها على الإجهاض لأن ظروف الحرب لا تسمح بالاحتفاظ بابنها. وأمام هذه المعطيات وبينما فضيلة تغط في نوم عميق يستحضر "إدير" في مواجهة مع نفسه ماضيه والجزائر المكافحة التي يحملها في قلبه وشبابه وشيوخه والحياة والموت.

* "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" 1961 هي قصة شاعر جزائري "خالد بن طوبال" في المنفى في فرنسا يقرر زيارة صديق طفولته "سيمون كادج" القاطن برصيف الأزهار في باريس والذي أصبح محاميا بينما الجزائر في حرب. تحاول "مونيك" زوجة صديقه التقرب منه لكن "خالد" يصدّها لأنه يحب زوجته "وريدة" التي بقيت في الجزائر والتي كان يظن خالد بأنها انضمت للمقاومة، وفي طريقه إلى Aix-en-Provence مستقلا القطار وهو يقرأ الجريدة يكتشف مقتلها في أحضان مضلي فرنسي في قسنطينة بعد اعتقالها بالجزائر الفرنسية وبذلك تكون قد خانت خاتمه وخانت الجزائر فيلقي خالد بنفسه من القطار وينزل إلى الهاوية.....انظر المرجع السابق، ص19، 53، 103، 147.

² Malek Haddad, En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne 3/4/5/7/8 Février 1966 (n°225-229).

³ Malek Haddad, En Nasr, Fixer L'éternité 30 Septembre 1967(n°735).

⁴ Op.cit.

واعتبر الكاتب جيله محظوظا بمعاشته المباشرة أو غير المباشرة لفترة عالية الإنسانية، حيث كانت المواضيع تُقدّم إليهم من الحقيقة نفسها. واعتبر المغامرات التي تنام في الذاكرة أو في الذكريات ولا نتقاسمها أو نرويها، مغامرات حزينة.¹ فكانت الثورة ومازالت بأحداثها وشخصياتها وزمانها ومكانها مادة روائية بامتياز، واغتنت بها الرواية التاريخية التي تستمد أحداثها مباشرة من التاريخ، وتجري عليها تحويلات فنية تقيم الفرق بين الرواية وكتاب التاريخ، وأصبح المتلقي يأخذ درسه في التاريخ من الرواية بشكل ما وبكثير من المتعة.

3.3 الموقف من الكتابة بالفرنسية:

الأدب لدى الكاتب يعني اللغة بالدرجة الأولى، لأنها وسيلته الوحيدة وأداته المهنية، وفي رأي مالك حداد قد تكون هذه اللغة عائقا بالنسبة لرجل العلم لأنه يستعملها مثل رجل الأدب، ولكن هذا العائق ثانوي بالنسبة إليه لأنه لا يحتاج إلى مخاطبة الوجدان ولا إلى استخدام روح اللغة في أدق تفاصيلها. وتكون هذه اللغة من غير أهمية بالنسبة للرّسام والنحات أو الموسيقي، لأن هذه الفنون تمتلك لغتها العالمية الخاصة بها والتي لا تحتاج إلى ترجمان، وغياب اللغة المكتوبة هنا لا يعيق رسالة هذه الفنون²

أما الكاتب فمقيد باستعمال اللغة بمفهومها الضيق. ويذكر مالك حداد أمثلة متنوعة في مقاله (عظمة الأدب الجزائري وبؤسه)، فمثلا لا نحتاج إلى الفرنسية لتذوق "رونوار"³، ولكن لا يمكننا تذوق "فرلن" أو "أراغون" دون معرفة للغة الفرنسية، ولا نحتاج أيضا التحدث بالبولونية لسماع بولونية "شوبين"⁴، لأنه في حقيقة الأمر لا نتحدث لغة بل نحسها، نفكر بها، نعيشها"⁵، ويضيف في مقاله الاصفار تدور حول

¹Voir Malek Haddad , En Nasr, Fixer L'éternité.

²Voir En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

³ هو Pierre Auguste Renoir من أشهر الرسامين الفرنسيين ، ولد في Limoge في 25 فيفري 1871 وتوفي في 3 ديسمبر 1919 وخلف حوالي 6000 لوحة عبر مشوار فني دام ستون سنة تقريبا.

⁴ هو Frédéric François Chopin مؤلف موسيقي وعازف بيانو، ولد في Wola Zéalazowa في بولونيا في 1 مارس 1810 وتوفي في باريس في 17 أكتوبر 1849.

⁵En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

نفسها بأن الحيازة التدريجية لتقنيات مهنة الكاتب تجعله يتعمق أكثر في هذه اللغة التي هي وسيلته الكبرى في التواصل مع العالم الخارجي.

وأكد مالك حداد بأن الكاتب يعيش في اللغة، يسكنها وتسكنه فيصبح مقيما بها والأمر كله هنا لأن هذه الإقامة قد تكون في الخارج فتصبح الغربة مزدوجة، غربة جغرافية تمثلت بالنسبة إليه في إقامته بفرنسا، وغربة لغوية عبّر عنها في افتتاحيّة مقاله الأصفار تدور حول نفسها: لا يفصلني البحر الأبيض المتوسط عن وطني مثلما تفصلني اللغة الفرنسية، ذلك لأنه عاجز عن التعبير بالعربية عمّا يحسّه بالعربية، ولم تتسم هذه الازدواجية في الغربة بالتوازن في شخصيته، لأنّ اللغة كانت أشد غربة من الجغرافيا فظلّ يحملها معه ويتجرّع مرارتها طوال مشواره الأدبي.

كان ينتمي إلى جيل تعلّم اللغة الفرنسية بحمولتها اللسانية والثقافية منذ المدرسة الابتدائية، وكانت اللغة العربية تُدرّس في الثانويات على أنّها لغة أجنبية، فتصبح لغتنا الأم -حسب الكاتب- منفية في عقر دارها¹ ويترتب على ذلك إحساس بالاستلاب وفقدان الهوية، فلا يتعرّف الفرد على نفسه في هذه الثنائية المتضادة المتمثلة في البيت والمدرسة، مع أنّها ثنائية تستلزم الانسجام والتكامل في تكوين شخصية المتعلّم الناشئ. فلم يكتف الاستعمار-يضيف الكاتب- بتلقيننا بأن آباءنا كانوا Gaulois أو أن نهر السين هو أجمل الأنهار في بلادنا، بل كان هذا التلقين يتم لأطفال بلغة يتوقّفون عن استعمالها بمجرد خروجهم من المدرسة².

وعندما كانت هذه هي أهمية اللغة بالنسبة للأدباء، لم يكن أمامهم خيار في استعمال هذه الوسيلة التي تمثلت وقتها في اللغة الفرنسية الوحيدة المتاحة على حساب اللغة الأم، فكتب بها كاتب ياسين واعتبرها غنيمة حرب، ومحمد ديب وآسيا جبار ومصطفى لشرف وغيرهم كثيرون في فترة عالية الخصوبة، فتباينت آراؤهم فيها ولكنهم أجمعوا على أهميتها "فالكتّاب الأكثر ذكاء وانفتاحا-حسب جون ديجو- لم يندموا حتما على معرفتهم بالفرنسية وقال معظم الروائيين الجزائريين بأنهم مسرورون لكتابتهم بالفرنسية وأنهم

¹Voir Les Zéros tournent en rond, p15.

²Ibid, p17.

ليسوا مستعدين لإنكار هذه اللغة المستولى عليها من مقاومة شديدة ضد الاستعمار¹ ويضيف جون ديجو "عندما أكتب بالفرنسية-يقول مولود معمري- لا يكون لدي أدنى تعقيد، كاتب ياسين ومحمد ديب لا يقولان بأنهما ممزقين ويقول مالك حداد : ليس من صلاحياته إدانة اللغة الفرنسية، مع أنها أجنبية عنه(رغم تكوينه الثقافي الفرنسي) وتبقى الوسيلة الوحيدة وسلاحه الوحيد في المعركة.

4.3 مأساة التعبير لدى الكاتب:

عُرف الكاتب بموقفه من اللغة الفرنسية وظلّت عبارات مُقَوَّلبة تطارده كظله وتحيل عليه مباشرة فيقول: "ذكر لي غابريال أوديسيو في يوم من الأيام، إحدى جُملته الخاصة التي تُلخّص فكره بشكل جيّد: " اللغة الفرنسية هي موطني، وأتذكّر إجابتي حينها : اللغة الفرنسية هي منفاي²، وعامة المثقفين لا يعرفون من هذه العبارة إلا جزئها الأخير(اللغة الفرنسية هي منفاي) أما أكثرهم اطلاعا قال عنها بأنها كانت مقولة عارضة وجاءت في معرض الحديث بين الكاتبين ليس إلا، بينما كانت في واقع الأمر تلخيصا مُركّزا لحقيقة مأساته في التعبير.

والدليل على ذلك أنه أعاد ذكر هذه العبارة بكثير من التعمق والتحليل في مقاله المطول الأصفار تدور حول نفسها عام 1961، ثم عاد إلى الفكرة نفسها بالعبارة نفسها في مقاله المُعنون "عظمة الأدب الجزائري وبؤسه عام 1966 كعمود صحفي في جريدة النصر حيث يقول: "اللغة الفرنسية هي منفاي : اللغة ليست اتفاقا بسيطا، ملائمة بسيطة أو وسيلة تواصل بسيطة، بل تُمثل روح شعب وفرد وبهذا المعنى يكون الكاتب نتاجا للتاريخ، وبهذا المعنى يكون الكاتب الوطني الأصيل ممثلا لبلاده إلى أبعد حد، "شارل بيغي" لم يكن إلا فرنسا "غوت" لم يكن إلا ألمانيا، "غوركي" إلا روسيا، "سرفانتيس" إلا إسبانيا"³ لأن تَمكُن الكاتب من أدواته اللغوية الوطنية يجعله قادرا على ترجمة واقعه

¹ Voir Jean Déjeux, Décolonisation culturelle et monde moderne en Algérie, in Confluent, (janv/fev/mar) 1965, n°47, p8.

² Ibid, p8.

² Voir Les Zéros tournent en rond, p21.

³ Voir En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

وأفكاره بكثير من الدقة والإخلاص. أما الكاتب الجزائري باللسان الفرنسي يقول مالك حداد، فهو ضحية مباشرة للاعتداء الاستعماري، لأنه طُرد من لغته مثلما انتزعت ملكية الأراضي من الفلاحين، فاغتصاب الخيرات في الجزائر صحبه اغتصاب للهوية وللأداة التواصلية، لكن المأساة هنا- يضيف الكاتب- إذا استرجع الفلاحون أراضيهم في الاستقلال فإن الكتاب الجزائريين من جيلي، تقدّموا في السن بما لا يسمح بإعادة الوضع على ما كان عليه. أقولها بدون مرارة: أظن أنه حكم علينا باللغة الفرنسية إلى الأبد¹.

الكاتب الذي يضيق صدره ولا ينطلق لسانه باللغة العربية يكون في عزلة دائمة ومنفى محتوم يتمثل في لغة لم يخترها ودخلت حياته مثلما دخل الاستعمار بلاده دون استئذان. ولا يتأتى التجاوز الحقيقي للعزلة بالنسبة إليه إلا بتأكيد الاستقلال وملاقاة اللغة الوطنية التي تكون السبيل الوحيد لوضع حد لما يسمى بالخيبة التقنية والمرحلة الوبائية من التاريخ²

لكن المشكلة مع اللغة الفرنسية ليست مأساة إنسانية، وإنما هي مشكلة تقنية أو مهنية بالنسبة للكاتب. وما تقدّم من تعبير عن الغربة والمنفى والمأساة في التعبير ما هو إلا حق في المطالبة بالأداة التي يراها هو مناسبة لمهنة الكاتب فيوضح ذلك بقوله "لا أريد أن يحبسوني في موقف ولا أن يضعوني في مشكلة واحدة. هذه المشكلة ليست هوسا بالنسبة لي ولا فكرة ثابتة أو محببة... وأعتبر مأساة التعبير أو بالأحرى اللغة خاصة وقبل كل شيء مشكلة مهنية"³، ولم يكن هذا الطرح ارتجالا من طرف الكاتب أو حبا في المجادلة أو التفرد في الرأي على حساب جيل كامل كتب بلغة المستعمر دون إثارة كل هذه النقاشات؛ وإنما كان تحليلا لواقع فرض نفسه عن طريق رسائل واتصالات من

¹ . Voir En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

² Voir "Malek Haddad "l'œuvre romanesque, pour une poétique de la littérature maghrébine de langue française, p178.

³ Malek Haddad, le problème de la langue dans la littérature maghrébine, in Confluent, (janv/fev/mar)1965, p78.

القراء وتحقيقات ومحاضرات قدّمها الكاتب في الكثير من أنحاء العالم أكدت في إجماعها على وجود المشكلة ومن الغباء إنكارها حسب رأيه¹.

يكتب مالك حداد الفرنسية ولا يكتب بالفرنسية، مسألة أخرى يطرحها الكاتب عن التعبير بلغة الآخر، ولم يقصد من وراء هذه العبارة حب البهلوانية المصطلحية² وإنما أراد من ورائها بأننا لا نكتب كفرنسيين.

لقد استعمل الكتّاب الجزائريون والفرنسيون اللغة نفسها وربما يكونون قد كتبوا بالمهارة نفسها، غير أن المنتج لم يكن واحدا لأن المشاعر و الأفكار لا تستطيع أن تكون عالمية، فلا نحب ونكره بنفس الطريقة -يقول الكاتب-، وقد لا تستطيع اللغة استيعاب أو ترجمة كل ما يدور في فكر الكاتب، فتصبح بذلك مجرد مراسلة تقريبية بين الفكر العربي والتعبير الفرنسي³.

ومن جهة أخرى تتمثل مأساة التعبير لدى جيل ما قبل الاستقلال في الأمية التي وقفت حاجزا بين الكتّاب وقرائهم، حتى وإن كتبت العربية -يقول مالك حداد- ينتصب حاجز بين قرائي وبينني هو الأمية، وبذلك تكون مأساة التعبير قد طالت حتى الذين لم يُحرموا من الكتابة باللغة الأم، لأن صيرورة الإنتاج الأدبي والفكري عامة تستلزم وجود قراء يجعلون من فعل الكتابة والقراءة عجلة دائمة الدوران " فالموضوع الأدبي هو خذروف* لا يكون له وجود إلا بالحركة، ولا يعلو إلا بفعل ملموس يسمى القراءة، ولا يدوم إلا مادامت القراءة موجودة، عدا ذلك لا يكون لدينا سوى خطوط سوداء على الورق" (جون بول سارتر ما الأدب؟ ص52)⁴.

¹ Malek Haddad, le problème de la langue dans la littérature maghrébine p78

² انظر Les Zéros tournent en rond, p35.

³ Ibid., p34-35.

*La toupie الزربوط باللغة العامية.

⁴ La littérature algérienne de langue française et ses lecteurs, p13.

5.3 موقف الكاتب من اللغة الفرنسية:

أحب مالك حداد اللغة الفرنسية وأحس بغربة في أحضانها لكنه لم ينتكر لها لأنها -على حد تعبيره- الوسيلة الوحيدة التي يمتلكها للتواصل مع قرائه وأبناء بلده، كما أعطته اللغة الفرنسية أول انفعالاته الأدبية وسمحت بتحقيق موهبته المهنية¹. وعرف الكاتب بوعيه كيف يضع الحدود بين مواقفه السياسية وتذوقه للجماليات الأدبية، فأنزل الناس منازلها ولم يُحمّل الأدباء الفرنسيين جريمة أخطاء وجرائم السياسيين و العسكريين، فموليير -في رأيه- ليس غريبا بالنسبة للجزائريين وليس له علاقة بالقوة الاستعمارية² لأنه في حقيقة الأمر لم تكن في الجزائر المستعمرة مشكلة أدبية، بل كانت هناك مشكلة سياسية فقط، مما يجعلنا نصمد في وجه ماسو وبيجو وفي وجه أي مستعمر آخر، ولكن ليس في وجه موليير -ضيف الكاتب-³. حداد الذي كان يدعو إلى عالمية الثقافة وحوار الثقافات حتى في عز الأزمة الجزائرية (الاستعمار)، وهو الشاعر والروائي الملتزم الذي وقف في صف الثورة الجزائرية وجعل منها موضوعا مباشرا لإنتاجه الأدبي على اختلافه (شعر، رواية، مقال)، لم يُخضع اللغة الفرنسية يوما للمساءلة وحرص على التكرار والتوضيح دائما في الجزائر وفي فرنسا وفي بلدان أجنبية أخرى، في كتبه ومحاضراته و مقالاته الصحفية، بأنه ليس في تفكيره ولا في نيّته إدانة اللغة الفرنسية أو محاكمتها ولا حتى مناقشة وجودها⁴ ويؤكد من جهة أخرى بأنه لا يحاكم ولا يدين اللغة الفرنسية الوحيدة التي يمتلكها ولا يدافع عن اللغة العربية التي لا يمتلكها، فليس هناك من لغة في العالم أفضل من أخرى، والاختراع الكبير الذي توصل إليه الإنسان هو عندما عرف كيف يصمت ويوجد لغة تفهم من طوكيو إلى أديس أبابا: الرسم، النحت، الموسيقى مثلا، الصمت مثله مثل العقيدة هو تواصل أيضا⁵.

¹Voir En NASr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

² Voir LES Zéros tournent en rond, p20.

³Voir LE problème de la langue dans la littérature maghrébine, p80.

⁴ Voir En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne .

⁵Op.cit. p79.

من هنا يُبين لنا أن اللغة ليست مشكلة في حد ذاتها لأنه لا يوجد تفاضل بين اللغات، فقد تتواصل ثقافات مختلفة عن طريق الألوان والأنغام، مثلما يكون الصمت لغة مناجاة بين الإنسان وعقيدته.

لم يخف الكاتب إعجابه بل انبهاره باللغة الفرنسية التي كانت وسيلته الوحيدة في التعبير عن الحرية فيقول: نطقت كلمة استقلال لأول مرة بالفرنسية. ولم يخف أيضا تفهمه لتخوف أصدقائه الفرنسيين على مستقبل لغتهم، فالحيرة هذه تطرح إشكالية التعايش بين اللغتين بعد الاستقلال، الذي يعني بالنسبة للكاتب وللكتيرين غيره عودة اللغة العربية إلى عقر دارها، بعد أن كانت محظورة في الجزائر ولاجنة إلى بعض الجامعات التونسية والمغربية وخصوصا الشرق أوسطية¹. ونوه الكاتب أيضا بالدور الكبير الذي لعبه الإسلام وخدمه في الجزائر للمحافظة على اللغة العربية. ورأى بأنه لا وجود لتعايش لغوي ممكن دون أن تتقدم لغة على أخرى، ولا يتعلق الأمر هنا بالاختيار بين اللغتين العربية والفرنسية، وإنما تستطيع اللغتان التعايش فقط إذا لم تُطرح أولية اللغة العربية للبحث والمُساءلة من طرف اللغة الفرنسية². ومعنى ذلك أن عزلة اللغة العربية وتأخرها في الفترة الاستعمارية لا يفسح المجال أمام اللغة الفرنسية في احتلال الصدارة بعد الاستقلال. من جهة أخرى يستبعد الخطر عن الفرنسية لأن الجزائر-على حد تعبيره- "لم تكن لها نية في احتلال فرنسا ومن ثمة لا يرى كيف يمكن للعربية أن تكون خطرا على الفرنسية أو على الوجود الثقافي الفرنسي"³ والاعتراف باللغة العربية كلغة وطنية لن يضع اللغة الفرنسية في خطر أو في صعوبة، لأن هذه الأخيرة صارت جزءا من إرثنا الوطني وما كان يحصل في الجزائر كان في نظره مشكلة سياسية وليست أدبية.

¹ Voir En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

² Voir Le problème de la langue dans la littérature maghrébine, p80.

³ Les Zéros tournent en rond, p20.

6.3 الدور الإيجابي للغة الفرنسية:

هل كانت اللغة الفرنسية وسيلة إيجابية أم عائقا بالنسبة للأدب الجزائري؟

لقد اجتهد الاستعمار في أذية الشعب الجزائري بقتل روحه بعد مصادرة أملاكه المادية والثقافية، وطارد اللغة العربية وأبعدها من المدارس، فلم تجد القلة المحظوظة من أبناء الشعب الذين استطاعوا التعلم وقتها سوى اللغة الفرنسية كأداة للتواصل.

فولدت الأزمة الاستعمارية في الجزائر همّة لدى جيل كامل من الكتّاب باللغة الفرنسية، وحتى مالك حداد الذي تحدّث كثيرا عن غربته فيها اعترف بكرمها الكافي وإن كان مفروضا على الجزائريين، وبذلك أصبحت لغة المستعمر بالنسبة للمستعمر وسيلة فعّالة من أجل التحرّر...¹.

ولا تكون الأزمات مُحِبّة دائما ولا يكون الأذى سلبيا في المطلق-حسب الكاتب- فقد يفرز أحيانا دواءه الخاص، ذلك أن استخدام اللغة الفرنسية في الأعمال الأدبية كان بطريقة ما وسيلة للتعريف بالجزائر للعالم. أما المنفى الذي كان يعيشه الكاتب فلم يكن عديم الجدوى لأن اللغة مكّنته من خدمة أو محاولة خدمة بلده الحبيب². ولم يكن هذا موقف مالك حداد لوحده ففي حوارهِ مع مجموعة من الكتّاب يقول "م. عيوش" عن اللغة الفرنسية "استعملناها ضد المستعمرين، ضد هؤلاء شخصا الذين زرعوها عندنا، فاستخدموها الشعراء في التغني ببقية المستعمر وتفعيل مسيرته نحو الاستقلال: كانت جزءا منهم. لم يكن باستطاعتنا الاستغناء عنها (رغما عنا) ولن نستطيع الاستغناء عنا مستقبلا³."

كانت فترة ما قبل الاستقلال في تاريخ الأدب الجزائري فترة عالية الخصوبة، تأكّدت خلالها أسماء كتّاب جزائريين خلّدوا باللغة الفرنسية مآسي جزائرية خرجت إلى الرأي العام عن طريق دور نشر فرنسية "منحت ضيافتها الشجاعة والمتفهمة"⁴ للإنتاج

¹ Voir Le problème de la langue dans la littérature maghrébine 19.

² Les Zéros tournent en rond, p23.

³ Le problème de la langue dans la littérature maghrébine, p86.

⁴ En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

الجزائري، ويضيف الكاتب في نفس السياق بأن هؤلاء الناشرين أخذوا على عاتقهم نشر أعمالنا في فترة كادت تسبب لهم خطرا أكيدا، لأن ذلك كان يعني اتخاذ موقف إيجابي لصالح الجزائر المكافحة.

3 7 حقيقة صمت الكتاب الجزائريين بعد الاستقلال:

تحدّث مالك حداد كثيرا عن صمته، وصمت الكتاب من جيله الذين يكتبون الفرنسية، وبالنسبة إليه لم يكن الصمت انتحارا، فقرر أن يصمت ولم يحس بأي ندم أو مرارة في وضع قلمه¹. واعتبر هؤلاء الكتاب تمثيلا لمرحلة معينة "كمثلي السينما الصامتة الذين اختفوا وتخلّوا عن مكانهم للسينما الناطقة"²، ويعتقد مالك حداد بأن الكتاب الجزائريين من جيله وتكوينه عليهم -في يوم ما وفي الأجال القريبة أو البعيدة- ترك المكان لكتاب جزائريين بلسان عربي، ويكتفون بترجمة أعمالهم في وطنهم.

هذا الحكم القاسي الذي أصدره الكاتب على جيل كامل من الكتاب، والذين لم يختلف الدارسون عن موهبتهم، جاء من اعتقاده بأنهم جيل عبور مثّل الفترة الاستعمارية في الجزائر، أو كما اصطلح هو على تسميتها بالحقبة البوائية من التاريخ. "كما اعتبر هذا الجيل من الكتاب توضيحا -بالنسبة للمؤرخين- للثمن الذي يدفعه بلد ما عانى من احتلال أجنبي لمدة تفوق القرن"³. وبعد عرضه لآفاق ومشاريع الجزائر بعد الاستقلال تصوّر زوال الكتاب من جيله "أما بالنسبة إلينا فأظن بأننا ولدنا مع الاستعمار وسنزول معه... أذهب إلى أبعد من ذلك، أظن أن زوالنا يتسارع في هذه الفترة"⁴.

¹ Voir Le problème de la langue dans la littérature maghrébine, p78.

² « Malek Haddad », l'œuvre romanesque, pour une poétique de la littérature maghrébine de langue française, p178-179, (afak n° 6, 1961).

³ Voir En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

⁴ Ibid.

كان يقول بأن هذا الأدب لا يملك مستقبلا، وفي نقاش له مع جمهوره عام 1964، ذهب إلى القول "بأننا نكتب بلغة من كانوا أعداء لنا في حرب التحرير، إنه مستحيل، يجب علينا الاختفاء ككتاب...نحن نُعرفل"¹.

هل كان يقصد بذلك أن الاستمرار في الكتابة بالفرنسية يعني استمرارا في الإحساس بالاستعمار؟ أم أن قسوة الحكم على الكاتب بالصمت هي حتمية يملوها الاستقلال وعودة اللغة العربية إلى مكانها الطبيعي؟ "لأنه مع الاستقلال ومع إثبات اللغة العربية وبتحطيم الأمية، قرّاء الغد يقرأون بالعربية كتباً بالعربية"².

لم تكن هواجس مالك حدّاد عن اختفاء الكتاب باللغة الفرنسية مؤسسة على حقائق ثابتة، وإنما كانت مجرد أحاسيس استولت على الكاتب في فترة معينة من التاريخ (الاستعمار). وإذا أردنا فهم ردة الفعل هذه سنضع أعماله الروائية في سياقها التاريخي "فعزلة البطل –الكاتب في رصيف الأزهار لم يعد يجيب، تأتي من الكتابة بلغة لم يخترها وفرضت نفسها عليه، وتأتي أيضا من عجزه عن الكتابة باللغة العربية"³ وفي رواية التلميذ والدرس يعيد مساءلة وجوده ويقول بأنه أخطأ العصر مثلما يُخطئ الإنسان طريقه، فيصبح منفرجا بين عصرين وبين حضارتين، ولم تكتمل قصة حب "مولاي وياميناتا" وظلت الغزاة الرمز شاردة في الصحراء في رواية سأهديك غزاة. هذه المشكلات التي لم تجد لها حلا في روايات مالك حدّاد، كانت تعكس الثورة الجزائرية بأفاقها الغامضة.

انترُعت الحرية وصارت حقيقة ثابتة، فوجد الكتاب أنفسهم في سياق تاريخي مغاير(الاستقلال)، فتغيّر معه الخطاب وخاصة لدى حدّاد نفسه الذي يقول: "يجب أن نواجه بإرادة حسنة أو بطبع حسن...تحدثنا كثيرا وكتبنا أيضا في الجزائر وفي الخارج عن صمت الكتاب الجزائريين". هو الذي قال بأنه لا يؤمن بمستقبل هذا الأدب ولكنه

¹Voir « Malek Haddad », l'œuvre romanesque, pour une poétique de la littérature maghrébine de langue française, p178-179, (afak n° 6, 1961).

² Ibid.

³ « Malek Haddad », l'œuvre romanesque, pour une poétique de la littérature maghrébine de langue française, p177.

يؤمن بأهميته يقول بعد الاستقلال " هذا الانتقاد غير عادل لأننا لم نتوقف عن التعبير والمساهمة في صحافتنا الوطنية والمشاركة رغم عزلتنا في الحياة الثقافية للجزائر، ونشر الأعمال وكذا مساهماتنا في التقنيات السمعية البصرية للبلاد"¹ ثم عرض علينا لوحة كاملة من الإنتاج الأدبي: "عمل لآنا غريكي" تحت الطبع الآن والذي لا تستطيع مؤلفته أن تهديه لنا، لأن بظهوره سوف يكون له طعم رسالة من وراء القبور، وأصدر "مولود معمري" مؤخرا "الأفيون والعصا"، كما منحنا "رضا فالأكي" "الوسط والهامش"، ويهدينا مالك بن نبي بداية جدارية واسعة "بمذكرات شاهد على العصر"، يعطينا صالح "انتهاء استعمار التاريخ" و يُحلّل "مصطفى لشرف" ماضينا تحليليا علميا ب"الجزائر دولة وأمة"، وعرض علينا ديب مؤخرا "من يتذكر البحر" و "رأى أطفال العالم الجديد" لآسيا جبار النور بعد الاستقلال. لم يبق "محمد محمصاجي" و"جمال عمراني" بدون نشاط، ويضع كاتب ياسين اللّمسة الأخيرة "لمضلة المرصع"...وتعلن المنشورات الوطنية عن أصابع اليد الخمسة للشاعر "حسين بوزاكر". ولم يتوقف كاكي بدوره عن تموين المسرح الوطني الجزائري"².

هذه العيّنة اعتباطية وناقصة في نظر الكاتب و "بهذا الإحصاء للأسماء والأعمال الذي أكرر بأنه غير تام، أردت بكل بساطة أن أبين بأنه لم يكن هناك سكوت منذ الاستقلال"³. ويجب مرة أخرى عن تساؤلات أحد القراء في Révolution Africaine الذي اندهش من صمت مزعوم للكّتاب الجزائريين، وتساءل إذا كان الواقع من الاستقلال لا يلهم هؤلاء الكّتاب، فيرد مالك حداد: "لم يكن هناك صمت منذ الاستقلال، وللتأكد من ذلك يجب عليه معاينة ببيوغرافيا حديثة، أو قراءة صحافتنا أو الاستماع إلى الراديو"⁴.

كانت الثّورة الجزائرية الموضوع المباشر لروايات ما قبل الاستقلال، فماذا عن مصدر الإلهام بعد الاستقلال؟ "الآن وقد أصبح بإمكاننا التحدّث عن الاستعمار بصيغة

¹Malek Haddad, An Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

² Ibid.

³ Ibid.

⁴Malek Haddad, En Nasr , Le retour des cigognes.

الماضي، تظل مواضيع الروايات وأسباب القصائد بدون حصر. لا يرتبط مصير كاتب جيد بحدث تاريخي قد يُسبب زواله انقضاء الوجود الشخصي لهذا الكاتب، فعيشنا في حد ذاته هو مادة لرواية أو قصيدة.¹

أما بالنسبة لمالك حدّاد، فكان خروجه من صمته هو نشر قصيدته *je suis chez moi en Palestine* في جريدة النصر (03 جوان 1967)، أما كتاباته الصحفية بعد الاستقلال تُترجمها المدونة محل الدراسة من (1965-1968). بذلك "يكون الصمت قد قُطع بعد سنوات قليلة من الاستقلال، تاركا المكان لنوع آخر من الخطاب بميلاد عصر الصحافة الجزائرية"²، و"لم يمنع استقلال بلدان المغرب العربي بعض الكتاب من مواصلة الكتابة إلى جانب زملائهم المُعَرِّبين باللغة الفرنسية التي اعتُبرت لغة المستعمر، والتي كان عليها أن تزول كأداة تعبيرية لهم"³.

8.3 فعل الكتابة و الإبداع:

يُمكن للكتابة أن تكون مهنة تتقاطع مع باقي المهن في نقاط معينة، و لكن فعل الكتابة من طبيعة خاصة جدا "هذا الفعل الذي يجعل من الكتابة بناءً صوتيًا، هذا الفعل الذي يُثبت ويقذف النظرة الدّاخلية، وهذا الفعل الذي يُجمّد الفكرة ربما بوضعها في قالب الشعر. هذا الفعل هو نتيجة لعملية طويلة ودقيقة، لديه صرامة التكوّن ويفرض التلقائية والتقنية بالصرامة نفسها، والإبداع هو الموهبة والفن في آن واحد وهي بذلك مهنة"⁴ فالكتابة عملية دقيقة تستدعي وجود استعدادات فطرية لدى الفرد نسميها في المجال الإبداعي بالموهبة، والتي تحتاج بعد وجودها إلى صقل وتهذيب عن طريق "تعلم التقنيات ودراساتها واكتسابها، فالسهولة ليست إلا السرعة التي نمارس بها هذه التقنية، ويوجد في الكتابة مثلما يوجد في غيرها من المجالات، تدريب حقيقي بنفس الدقة و

¹ En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

² Voir Enjeux et finalité du discours argumentatif, p23.

³ Voir « Malek Haddad », l'œuvre romanesque, pour une poétique de la littérature maghrébine de langue française, p 12.

⁴ Malek Haddad, En Nasr, Au fil des lettres, 15 Juillet 1967, n°668 ,p7.

المتابعة في التدريب الرياضي وفي مقدمة ذلك القراءة¹ التي تساعد على اكتساب اللغة و"تكون في الأدب بنفس الأهمية التي تستلزمها الألوان للرسم أو الصولفاج في الموسيقى"²، إضافة إلى سهولة التعبير والابتعاد عن الأخطاء اللغوية، وكذا اكتساب معرفة بالأفكار والآراء والإيديولوجيات المختلفة، التي تزيد من اتساع أفق الكاتب ورحابة صدره في محاوره الأفكار.

ليس للمبتدئين في الكتابة "من معلّمين بالمعنى التعليمي الضيق، وإنما نماذج يقلّدونها، ويعتقدون عن حسن نية بأن عبقريتهم الطبيعية هي الشرط الكافي للإبداع، ولكننا لا نبدع شيئاً من فراغ"³. فكم من كاتب ظل يقرأ لسنوات عديدة من حياته دون أن يتصور بأنه سوف يكتب في يوم من الأيام، حتى تفجّرت لديه هذه الملكة نتيجة لمقروئته الطويلة ودون أن يسعى إليها " فلا توجد مدرسة تمنح رتبة الكاتب مثلما توجد مدرسة للطّب أو الهندسة المعمارية، فالمؤلف وحده يمنح هذه الرتبة"⁴

وعن أسباب الكتابة يقول مالك حدّاد: "لأنك كتب من أجل إضاعة الوقت ولا الترفيه عن أنفسنا، ولا نكتب من وقت لآخر أو بمناسبة انفجار حدث في إحساسنا... ليس هناك من "شاعر الأحد" كما لا توجد سن للكتابة، أو التي نُحمل فيها على الكتابة"⁵، فلحظة الكتابة والإبداع لا تحترم الزمان والمكان، ولا تعترف بالمواعيد الدقيقة؛ فقد تجتاح صاحبها ليلاً أو نهاراً -وربما كان هذا هو مفهوم شيطان الشعر لدى شعراء الجاهلية- "فليس هناك ما هو أضعف من مخطوط يتلّكأ لأننا نقبض على الأفكار في حالة تحليقها مثلما نصعد في قطار سائر، ومجرد التأخير قد يكون قاتلاً، لأن المواعيد المُخلفة و الفرص الضائعة لا نعثر عليها مجدداً أبداً وهذا مؤسف"⁶.

وإذا كان الإبداع الأدبي بهذه الدرجة من المعاناة، فماذا عن وصوله إلى يد القارئ الذي قد يعيد إنتاجه من جديد؟ "لأن الفعل الأدبي والفعل الشعري خاصة، هي أفعال

¹ Ibid.

² Malek Haddad, En Nasr, Au fil des lettres

³ Ibid.

⁴ Ibid. "لاندخل في الأدب مثلما ندخل في ديانة، أن تصير كاتباً ليس كهنوتاً ولا رسالة. فنصبح كُتّاباً -روائيون أو شعراء- (وعندنا عادة ما تكون الاثنين) مثلما نصبح أطباء، طيارون أو باحثون لأنها مهنة مثل غيرها ولكن ما يميزها هو طبيعة إنتاجها".

⁵ Ibid.

⁶ En Nasr, Littérature et journalisme 8 Avril 1967(n°583).

خطيرة لا يمكننا ترضية صاحبها بمجرد إتمامها وإذا كان الفعل الأدبي مؤسسة، فالنشر يبقى مغامرة لا يمكن التكهن بعواقبها، وتسليم أفكارنا إلى الجمهور يبقى مغامرة أيضا"¹.

يجب أن يكون الرضا في المسيرة الأدبية نادرا لدى الشباب، "لأن الكتابة ليست نزوة أو لعبة مؤقتة، والرضا يعني الموت كما قال (G.B.Show). والفعل الأدبي هو حوار مستحيل ومتواصل ويبقى المخطوط الجيد صاحب الكلمة الأخيرة دائما"²، لأن الحركة النقدية النشيطة يمكنها أن تنزل الأعمال الأدبية منازلها، ولا تستطيع الكتابات الرديئة الصمود طويلا.

ولكننا -حسب الكاتب-، لا نستطيع أن نقطع شوطا كبيرا في فهم المسألة الثقافية إلا إذا تخلصنا من العادة السيئة التي تجعلنا نقارن بين المبدعين مهما كلفنا الثمن، ونرتبهم حسب رقم تسلسلي، لأنه "لو تشابه كل المبدعين لأصبح الإبداع عملية مُضجرة، ولكانت الأعمال الفنية أقرب إلى الإنتاج الصناعي في سلسلة إنتاجية منها إلى تصوّر شخصي أصيل يُميّزها"³، وهذه المؤسسة النقدية التي تتسلّم العمل الأدبي بمجرد ولادته قد ترتكب هفوات تجعلها تخطئ في الحكم على العمل "فتخط الانتقادات -المحترفة أو الهاوية- بين ذوقها والأحكام الموضوعية، و بين ما تُفضّل وما تظنه معيارا للجمال، ولا نغالط أنفسنا، لأن الذاتية في هذا المجال تتغلب بكثير"⁴، وما قد نظنه معيارا نقديا، نقديا، لا يكون في حقيقة الأمر، سوى رأيا شخصيا وانطبعا يوافق أذواقنا وذهنياتنا.

وينفي الكاتب وجود أحكام موضوعية خالصة لعمل فني ما، ويتساءل: إذا كان العمل مقبولا فما هي بالضبط المقاييس التي تجعله مقبولا ومشهورا؟... "نستطيع أن نقول عن كتاب بأنه مكتوب بطريقة جيدة أو سيئة وهذا كل شيء، غير أن هذا لا يثبت الشيء الكثير، لأن مؤلفات كُتبت وبُنيت بطريقة رديئة -حسب المعايير المعتادة للكتابة

¹ En Nasr, Au fil des lettres.

² Ibid.

³ En Nasr, DE l'écrivain et du lecteur, citoyen et sujet, 1^{er} Avril 1967, n°577, p7.

⁴ Ibid.

والبناء- هي روائع في بعض الأحيان"¹ ولا يريد من وراء هذا الطرح التوقف عن النقد، وإنما التفاتة منه إلى صعوبة إطلاق الأحكام.

9.3 من هم الكتّاب الجزائريون؟

شكّل الأدب المغربي باللسان الفرنسي ظاهرة استوقفت النقاد، وأثارت نقاشات حادة وقيّمة في آن واحد حول هويّة هذا الأدب، وخاصة في الجزائر التي مثل فيها النسبة الأكبر قبل الاستقلال ومازال إنتاجه في تزايد حتى الآن. فمنهم من اعتبره أدبا فرنسيا باعتبار اللّغة التي كُتِب بها، ومنهم من اعترف بجزائريته باعتبار المواضيع التي طرقها (خاصة الثورة الجزائرية كموضوع رئيسي)، ومنهم من قال أنه أدب جزائري بلسان فرنسي. فإذا كان هذا حال الأدب الذي كتبه جزائريون بمختلف اتجاهاتهم، فماذا عن الكتّاب من الأصول الأوروبية، والذين كانوا يعيشون في الجزائر ويعتبرون أنفسهم جزائريين بشكل أو بآخر؟ وماذا عن إنتاجهم الأدبي الذي اعتبر الجزائر خلفية تزيينية لصورة سياحية في معظم الأحيان؟

تحدّث مالك حداد عن هويّة هؤلاء الكتّاب بكثير من التحليل فيقول: "لقد نشر "ألبير ميمي" أنطولوجيا الكتّاب المغاربة باللسان الفرنسي، واحتل فيها الكتّاب الجزائريون المكانة الأكبر لأنهم كانوا الأكثر عددا، فبدأت ردود أفعال الكتّاب الموجودون في الجزائر -من أصول أوروبية- بالظهور، وعبروا في الصحافة عن سخطهم لعدم الظهور. Pelgri كاتب أشجار زيتون العدالة، كان عنيفا جدا وكان Gabriel Odisio متأثرا.... وعبر Jules Roy عن مرارته"². فجعلت هذه المواقف مالك حداد، يفكر في معايير الجزارة أو بكل بساطة: من هو الكاتب الجزائري؟.

¹En Nasr, DE l'écrivain et du lecteur, citoyen et sujet.

²En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

هل هو معيار العرقية؟:"الجزارة أن لا تكون لدينا قاعدة عرقية، وتعود أسماء إلى ذاكرتي في الحال ، Anna Henri Krèa ,John Senac, Frantz Fanon وأُمنّا Greki التي غيّبها الموت عنا"¹ كانوا أصدقاء للجزائر.

هل هو معيار الديانة؟. "أحد كبار الكتّاب جون عمروش، من أب وأم مواطنين ألم يكن من طائفة مسيحية؟ ومن كان سيجادله في جزأته؟"²

هل هو معيار اللّغة؟-يضيف الكاتب- "لكن اللّغة لا تكفي، فمعظمنا يكتب الفرنسية وكاتب ياسين الذي يكتب الفرنسية، هو جزائري بنفس الدّرجة كمحمد العيد الذي يُعبر بالعربية... إذن أين هي معايير الجزارة بالنسبة للكاتب"³

ويجب مالك حداد عن تساؤلاته: "نحن إذن مضطرون للعودة إلى المعايير السّياسية، مع كل ما يحمله ذلك من ضيق واعتباطية مصطنعة أحيانا"⁴

في فترة الاستعمار وخاصة أثناء اندلاع الحرب التحريرية لاسترجاع هوية ضائعة، كان المعيار السياسي أهم المعايير على الإطلاق، وكان على الكتّاب من الأصول الأوروبية، تحديد موقفهم من هذه الثورة التي تجري على الأرض التي يعيشون عليها، وأكثر من ذلك، ماذا تمثل الجزائر بالنسبة لهؤلاء؟.

يقول مالك حداد: "أما بالنسبة لي فأظن أن كتّابا مثل Roublès Odisio Jule Roy Pelgri وفروا على أنفسهم هذا التمزّق وهذا الغموض، وأخيرا هذه الوحدة في وضعها الخطير، بالتحاقهم بالجزائر في معركتها كأبناء وطن واحد"⁵ لكن هذا الاختيار "ليس

¹ En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

² Ibid.

³ Ibid.

⁴ Ibid.

⁵ Ibid.

بالشيء الهين وليس لنا أن نحكم عليهم، فالمأساة الكورنيلية¹ أسهل فصلا في قراءة مشروحة منها في واقع الحياة"²

واعتبر Pelgri أنّ المواطنة الوحيدة في جمهورية الحروف الجميلة، هي الموهبة والجمال، والجنسية ليست جواز سفر. غير أنّ الجمهورية الواقعية في نظر حداد (غير التي تحدث عنها Pelgri) تقوم على بنية معينة، تختلف كثيرا عن جمهورية الحروف الخيالية، أين يتحرّر الكاتب من كل التزاماته، ويُرسل بمخيلته إلى عوالم لا تعترف بالحدود.

كان الواقع الجزائري(الاستعمار والحرب) مؤلما بما لا يسمح بالوقوف على الحياد، "أين كان الانتماء إلى مجموعة هو خيار قطعي بالنسبة للكاتب. فالجزيرة تنشأ أساسا من تعلق، وتثبت وتراقب في الأفعال التي تقوم على نقض ومحاربة الاستعمار"³.

كان لكتاب آخرين فكرة معينة عن الجزائر، "جزائر الساحل التي تكون أكثر سياحية وغرابة من كونها إنسانية"⁴، فكان إنتاجهم يمثل "أدب الساحل والرمال الحارة، ومحبي جمال البطاقات البريدية، بلد لقاءات تحت ديكور بسماء زرقاء وبحر أكثر زرقة، وهذا النسيم يعطر شاي النعناع تذوقوا وأخبروني! غروب الشمس يُكدر ضبط الكتابة في امتحانات الإملاء في المدرسة الابتدائية. حصان عربي وفارس لبلدية مختلطة، جزائر هاور للطوايع البريدية لا تتعرف على نفسها في صورة السياحة الاستعمارية"⁵.

ومن بين هؤلاء الكتاب ذكر مالك حداد Camus ووضّح من خلاله موقفه منهم: " لا أشعر بأي تسامح حيال Camus، كان يعلم جيّدا بأن حربنا كانت حربا عادلة وأن المعركة ضد الاستعمار أصبحت مساهمة فعّالة في الأخلاقيات العالمية. بتفضيله أمه على العدالة —ولكن من ذا الذي لا يحب أمه- بوضعه المظليين وفدائيينا على قدم

الخيار "الكورنيلي" هو ورطة أو مأزق وهو خيار في غاية الصعوبة، يضع العقل أو الشرف في مواجهة مع العاطفة أين يكون الجميع خاسرا رغم انتصاره. وكلمة "كورنيلي" هي صفة مشتقة من اسم "بيار كورنيلي" الذي يفرض على أبطاله هذا الاختيار الصعب بين ما تدفع إليه العواطف وما يفرضه العقل والشر.

² En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

³ Ibid.

⁴ Ibid.

⁵ En Nasr, Le seul respect que je dois à Camus.

المساواة، بَعْدَ رميه بثقل شهرته وبجائزة نوبل في المعركة، لم يتوقف عن كونه كاتباً وكاتباً كبيراً جداً، توقف في إحساسي عن حقه في المطالبة بالجزائر"¹، ويضيف "في حقيقة الأمر لا نستطيع أن نتكلم عن صمت Camus وغموضه أو بالأحرى لا يُخفي التباسه، ضميره السيء وحجابه المزعج... مُنحت له الفرصة للموت في ساحة الشرف والخروج من العبثية، ولا حتى رصاصة طائشة أو عناء ضائع... بما أن Camus ليس جزائرياً فهو غير خائن للجزائر... ليس من حقنا أبداً أن نحكم عليه، بما أنه لم يكن لنا أو معنا أو من عندنا... فليس جزائرياً من أحب لأن هذه الجنسية التي تمنحنا الحالة المدنية للتاريخ والتي تولد من الحديد، هي أكثر من جنسية، إنها عنوان"² فأولئك يقول مالك حداد قد فاجأهم التاريخ وجرّدهم من عاداتهم.

10.3 علاقة الأدب بالصحافة:

تساهم الصحافة في تكوين الرأي العام وتنقيف الفرد على جميع الأصعدة، وأصبحت الصحيفة تنافس الكتاب في أداء هذه الوظيفة بحكم أنها أرخص ثمنًا وأكثر انتشارًا وأسهل قراءة من الكتاب فيقول "بول فاليري" حول القراءة والكتب: "إن الإنسانية في جملتها لا تقرأ اليوم شيئاً غير الصحف... إن تحليل صحيفة وغربلتها هما رياضة على أكبر جانب من الفائدة، وربما على أعظم جانب من القيمة أيضاً. إن الغذاء العقلي للجنس البشري يُعدُّ الآن إعداداً في مطابخ الصحف... لأن الأغلبية الساحقة ممن يعرفون القراءة- لا يملكون من الوقت لهذه القراءة أكثر من ساعة في اليوم"³

ويعتبر مالك حداد "الشعر أو النثر -كان واقعياً أم لم يكن- شهادة، لأنه يقدم تقريراً ويفسّر ويحكي بطريقة ما، ويرى بذلك أن الصحافة تُصاهر الأدب نتيجة لطبيعتها"⁴ ومن جهة أخرى "ينتظر الكتابُ مجيء القارئ إليه، بينما تذهب الصحيفة نحو هذا القارئ كل يوم أو كل أسبوع مباشرة وبمكر في آن واحد... وتفرض اتصالاً مباشراً به،

¹Voir En Nasr, Grandeur et misère de la littérature algérienne.

.... الحذف للطالبة.

² En Nasr, Le seul respect que je dois à Camus

³ د شرف عبد العزيز، اللغة الإعلامية، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.

⁴Voir En Nasr, Littérature et journalisme.

قارئ مجهول ومستعجل في أغلب الأحيان، ويريد أن يكون مُطلّعا بشكل سريع وشامل، بينما يبحث الروائي وأكثر منه الشّاعر عن هدف أبعد وأقلّ وظيفية.¹

لم تجد الجزائر الطريق معبدة أمامها بعد خروجها من نفق الاستعمار ، بل كان على أبنائها إيجاد معالم يسرون وفقها، وحلول لم تكن سهلة بحال من الأحوال " لأن الاستقلال لم يضع حدا لمشاكلنا، بل مكّنا من دراستها بكل سيادة وتبني حلول لها، فلا توجد معجزات في المجال الثقافي أو غيره"².

وانعكست الأوضاع المزرية على الحياة الأدبية أيضا فلم يبق إلا "القليل من الكتّاب والروائيين والشعراء من كرّسوا أنفسهم لرواياتهم وأشعارهم فقط، لأن صعوبات ومقتضيات الحياة المادية لم تسمح لهم بذلك"³، وبات التفكير في سلبيات وإيجابيات مهنة ثانية أمر ضروري بالنسبة لهؤلاء.

هذه المهنة الثانية يقول الكاتب- "ليست تدبيرا مؤقتا أو السبيل الوحيد المتبقي أو عجلة إنقاذ مريحة نوعا ما، فمعظم الكتّاب الذين أعرفهم يمارسونها بنفس الحماس الذي يخصّون به مؤلفاتهم... وبذلك أعطى الكتّاب للصحافة أحرفها السّامية في الكثير من الأحيان، وتوّقع الأسماء الكبيرة مقالات في الصحافة أكثر فأكثر"⁴

لقد أصبح الأديب يتجه في أحيان كثيرة و "أكثر من قبل إلى الصحافة والتّعليم لكي يجد حلا لمشاكله، لأن هذين الشّكلين من النشاط ملائمين لممارسة مهنة الكاتب... أما فيما يخص الصحافة، فمعرفة الكتابة واكتساب قلم سيّال يمنح رجل الأدب منفذا طبيعيا ومناسبا...ولا يحتاج الكاتب فقط إلى تأمين معيشته وتلبية حاجياته المادية، بل يحتاج

¹Ibid.

.... الحذف للطالبة.

²Grandeur et misère de la littérature algérienne.

³Op cit.

⁴ En Nasr, Littérature et journalisme.

أيضا إلى التواصل مع نظرائه، والجريدة تمنحه هذه الإمكانية، وتمنحه جمهورا لا يستطيع مغالطته بكتبه"¹.

أما فيما يخص مالك حدّاد "رغم أن الكتابة أخذت عنده شكلا آخر فإن فكر الكاتب بقي نفسه ونلمس لديه الموقف ذاته والصراحة المُنبّلة ذاتها التي تعود إلى الشقاء في خطر"². وكتب في دوريات مختلفة قبل الاستقلال وبعده داخل البلاد وخارجها³

غير أن امتهان الصحافة، لا يبقى بدون خطورة على الحياة الأدبية للكاتب "ففي اللحظة الدقيقة للإبداع —وهذه اللحظة قد تدوم شهورا وشهورا- من البديهي أن لا يرغب الكاتب في التشنّت أو الالتفات إلى نشاطات موازية تشغله عن مؤلفاته، فليس هناك ما هو أكثر هشاشة من مخطوط يتلكأ، لأن الأفكار تُأخذ في طيرانها مثلما نستقل قطارا سائرا، ومجرد التأخير أو التأجيل قد يكون وخيما، ولأن المواعيد التي نُخلفها والفرص

¹ Ibid.

² Enjeu et finalité du discours argumentatif.

³ Alafak نوفمبر 1961 جنيف.

Al Djazaïri مارس 1965 باريس.

Alger-ce coir ماي 1964 الجزائر.

Algérie Actualité أكتوبر 1965 \ أبريل\ جوان 1968 الجزائر.

Atlas-Algérie أبريل 1963.

Espoir et paroles poèmes algériens نو 1963 باريس.

Confluent جانفي\ مارس 1965 مكناس\ باريس.

Dialogue ديسمبر 1963.

EL Djeich جوان 1968.

*D'après l'interrogation de la banque des données Limag 19 Février 2000,(reference d'articles ou de textes courts).

التي تُضَيِّعُهَا لَا نَسْتَعِيدُهَا أَبَدًا وَذَلِكَ مُؤَسَفٌ"¹ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَصْبَحُ " الْإِتِّصَالُ الْمُبَاشَرُ وَالْمُتَكَرِّرُ لِلصَّحْفِيِّ مَعَ الْأَحْدَاثِ الْيَوْمِيَّةِ وَمَعَ قَارِئِهِ بِمُثَابَةِ الْبُعْدِ الَّذِي يُغْنِي الْكَاتِبَ الْمُعَرَّضَ دَائِمًا إِلَى التَّأَمُّلِ الْمُنْعَزَلِ. لَكِنْ خَطَرًا آخَرَ يَتَرَبَّصُ بِهِ، وَيَتِمَثَّلُ فِي هَذِهِ الرِّطَانَةِ الَّتِي قَدْ يَتَعَوَّدُ عَلَيْهَا، لِتَسْهِيلِ التَّعْبِيرِ الَّذِي يَخْتَصِرُ فِكْرَهُ...فَمِنْ التَّحْرِيرِ إِلَى طَاوِلَةِ التَّرْكِيبِ وَالْمَطْبَعَةِ الدَّوَّارَةِ، تَقَوَّلَبَ تَفْكِيرُ الصَّحْفِيِّ وَذَابَ مَعَ الرِّصَالِصِ الَّذِي يَعْطِيهِ أَبْدِيَّتُهُ الْيَوْمِيَّةُ"². وَبِمَا أَنَّ اللُّغَةَ الصَّحْفِيَّةَ هِيَ وَسْطٌ بَيْنَ لُغَةِ الْأَدَبِ وَ لُغَةِ الْعِلْمِ، وَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَاتِيَةِ الْكَاتِبِ الْأَدَبِيِّ، وَشَيْءٌ مِنْ مَوْضُوعِيَةِ الْكَاتِبِ الْعِلْمِيِّ، وَهِيَ لُغَةُ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ وَالْمَوَاطِنِ الْعَادِيِّ، قَدْ يَتَسَرَّبُ الضَّعْفُ إِلَى أَسْلُوبِ الْأَدِيبِ وَيَصَابُ فَتَهُ بِالضُّمُورِ "لَأَنَّهُ يَتَكَيَّفُ بِشَكْلِ سَيِّئٍ جَدًّا وَ يَمْتَعِضُ وَتَصْبِيحُ طَاوِلَةِ التَّرْكِيبِ شَاهِدَةً جَنَائِزِيَّةً لِمَشْوَارِهِ الْفَنِيِّ"³.

¹En Nasr, Littérature et journalisme.

² En Nasr, Littérature et journalisme.

³Ibid.

الفصل الثالث

الثقافة- السياحة- الوسائل السمعية البصرية

1. الثقافة

شغل موضوع الثقافة حيزا كبيرا من المدونة، لأن الكاتب أولاها أهمية حيوية ارتبطت، بشكل أو بآخر بكل المواضيع الواردة في هذه الدراسة، فدخل مالك حداد في معركة من أجلها وجعلها مهمة كالماء والهواء، و بسبب فقدانها في المجتمعات مجاعة الفكر، التي لا تقل أهمية عن مجاعة المعدة. فخصّصنا المقالات التالية لمناقشة هذا الموضوع:

- L'Art dans la cité, 8 Mars 1966.
- Autant qu'un champ de blé, 11 Mars 1966.
- Produire, 11 Février 1967.
- à propos de la dernière semaine culturelle : Un grand absent : Ben Badis, 29 Avril 1967.
- Culture et pages culturelles, 3 Juin 1967.
- La culture affaire du monde, 2 Décembre 1967.
- Culture et niveau culturel, 23 Décembre 1967.
- Culture et mieux être, 13 Janvier 1968.
- Culture normale et décentralisation, 3 Février 1968.
- Le pays profond, 17 février 1968.
- Le retour des cigognes, 24 Février 1968.
- La culture problème national, 16 Mars 1968.

1.1 مفهوم الثقافة:

قد يكون للثقافة مفاهيم متعدّدة بتعدد الإيديولوجيات والاتجاهات، ولكنها عند "مالك حداد" بسيطة وعميقة في آن واحد وهي مرادفة للإنسان بكل أبعاده، "فهي شخصية أصلية، روحانية خاصة، قيمٌ مُحدّدة، لغة، طريقة في الإحساس والتفكير، كل ما يتردّد في نبرة عاطفية لشعب ما، كل ما يخصّه، كل ما يحسّسه أو يؤّويه ويأتي من أعماق روحه وفطرته، كل هذا يسمى ثقافة"¹. ويتأسّف الكاتب لانحراف معنى الثقافة وخروجها عن مفهومها الإنساني من أجل حسابات ضيقة، "فضخّمت كلمة ثقافة بتهكّم أو تصنّع في اللغة، وكُرّست لكل العبارات والتعريفات. حبيسة المعاجم، أصبحت كيانا وتجريدا ومفهوما فارغا، وفكرة مجردة من كل حقيقة إنسانية فأصبحت بطريقة ما ميتافيزيقا، والميتافيزيقا والتّجريد هما دوما ملاذ للبهلوانيين"².

جعلوا للثقافة قوالب كي تُصب فيها المفاهيم والأعمال، مع أنّ "الفرد بخصوصيّاته وطريقته يكون رجل أو امرأة ثقافة...الحرفي في دكاكين طرقاتنا عندما يحفر فوق النحاس أو الجلد الرسومات والأشكال القادمة من الماضي فهو رجل ثقافة، الصانع والخزفي هما رجلا ثقافة، البناؤون- هؤلاء المعماريين المغمورين الذين شيّدوا مدننا في الصحراء، والذين جعلوا Corbusier يحلم- هم رجال ثقافة. الأم التي تحكي القصة التي كانت قد روتها لها أمها، ومثل شاعر القرية المتجول، الذي ير تجل على ربابته - تعيسة الحظ- أشعارا رتيبة تجعل الريح تغار. مثل الروائي أمام أوراقه، والرسّام أمام لوحته والباحث أمام وثائقه"³، فهؤلاء على اختلاف مشاربهم ومهامهم هم رجال ثقافة.

وجعل الكاتب من الثقافة حقا للجميع لأنّها ضرورة مثل الخبز والعمل والصّحة، ولأنّ الحياة بدونها غير كاملة ومحرومة من معطياتها وأبعادها.

كان هذا المفهوم يتردد في كل مقالاته دون ملل أو إحساس بالتّكرار فيقول "بالحديث عن الثقافة نقع حتما في مشكل التّكرار. غير مهم، فالحياة نفسها تتكرر وما الثقافة إلا

¹ En Nasr (l'art dans la cité) 8 Mars 1966 n°253 p10

² Ibid.

³ Ibid.

الحياة التي تبدأ وتعاود البدء دائما، تنتقل بين الأجيال وتغتني بمساهمة كل جيل، وهي أفضل ممثل للإنسان ومجتمعه، إنها التّكامل في بعض معانيه"¹. وبعد كل ذلك يُجمل الكاتب القول في أن كلمة ثقافة تكفي بذاتها ولا تحتاج إلى نعت يؤهلها.

2.1 تأخر التعليم والحياة الثقافية:

تستقل الجزائر وتخرج من نفق مظلم، ظلت تمشي فيه مائة وثلاثون عاما، قاومت خلالها استعمارا من نوع خاص، عمل جاهدا على محو شخصيتها "فسجل أول نوفمبر 1954 إرادة شعب في استعادة شخصيته الحقيقية، وقِيمه المسحوقة، لغته المَكروبة، وروحانيته الخاصة وكيف يكون وبكل بساطة: أناه الوطني والتّاريخي الذي ظل الاستعمار يخنقه بمنهجية في انتظار إزالته"²

جعل الاستعمار الجزائر تابعة بمواطنين من الدرجة الثانية " فكان التّعليم متاحا وموجّها لأبناء المعمّرين، وكانت المدارس القرآنية (medersas) مغلقة، وحُولت معظم المساجد إلى كنائس"³، ضف إلى ذلك "تعليم الأهالي الذي كان يتم بشكل بطيء وتَحْفُظُ مُعرّقل قصد تكوين نخبة من الدرجة الثانية، أو نخبة مستعارة تكون مقطوعة عن البقية. ويصبح المثقّف الجزائري –الذي يحس بغربة وسط ذويه- مقتلعا من جذوره، متهكما على تقاليده..."⁴. ورأى المستعمر نفسه مسلوب التراث الثقافي مثلما سلبت أراضيه، "فصادروا ممتلكاته المادية والثقافية فلم يبق إلا قتل روحه- بما أنّ الفكر لا يموت- وفعل أي شيء لجعلها خافتة لإطفائها"⁵.

وصل الشعب الجزائري إلى الاستقلال بعد كل هذه المآسي محمّلا بمشاكل تستدعي اهتمام كل الشرائح دون استثناء، وما "الثقافة إلا انعكاس للمستوى العام للبلاد التي خرجت لتوّها من الاستعمار، وترتبط هذه الثقافة ببلاد يندمج بالكاد مع شخصيته،

¹ En Nasr, l'art dans la cité

² Ibid.

³ Hariza Hadda, (Enjeux et finalités du discours argumentatif dans l'œuvre journalistique de Malek Haddad), mémoire présenté en vue de l'obtention du diplôme de magister, constantine, 2008 /2009, p8.

⁴ Ibid., D'après Ahmed Taleb Ibrahim, De la décolonisation à la révolte culturelle, édit, sned, Alger 1967, p13

⁵ . Malek Haddad, Les zéros tournent en rond(essai), François Maspero, Paris 1961, p14

ويسترجع روحه رويدا رويدا، وهي انعكاس أيضا للحقيقة الجزائرية وتُفسّر في هذا السياق فقط"¹

3.1 دور المثقف غداة الاستقلال:

كان على الدولة الفتية -الهَرمة بمشاكلها- أن تركز على دعائم صلبة للنهوض من كبوتها والسير نحو المستقبل "فكان رجل الثقافة في الصفوف الأولى منذ فجر الاستقلال، للمشاركة في بناء بلاده وتثبيت ثقافة تتواجد في علاقة مع رَجْمِه: الشعب الجزائري"² وكان الطموح كبيرا لدى هؤلاء في إعادة الأمل بعد استعادة الحرية "سوف تصمت البنادق وتحوّل الكلمات المستنفرة إلى نجوى عنادل الحب في إجازة إيلية، سوف تصمت البنادق ولكن الأقلام لن تصمت"³

انتظرت الجزائر مثقفا جديرا باسمه لا يقف غير مبالٍ أو يلجأ إلى عُلْيَة التجريد المريحة في برجه العاجي -يقول الكاتب-. "هذه مواقف غير معقولة وممقوتة و تصبح في بلاده تجذيف حقيقي، لأنّ مصير المثقف- شاء أم أبى- يرتبط بمصير الأمة كاملة، إنه مواطن محظوظ، وهذه الخطوة تربطه برباط روحي مع مجتمعه"⁴، وذلك دون أن يكون للخلاف مجال في عرقلة سير العجلة الثقافية "فرغم التنوّع الإيديولوجي لمثقفينا في الماضي، إلا أنهم تغنّوا كلهم بوحدة وحب الوطن، وتحملوا واجبهم حتى استقلال الوطن على أمل تحرير العقول في آجال قصيرة"⁵. ومثلت "كتابات مالك حداد تيّارا فكريا تغذى من مبادئ الثورات الكبرى السائدة آنذاك، فمنحنا بذلك مشروع مجتمع يفرض مساهمة كل الطبقات الاجتماعية، والتي تكون فيها المهمة الرئيسية للمثقفين الذين عليهم تحقيق هذه المؤسسة"⁶.

¹ En Nasr (culture et niveau culturel), 23 Décembre 1967, n°806, p7.

²

³ Malek Haddad, Les zéros tournent en rond, p10

⁴ Op.cit.

⁵ Enjeux et finalité du discours argumentatif...p3.

⁶ Malek Haddad, Les zéros tournent en rond, p9.

وكثيرا ما عوّلت الشعوب على أبنائها في إصابة الأهداف المسطرة، دون إغفال دور الأجيال السابقة التي ساهمت بتجاربها، "فالثقافة الجزائرية تنتظر عصارة جديدة لا تنبع إلا من الشبيبة نفسها. فالتجارب تختلف ولكنها تتكامل. ومن الخطأ أن يدّعي جيل سبق على جيل يلحقه"¹، وفي ذات السياق يضيف الكاتب "بأنّ المشاكل الثقافية اليوم للشباب في العشرين في الجزائر المستقلة، تختلف عن مشاكلنا في عشرينياتنا في جزائر في خطر الموت الثقافي والروحي، فعلى شباب اليوم التصديّ لحل مشاكلهم الثقافية كما حاولنا حل بعضها في الماضي"².

لكنّ العمل والجهد الكبيران اللذان دعا إليهما الكاتب، لم يكونا أبدا عملا عشوائيا أو مُندفعًا، دون قواعد يقوم عليها وقوانين يسير وفقها "فلم يمنح التاريخ قط موهبة لأحد، لأن الموهبة ليست صدفة أبدا، وتثبيت شخصية ثقافية يقتضي رحلة طويلة وصبرا طويلا، ولا ننجح في مهنة الثقافة مثلما ننجح في غيرها، فالفن حق ولكنّ الموهبة ليست حق"³.

4.1 مشكلة الأمية:

تبنى مالك حداد النضال الثقافي وأخذ على عاتقه بعد الاستقلال مباشرة، لكن الأداة التي يعمل بها كانت معطّلة، فالأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري كان يعاني من الأمية التي نعتها الكاتب بكل الصفات الذميمة، وأيقن أن دفع الحياة الثقافية نحو الأمام لا يتأتّى إلا بالقضاء على هذه الآفة، "ولن يكون هناك معنى للحياة الثقافية، ولن يكون لها مستقبلا خصبًا محمّلا بإمكانيات إبداعية، إلا إذا كان الجزائريون والجزائريات في المدن والقرى على دراية بالكتابة والقراءة، عندها فقط نستطيع حقيقة أن نتكلّم عن الثقافة، وبذلك فقط يكون الذكاء الجزائري في مستوى العطاء والإنتاج والإبداع وإنجاب أعمال تُحتضن داخلها"⁴.

¹Voir En Nasr,(autant qu'un champ de blé), 11Mars1966, n°256, p10.

² Ibid.

³ Ibid.

⁴ En Nasr culture et niveau culturel.

الأمية إعاقة ظل الشعب الجزائري يعاني منها رغم تناقص نسبته في الأعوام اللاحقة للاستقلال، وهي مأساة مست الكاتب في أعماقه وعبر عنها بقوله: "لا يُبعدني البحر الأبيض عن وطني مثلما تُبعدني اللغة الفرنسية، وحتى إن كتبت باللغة العربية سوف يقف مع ذلك حاجز بيني وبين قُرّائي: الأمية"¹. هذه الأمية التي خلقت حاجزا بين الكاتب الجزائري وقُرّائه، جعلت مالك حداد يتساءل عن جدوى الكتابة أصلا، لأنّ الجزائري الذي يعاني من الأمية غير قادر على القراءة باللغتين المكتوبتين: "العربية والفرنسية. فكان اختيار الصمت مُبررا لدى الكاتب نفسه لأنّه لن يستطيع أبدا التعبير عن فكره أو مقاربة فكر جمهوره الحقيقي"².

إذا تساءلنا عن حقيقة انعدام القراءة قبل الاستقلال نجد الإجابة عند مالك حداد "لدينا قراء والكثير منهم أحيانا، ولا يمنعني ذلك من القول بأننا يتامى من قراء حقيقيين. لأن هؤلاء الذين نكتب من أجلهم لا يقرأون لنا وربما لن يقرأوا لنا أبدا، لأن نسبة 95 % منهم يجهلون حتى وجودنا... هؤلاء القراء الذين يعيشون ولا يكتبون التاريخ -لا نستطيع أن نقوم بشيئين في آن واحد- هؤلاء القراء الذين لا يقرأون لنا، لا يستطيعون أن يقرأوا لنا رغم أنهم سبب وجودنا، سبب كتابتنا."³

يتبيّن لنا من خلال هذا الطرح نوعية القارئ-الهدف الذي كان سبب وجود العديد من كتابنا بالعربية أو الفرنسية في الفترة الاستعمارية خاصة. وفي كل مرة يقول حداد- "أحلم بهذا القارئ المثالي، وبهذا الفلاح المنشغل اليوم بأعمال أخرى، هذا الفلاح الذي لا يقرأ لي والذي من أجله أكتب، فلاح الحب والغضب والمغلاة، والذي ضربه الاستعمار بقساوة شديدة: الأمية وبهذا تكون الأمية نتيجة للاستعمار وأحد أهدافه"⁴

ويضيف الكاتب بتهكم لطيف وتحليل عميق "لن يستطيع بنو عمومتي في الجبال المسلوخة، فك شفرة هَرَمِك "نجمة" يا كاتب ياسين. عجائز دار صبيطار لن يتعرّفن

¹ Voir Les zéros tournent en rond, p9.

² Voir Enjeux et finalité du discours argumentatif...p82.

³ Op.cit., p12.

⁴ Ibid, p13, p43.

على أنفسهم في "الدار الكبيرة" عزيزي ناسج اليوميات اللّعيّنة يا محمد ديب... أحبيكم يا
يتامى القراء"¹

لم تكن هذه العراقيل تخصّ الفرنسية في الجزائر دون العربية، ولكن المأساة كانت
عامة، وفي حديث عن جمع أعمال عبد الحميد بن باديس يقول الكاتب "... لا أحد يمتلك
المجموعة الكاملة [للبنائير] أو [الشهاب] حتى وإن امتلكنا المجموعة هل بإمكاننا
قراءتها؟ وذلك يعيدنا إلى مأساة قديمة هي الأمية التي نعرف أسبابها والتي تحتدم لدى
المعربيين والمفرنسين على حد سواء"² ، فمهما كانت اللّغة التي كتب بها الكتّاب
والشعراء، بقي القارئ-الهدف معزولا عن الحياة الثقافية، "ومن أجل هذه الأسباب
تكوّن هوةٌ سحيقة بين المثقّف وباقي أفراد المجتمع، والتي لن تزول إلا بتضافر
الجهود"³.

5.1 الحق في الثقافة:

جعل الكاتب من الثقافة ضرورة حيوية لا يستطيع المرء العيش بدونها، "لأنها تتجدّد
في انشغالات شعب وآماله، فيفرزها ويقوم بنقلها إلى شعب آخر، يستقبلها ثم يعطيها،
وفي هذا التبادل المتواصل، تنشأ الثقافة وتعاود النشأة إلى الأبد... ويؤكد أيضا على
النشاط، فالثقافة لا يجب أن تكون حبيسة المكتبات والمتاحف، لأنها تستعيد -بطبيعتها
الحيوية- نشاطها من إشعاعها، فهي اتصال بين الماضي والحاضر وتأكيد للديمومة"⁴.

وهذا النشاط والديناميكية التي وُسمت بها الثقافة يكون بين أفراد المجتمع الواحد، فلا
تكون الأمور الثقافية امتيازاً أو حكراً على مجموعة دون غيرها "فالثقافة ليست ترفاً
ولا رضى لمتذوقي الجمال، إنها تُلوّن الحياة ومعيشة كل يوم، وترفع مستوى الحياة
مثملاً يرفع الدخل الجيد من القدرة الشرائية"⁵.

¹Ibid, p9.

² En Nasr, (un grand absent Ben Badis), 29AVRIL1967, n°601, p7.

³Voir En Nasr culture et mieux être

⁴Voir En Nasr la culture problème national.

⁵Op.cit.

إذا كان البلد يعاني من مخلفات الاستعمار فلا يجب أن تكون الثقافة امتيازاً (وكل امتياز إهانة في بلد متخلف) -يقول الكاتب- وتصبح قضية الجميع، "لأن الثقافة بطبيعتها ليست حظوة، بل حاجة مادية للإنسان، وهي ليست بأهمية ثانوية، إنها حق وواجب في آن واحد"¹. من جهة أخرى "لا يجب أن تكون امتيازاً للمدن الكبرى والحضائر على حساب القرى أو الصحراء الكبرى، لأنها غالباً ما تكون مدنية أو حضرية، مع أنّ دورها مثل الكهرباء والنور، تُشعّ على القرى كما المدن. فالقرى هي الخزان الحقيقي للشعر والأساطير والأغاني"²، ويبقى مفهوم الرفاهية والامتياز "محصوراً لدى فئة معينة، ولكن سرعان ما يذوب هذا المفهوم في المدارس التي تجلب العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع، لأن الثقافة لا تتأتى إلا من المدرسة ومن الأنانية إنكار ذلك"³.

مهما يكن من أمر "لم تعد الثقافة كسابق عهدها خاصية لنخبة محظية، وهذه الإرادة في وضعها في متناول العامة أو متناول الجميع نقلة جديدة و متميّزة، إنها ثورة حقيقية، فالثقافة التي لا تُشعّ هي ثقافة في طريقها إلى الزوال"⁴، وفي حديثه عن الوسائل المساعدة يقول الكاتب بأنّ الثقافة تستلزم أجهزة كاملة ومناسبة، حتى لا تصبح امتيازاً لفئة معينة، فلا تستطيع بذلك الاستفادة من النفس الحيّ والحيوي للشرائح الواسعة.

6.1 لا مركزية الثقافة:

عندما ندعو إلى إخراج الإدارات والمؤسسات العمومية الهامة خارج المدينة، تكون تلك دعوة لتخفيف الضّغط عن المدن الكبرى، وفي نفس الوقت تمكين المدن الصغيرة والدّاخلية من الاستفادة من خدمات المؤسسات المعنية "فكلمة لامركزية وعدم تركيز هي كلمات في حديث الساعة، ليس في الجزائر فقط وليس في القطاع الاقتصادي والسياسي فقط. فالحياة الثقافية حيّنتُهما بدورها، وأصبح من الضروري التفكير في التّوازن بين الريف والمدينة"⁵، ولا تقوم الثقافة إلا بهاذين القطبين، "إذ لا تتعارض

¹ En Nasr, culture et niveau culturel

² En Nasr, le pays profond, 17Février1968, n°858, p7.

³ En Nasr, culture et mieux être.

⁴ En Nasr, la culture problème national.

⁵, En Nasr, culture normale et décentralisation, 3Février1968, n°841, p7.

المدينة والقرية، بل تتكاملان وتكون إحداهما استمرارا للأخرى، ومن ثمة تنتقي كلمة ريف من معناها التحقيري، وكلمة عاصمة من مركزتها الذاتية¹. وسبب هذه الدّهنيات يرجع إلى وجود أحكام منتشرة بكثرة —وقد ورثناها عن الاستعمار يقول الكاتب— وخاصة عند المثقفين، لأن النجاح يمر حتما من العاصمة، فتنشأ من ذلك أرضية قيم مشوهة تزيّف حقيقة الجغرافيا الثقافية للبلاد.

إنّ فكرة إنشاء الأسابيع الثقافية تشبه مثيلاتها الاقتصادية أو السياحية فيلتقي فيها جمهور المدن الداخلية بمثقفيه "فيصبح النّشر والعرض فرصة للالتقاء والتحدث والتّوضيح، وبذلك تتقلّص المسافة بين الفنان وجمهوره ويصبح الفعل الثقافي موعدا"² يلتقي فيه العام والخاص.

كان هاجس القائمين على أمور الثقافة إخراج الريف من عزلته، ذلك "لأنّ البلاد الدّاخلية هي البلاد العميقة والحقيقية في آن واحد، وفيها يكمن جوهر العمل الذي نقدّمه ونهديه للجمهور"³.

"يكفي أن يتجوّل أحدا في مدنا الداخلية حتى يكتشف خامات من الأفكار تنتظر الصّقل، فالبلاد كبيرة جغرافيا وإنسانيا لتقدّم —لمن يعرف كيف ينصت إليها ويفهمها— منابع لا تنضب من الإلهام، أدبية وتصويرية وموسيقية وسينماتوغرافية..."⁴، ومثلما "تقطّنت البلدان عالية التطوّر في أمريكا وأوروبا، إلى ضرورة اللامركزية الثقافية في المجال الجامعي والفني والمسرحي والسّينمائي والعلمي..."⁵، كان لزاما على الدّولة أن تفكّر في ذلك كحل مستعجل، لأن تثقيف بلد ما يساهم مباشرة في تشييده، ولأنّ التطوّر الثقافي يقف على قدم المساواة مع التطوّر الزراعي والصّناعي"⁶.

¹.. En Nasr, culture normale et décentralisation, 3Février1968, n°841, p7.

² En Nasr le pays profond.

³ En Nasr le retour des cigognes.

⁴ Ibid.

⁵ En Nasr, culture normale et décentralisation.

⁶ En Nasr, Le retour des cigognes.

7.1 عالمية الثقافة:

كانت لمالك حداد نظرة استشرافية حول حوار الثقافات المختلفة، التي لا تعترف بالحدود والفوارق، مع حفاظها على خصوصياتها، لأنها في الأخير تخص الإنسان بكل أبعاده "فيجب أن ننتبه لما يدور حولنا، لأنه لا توجد سوى ثقافة واحدة هي الثقافة العالمية، وما الثقافة الوطنية إلا جزء منها"¹ إذ "لم تعد الثقافة تلك العلاقة الضيقة بين المبدع وعمله... فهو يقدم عمله لإثراء التراث الوطني ومن ثمة العالمي"². ومثلما كان يدعو الكاتب إلى الانفتاح والتعاون الثقافي، حذر من مغبة الاغتراب الثقافي، الذي يفقد الفرد هويته التي تصنع تميزه، "فإذا كان من الخطر والخطير جدا أن نعيش مغلقين على أنفسنا في برودة ثقافية، فإن من الخطورة أيضا أن نعمل من أجل ثقافة وحيدة أجنبية... فعلى هؤلاء الشبان والشابات أن يجدوا في بلادهم مرجعيات لما يبحثون عنه في الخارج، ويجب عليهم الإفلات من الاغتراب...."³. فكان "الاغتراب دائما صوتا داخليا في شخصية مالك حداد الذي ظل يبحث عن هوية ضائعة حتى في رواياته"⁴. وهذا لا يعني بحال من الأحوال "فقدان الثقافة لأصالتها ورسالتها الموروثة، ولكنها تحتمي من ركود قد يكون قاتلا... وباتصالها بالثقافات الأخرى تتمكن من المحافظة جيدا على أصالتها وإمكانيتها في التجديد"⁵.

لقد أكد الكاتب في الكثير من مقالاته على ضرورة التواصل الثقافي، "لأن الثقافة في حضورها أو غيابها تخص مجتمعا في كليته، وتعطي للناس هذا التلون الخاص وهذا الأسلوب المميز الذي يفرقهم، وكل هذه التنوعات تذوب في الحضارة العالمية"⁶، فالانغلاق الثقافي ليس حماية للخصوصيات، ولا يكون-حسب رأي الكاتب- وسيلة لحمايتها من الذوبان.

¹ En Nasr, culture et pages culturelles.

² En Nasr, L'art dans la cité.

³ En Nasr, produire

⁴ Malek haddad, L'élève et la leçon / "أراد التاريخ أن أكون منفرج الساقين، على زمين، على حضارتين..."

⁵ En Nasr, La culture affaire du monde.

تغتني وتتبع بنفسها وتضاعف ديناميكيتها وحيويتها، الثقافة، تنهوى وتأخذ الأكسجين باتصالها بإنجازات أخرى

⁶ En Nasr, culture et niveau culturel.

ويضيف بأننا "لا نستطيع إجراء مقارنة بين ثقافتين، لأنّ الثقافة لا تُجزأ، وأصالتها الوطنية تُكَيّف عالميتها، وهي ليست مفارقة"¹، والمقارنة إجحاف في حق القيم الإنسانية التي تعترف بها كل الديانات، أو المأساة العالمية التي تمس الإنسان في الجهات الأربع من العالم "كالذي عانى من الجوع عرف كيف يتحدث عن الجوع، فمحمد ديب ليس كاتباً جزائرياً فحسب، بل هو كاتب عالمي و"الدار الكبيرة" تبقى إلى الأبد مأساة للجوع، هذا الجوع الذي أصبح اليوم هاجساً من دار صبيطار إلى أكواخ الهند"².

وتكون الثقافة عالمية أيضاً لأنك تتعرّف على مدن حتى قبل زيارتها لأنّ " من قرأ "سرفنتيز" أو "لوركا" أو "بلاسكو إبان" يعرف إسبانيا أحسن من السائح أو ممن يقضي عطلة هناك. ومن قرأ "دوستويفسكي" أو "بوشكين" أو "مايا كوفسكي" كأنه ذهب إلى روسيا، ومن قرأ "كاتب ياسين" أو رأى لوحة "لبوزيد" أو "خدة" أو "إسياخم" لا يجهل الجزائر بشكل كلي، رغم أن قدماء لم تطأها من قبل....ومن هنا لا تهم الخصوصيات وتذوب في الانشغالات العالمية للإنسان أثناء مسيرته الفنية.... والفن هو بداية الأخوة، ويبقى القاسم المشترك بين الناس"³.

¹ En Nasr, culture et niveau culturel

² En Nasr, culture et pages culturelles.

³ En Nasr, culture et niveau culturel .

2 السياحة:

كان على الجزائر بعد الاستقلال أن تنهض بمقوماتها وتستثمر كل طاقاتها المادية والبشرية في القطاعات المختلفة، لتصَحَّح المسار الخاطئ الذي وضعها فيه الاستعمار، وتنتفتح على العالم الذي لم يكن يعرف عنها الكثير. ومن بين هذه القطاعات السّياحة التي نجدها في بلدان أخرى قد حلّت محل الطاقة (بلدان فقيرة من حيث موارد الطاقة و غنية بفضل السّياحة المتطورة). فالجزائر تمتلك مؤهلات سياحية، من شساعة المساحة وتنوّع المناخ والطبيعة (الجبال، السهول، الصحراء، واجهة بحرية تمتد على طول الشمال)، تجعلها بلدا سياحيا بامتياز، لا يحتاج إلا لبرامج محكمة، ونوايا طيّبة من طرف المسؤولين وأبناء البلد.

"الآن وقد أصبحنا في بيتنا -يقول مالك حدّاد- مثلما نعثر على بيت احتل طويلا من طرف متطفّلين، من الآن فصاعدا يحق لنا زيارته وإعادة امتلاكه وجرده وحراسته، ونقيم في أرجائه جولة المالك، ونبعث فيه من عقلنا وروحنا ونعيد تأثيثه، ومنزلنا هذا لديه بالطبع نوافذ مفتوحة على العالم، واستقلاله لم يكن سببا في عزله، بل سمح له بامتلاك شخصيته"¹.

عن السّياحة ومفهومها ومشاكلها وآفاقها تحدّث الكاتب في مقالاته بالكثير من التّحليل، والتي حصرناها في المقالات التالية:

- MARHABA. 03 Sep 1965.
- Pour des vacances en Algérie 27 Mai 1967.
- Présence Algérienne 22 Juillet 1967.
- Tourisme et culture 09 Mars 1968.

¹ En Nasr, Pour des vacances en Algérie 27 Mai 1967(n°624).

1.2 سياحة لاكتشاف الذات:

بين المرض والشفاء توجد فترة انتقالية تسمى فترة النقاهة، يحتاجها المريض لاستعادة عافيته والدّخول في معترك الحياة من جديد، فما بالنا إذا طالت مدة المرض (130 سنة من الاحتلال) وانعدمت فترة النقاهة (السّركة في استدراك التّأخّر في كل القطاعات)، "هذا البلد الذي أتانا من زمن بعيد، ناج من كلّ فيضان تاريخي أراد أن يودي به، ويذهب إلى منتهى الرّمال ومنتهى الذروة، ويعود إلينا مثل الفكرة الثّابتة المبهرة"¹

كان هاجس الفرد الجزائري أثناء الاحتلال هو تأمين نفسه وعائلته حتّى قبل تأمين لقمة عيشه التي شكّلت بدورها مأساة إنسانية آنذاك. كان مطرودا من مدينته أو مطاردا من طرف المحتل، لم يعرف هذا الفرد استقرارا في جزائر "لا تدفع إلى السّفَر ولا متأهبة لسياحة سعيدة أو عطل مريحة، لم نكن في بيتنا بل كنا أمام عتبة بيتنا وفي شارع التاريخ"².

لم يكن الحديث عن الراحة أو الاستجمام ممكنا، لأن الاستعمار "قد فرض علينا شكلا من العيشية ومفارقات مأساوية مجردة من الإنسانية، وكان اللامعنى البليد والمثير للسخرية يفرض القانون. فلا يمكن تذوّق غروب شمس تحت ظل قبعة ليست لنا"³. أما بعد استرجاع الوطن أصبح للجزائري ألف سبب للتجوّل والاكتشاف، وبعد أن كان يسمع عن أماكن في أقاصي وطنه صار بإمكانه اليوم زيارتها والوقوف على خصوصيّاتها الثّقافية. وجعل الكاتب معرفة البلاد تسبق معرفة الذات، لأنّها شرط أصالة الفنان عامة والكاتب خاصة، وإذا لم نزر بلادنا- يضيف - عندما نتاح لنا الفرصة فهذا يعني حرماننا من مسرّات نتعنّت في البحث عنها في مكان آخر.

¹En Nasr, Pour des vacances en Algérie.

² Ibid.

³ Ibid.

ألهمت الجزائر الكثيرين "واهتز كتاب كبار لاكتشافها, Maupassant ,Daudet, Gide ،أعلنوا بأنهم حرفيا وأدبيا منبهرين باكتشاف جزائر التّضاد والمغالاة، وغنائية السّهول، والجرأة المُقشّعة لجبالنا، والخمول المُدوّخ للرّمال، ومخاطبة الذات الحميمية للبحر، وهذه الأزقة في المدن القديمة التي تشبه الحج.... كثنان يرسمها فضاء سريالي في أمواج المتوسط العاشق"¹، فكان من المتوقع ومن الطبيعي أن تتفجّر عطاءات الفنّانين والرسّامين والكتّاب والموسيقيين بالتقائها بنبع من الإلهام. تحدث الكاتب أيضا عن " Isabelle EBERHARDT التي أحببت الجزائر حبا بدون منازع ووجدت نفسها فيه بشكل كامل"².

وفي إطار التعريف بالجزائر للجزائريين نُظّم سفر دراسي إعلامي إلى تلمسان، ثمّنه مالك حداد وذكر ما لهذه المبادرات من أهمية، تعود بالفائدة على الجزائريين الذين يجهلون بلادهم، لأسباب قد تكون غير موضوعية أحيانا، "فالمسافات الطويلة لا تسهّل التنقل غالبا، ولكنّ هذه المسافات -يقول الكاتب- لا تكون عائقا أبدا، عندما نفكّر بأنّ البعض لا يتردّدون في البحث عن غربة عُطلية في الخارج، مع أنّ بلادهم يمنحها لهم بسهولة أكبر"³.

2.2 الغربة السيّاحية:

عندما نسمع كلمة "غربة" يتبادر إلى أذهاننا مفهوم الغربة الجغرافية التي يكون فيها الإنسان بعيدا عن بلده، وقد يُحس باغتراب ثقافي ولغوي عندما يضطرّ إلى استعمال لغة غير لغته الأم، ويصل هذا النوع إلى حد الإحساس بالنّفي مثلما حصل لمالك حدّاد مع اللّغة الفرنسية.

وإذا كان هذا النوع من الغربات قسريا فإنّ الغربة السيّاحية تكون دائما اختيارية، لأنّ فعل السياحة في حد ذاته هو فعل إرادي، يتمثّل في طلب الرّاحة والاستجمام وكسر

¹En Nasr, Présence algérienne, 22 Juillet 1967.

² Ibid, Isabelle Eberhardt lia son destin au destin même de l'Algérie. Il n'est pas jusqu'à la façon d'ont elle mourut qui ne l'enracine encore à cette terre violente et douce. Elle aima ce pays d'un amour sans partage. Elle l'aima NATURELLEMENT, spontanément, filialement. Elle se retrouvait totalement en lui.

³ Ibid.

الوتيرة الرتيبة التي تُشعر الفرد بالملل طوال فترة عمله السنوية، فيطلب البعض منهم عطلة خارج وطنهم للاستمتاع بمناظر دون أن يعرفوا بأن هذه اللوحات الجميلة التي تُهدى أعصابهم، قد تكون قريبة جدا منهم داخل الوطن، فيسقطوا بذلك فيما سماه الكاتب بالغرابة العطلية. ولا يعني هذا التحليل بأي حال من الأحوال- إدانة السفر والاكتشاف "بما أنني سافرت كثيرا -يقول حداد- أعرف كيف يوضح السفر الآفاق ويُغنيها، وكيف تتوازن النظرات في موضوعية أكثر نجاعة.... وكيف أنّ الأحكام المسبقة لا تقاوم امتحان التواصل والتبادل والاكتشاف، لكنني أعرف أيضا أن الأسفار لا تمتلك كل المزايا، ولا تكون الشببية بالضرورة، بل تُحرّفها في معظم الأحيان"¹.

جاء استياء الكاتب من هؤلاء الذين لا يملّون من مقارنة مناطقنا السياحية الرائعة بأخرى في أوروبا وكأنها مجرد ارتداد لها، "أنا متأكد -يقول- بأننا نستطيع أن نتعافى من مرض في الشريعة أكثر من Comblouse ، وإن كانت هذه الجبال (في الجزائر) تعجبني فلن أؤكد جمالها بقولي "آه نظن أنفسنا في". تنزل أشجار الوزال في جيجل وبجاية إلى البحر الأزرق المغرم، الذي يتسلّى باستنزاف حلمها: "نظن أنفسنا في la cote Dazur، ترفع أشجار السدر في بوحمامة أجمل سماء في العالم: "نظن أنفسنا في جبال الألب"، تذكرنا بجاية ب super-cagne، ويثير فينا ميناء العاصمة la Baie des Ange، وتُذكر المتيجة ب la provence، وتُذكر تيبازة le lavandou. يا للسخرية نظن أنفسنا في مكان آخر، في كل مكان بعيد إلا هنا، إلا في بلادنا، إلا في بلادنا الجزائر التي تُبهج الكثيرين من الأجانب، ولا تُؤثّر في هؤلاء الذين لا يعرفون حتى أنهم يعيشون بجانب كتاب مغلق يحتوي على أروع الصور"².

إذا نظرت هذه الفئة إلى السياحة من هذه الزاوية دون غيرها، "فقد سقطت في العبثية التي تجعل منها تعرف Geneve أو Nevers بدلا من العاصمة أو تلمسان وتُصيّق بأن آبائهم كانوا غاليين، وتستأنس بالحديث عن Guillaume Tell بدلا من المقراني"³.

¹ An Nasr, Pour des vacances en Algérie.

² Ibid.

³ Ibid.

وبذلك يصبح تصوّر أسفار وعطل وسياحة ثقافية خارج الجزائر فقط، إحساس بالاستعمار، ولمحاربة ذلك يتعين على الجزائريين -حسب رأي الكاتب- أن يجعلوا من هذا البلد الرّائع أرضاً مختارة للعطل والسّياحة الدّاخلية.

"الغروب الذي رأيته يزِيل تجاعيده على المدينة، صدقوني لا نراه إلا عندنا، ولا تجهله نوارس سيدي راشد المنتبهة لمعجزة كل مساء".¹

3.2 السّياحة الثقافيّة:

تكون الرّاحة والترفيه عادة الهدف الرئيسي من العطلة، وترتبط فكرة السّياحة في هذه الحالة ارتباطاً ضيقاً بمفهوم الزّيارة واكتشاف بلد أو منطقة معينة. لكن الآفاق لا تتّسع إذا اكتفينا بالبحث عن المرافق المادية المريحة فقط، دون التّطلّع إلى إشباع الفضول الثقافيّ، الذي يدعونا إلى قراءة الأماكن السّياحية بدلاً من زيارتها. "في بلاد مثل بلادنا، بلد عانى بشكل كبير، لا توجد فيه بقعة غير تاريخية أو غير أسطورية.... من سعيدة إلى تبسة ومن الهقار إلى جرجرة، تنتشر في الجزائر أماكن جليّة أو فاتنة، ملحمة أو مريحة، أماكن يجتهد فيها التاريخ والجغرافيا في إبهارنا"². فيقدّم التّاريخ حكايات المكان، وتقدم الجغرافيا لوحات فنية تُثير الأحاسيس، وتصبح زيارة الجزائر في إطار سياحة داخلية فعل ثقافي يستوجب التعزيز، " لأنّ الجزائر لا تقدّم الشّمس فقط بل تملك ماضٍ تعرضه وحاضر تشرحه (...)"، تحت الثّلوج وتحت الشّمس، تحت القرون الثّي لها حياة طويلة جداً، تتشبّث تيمقاد عاصمة الأبدية في الأوقات المعاصرة بمعجزة الثّقافة وسحر السّياحة، حاضرة بلا أمل وكأنها تريد أن تحيا بماضيها، وتفتح بوابة

¹ An Nasr, Pour des vacances en Algérie

² An Nasr, Tourisme et culture, 9 Mars 1968 (n°871). كان مالك حداد يرى الجمال في كل شيء وفي كل ركن من أركان بلاده الحبيبة.

Frenda dans le Sersou et les grottes des « Prolégomènes », Tlemcen à l'ombre de Sidi-Boumedine aux ruelles mesurées et émouvantes comme une phrase de Mohamed Dib, Djurdjura qui médite avec Mohand et chante avec Amrouche, printemps de Guelma et de sétif avec ce lycéen qui devait devenir Kateb Yacine, l'arc-en-ciel de Dinet dans l'oasis de Bousaâda, la passion d'Isabelle Eberhardt dans les soleils enchantés d'Ain Sefra, les regards de lumière de Ben Badis à Constantine, la gloire silencieuse du Cheikh El-Aïd sous les palmes de Biskra, M'Sila et la caméra visionnaire de Lakhdar Hamina, le talent d'un pays s'est transmis à ses enfants et l'Algérie n'est plus qu'une anthologie qui ne demande qu'à s'ouvrir.

Tragean على الآفاق الثمينة للأراضي المرتفعة، وتحرس شيليا بجانبها وتأخذ مناوبة تاريخ آخر، بتأكيدا ثقل استمرارية الجزائر وطمأنيتها"¹

رأى مالك حدّاد أيضا أن فكرة وقرار إعطاء أبعاد جديدة لمهرجان تمقاد، هو مشروع طموح، يجعل منه تظاهرة ثقافية ذات أبعاد دولية. وقد تحقّق هذا الطموح بعد ذلك وأصبح مهرجان تيمقاد مهرجانا دوليا على غرار مهرجان جرش أو قرطاج يحقّق السّياحة والثّقافة في آن واحد.

وللسّياحة أهداف إنسانية لم يغفل الكاتب عنها في مقالاته، " - السّياحة جواز سفر من أجل السلام - نقرأ هذه الجملة الصغيرة والساحرة على طوابعا البريدية، ولا ينتبه إليها إلا قلة من الناس، جملة بسيطة وصغيرة رغم أنها رسالة وبرنامج قائم بذاته، تلخّص وتشرح الغاية القصوى من السّياحة"²، المتمثلة في التعرّف على أبناء البلد الواحد والتّقرب منهم وتبادل الزيارات وعقد الصداقات، فوق خارطة الجزائر التي تشبه بطاقة التعريف - كما يقول الكاتب - ويضيف بأن السّياحة تؤدي بشكل طبيعي إلى الثّقافة، وتسمح بنظرة تأملية إلى الآخر الذي يشبهنا أكثر مما نتصوّر، وعلى هذا التّقارب أن يتوسّع حتى يأخذ أبعادا إنسانية.

4.2 جولة في الجزائر:

يدعو مالك حدّاد إلى جولة سياحية واسعة عبر مواقع متعدّدة ومتباينة من حيث الجغرافيا والطبيعة، فمن البحر إلى الجبال إلى بلاد القبائل فبجاية، قسنطينة، الأوراس، تيمقاد، تلمسان، المزاب، غرداية والصحراء، يأخذ زائره في رحلة سياحية شعرية وكل ذلك في مقاله المعنون "مرحبا"، الذي كتبه بجمل قصيرة تنفصل في معانيها عن

¹ An Nasr, Tourisme et culture.

² An Nasr, Pour des vacances en Algérie.

بعضها البعض وتشكّل أبياتاً شعرية كلما عدنا إلى السطر، وتتخلل الجمل نقاط حذف من طرف الكاتب تشير إلى دلالات عميقة ومقصودة ربما.¹

يدخل الزائر الجزائر ويتفاجأ بمنظر مألوف وإحساس معروف يعاد تحيينه "أعرف بلدانا نقترّب إليها بالذكريات، وجعلت الجزائر الناس يتحدثون عنها إلى درجة أنها أصبحت لا تكتشف بل تُزار، وتؤكد دوماً إحساس المؤلف le déjà vue، نعثر عليها مجدداً ولا نأتي أبداً للمرة الأولى إلى الجزائر، وعندما نذهب لا نفارقها إلى الأبد، وصلت هذه الطائفة مثلما ندق الباب "أدخلوا كنت بانتظاركم".²

ننطلق من العاصمة التي اعتبرها الكاتب "قطعة صغيرة من الغنائية، ذات إيقاع موسيقي وقطرة من الخيال، هي مدينة تطمئن في الشمس وتتبعثر في حيائها، وتتفرّع منها الطرق المؤدية إلى المدن الجزائرية التي تستقبل زائرها، وتعرض عليه مفاتها السياحية. ولكن من أين نبدأ؟ "أسلك طريقاً، ولا أعرف كيف أختار عندما يكون بوسعي الاختيار".³

"طرق تنقطع وتطوف، الجبل والبحر هما طريقة في العرض بالألوان الطبيعية، واعتبر الكاتب بلاد القبائل تصدير لقسنطينة، وفي الأسفل تماماً تنتشر السهول، سلطنة بالقرب من حارسها، ويتحرر الرمال من صبره الطويل كي يلتحق بها".⁴ وفي حقيقة الأمر لم يجد مالك حداد ما يشبه قسنطينة وادي الرمال أينما حل وارتحل، ولا حتى في القاهرة والنيل أو باريس والسّين.

يدخل بعدها "إلى تيمقاد عبر بوابة "طرجان" وفي ظلال "الشيليا" تحرس تيمقاد رهافة الحضارات، وأدرك عندها أن كلمة أطلال لا تعني شيئاً لأن المقابر هنا لا تموت

¹ ربما يريد إشراك القارئ في تصوّر تكملة للجملة المقطوعة أو خلق معانٍ جديدة يُسقطها هذا القارئ على النص استناداً إلى إحساسه أو تصوّره للأشياء.

² Voir En Nasr, Marhaba, 3 Septembre 1965 (n°94).

³ Ibid.

⁴ Ibid.

أبدا. أما تلمسان فقد استقرت في نبلها وحافظت بغيره على أوقات عظيمة للإنسانية، والمزاب مقطع أيضا يحلم-بدوره- في مكان ما بهذه الجملة التي لا تنتهي"¹.

"تقودنا الغزلان في الصّحراء وينتظرنا الدّرب. "القولية" بمجرد التّلفّظ بهذا الاسم يُخَيّل إلينا أننا نُروّع سربا من اليمام، الظّل أزرق تماما، وتلهو الطّرقات في ضياعها ويصنع البستاني روائع. وفي الأخير يعود الشعر إلى بيته وتعود الشّمس إلى بيتها وينفتح الأفق كالذراعين"².

اتساع الأفق الذي ختم به الكاتب مقاله ناتج عن السّفر والتّجول، الذي يثري ثقافة الفرد، ويعطيها أبعادا محلية وإنسانية ويجعلها جواز سفره الذي لا يعترف بالحدود.

¹ Voir En Nasr, Marhaba

² Ibid.

3 الوسائل السمعية البصرية:

تطوّرت وسائل الإعلام وتعدّدت بشكل مذهل، وخاصة بعد انفتاح الثقافات على بعضها، حتّى أصبح العالم قرية صغيرة ينتشر فيها الخبر والصّورة بسرعة البرق. ولكن برجعنا إلى الوراء في الستينيات من القرن الماضي، سادت وسائل الإعلام الثقيلة (الإذاعة والتلفزيون)، والتي تسمّى أيضا بوسائل الإعلام الجماهيرية، لأنّها تستقطب وتستهدف جمهورا عريضا من المتلقّين. وتُعتبر أيضا من أخطر وسائل الإعلام وأنفعها في نفس الوقت، إذ أنّها توصل المعلومة للمشاهد الجالس في بيته دون عناء يذكر، وتوفّر عليه تعب اقتناء الصّحف والمجالات للحصول على المعلومة.

هذه المعلومة التي أصبحت تأتيه جاهزة ومتنوّعة – خاصة بعد تعدّد قنوات البث الإذاعي والتلفزيوني – ومن جهة أخرى لا تشترط فيه معرفة القراءة كما هو الحال بالنسبة للصّحافة المكتوبة.

عن وسائل الإعلام الثقيلة وماضيها وآفاقها، تحدّث مالك حداد وأسهب، وسطرّ برامج واعدة تجمعها بالسياحة والثقافة والأدب وأشياء أخرى. وقد تمّ انتخاب المقالات التالية لهذا الموضوع:

- En marge du poème et du roman : Littérature et activités paralittéraire (les techniques audio-visuelles) 22 Avril 1967.
- Plaidoyer pour la radio, 16 septembre 1967.
- Son et lumière, 7 octobre 1967.
- Présence et mission du cinéma Algérien, 9 Décembre 1967.
- Pouvoir et sortilège de l'image, 2 Mars 1968.

1.3 الأدب في ظل الوسائل السمعية البصرية:

اتّصل الأدب في وقت من الأوقات بمجالات محدّدة تتفق مع طبيعته "واتجه رجل الأدب في النصف الثّاني من القرن العشرين إلى التعليم أو الصحافة كي يستطيع تكريس فنّه مادياً"¹، وفي هذا الشّأن تحدّث الكاتب، ويبيّن ما لهذه المهنة الموازية من إيجابيات ومن خطورة على الإبداع نفسه* . ومنذ وقت قليل ظهر عنصر جديد لإمكانية نشاط رجل الأدب تمثّل في التّقنيات السمعية البصرية، التي تستطيع أن تكون امتداداً لفنّه وتطبيقاً له في الراديو، السينما، التّكليف المسرحي، أو الإنتاج التلفزيوني.

أصبح الآن بإمكان الإنتاج الأدبي أن يخرج إلى النّور بفضل هذه الوسائل، التي تجعل المشاهد يستمتع برواية من روايات الأدباء الكبار، ويتفاعل معها ويفهم أدق تفاصيلها ليتوصّل إلى الرسالة الكامنة فيها*، أو يشاهد مسرحية تمّ إخراجها تلفزيونياً، أو الاستماع إلى أشعار في الراديو من خلال حصص مخصّصة.

بوضعنا لهذا المقال في سياقه التاريخي (1967)، سوف تواجهنا نسبة الأمية العالية التي تجعل من الإنتاج الأدبي -باللّغتين- حبيس الرفوف، وهنا "يجد الأدب لسان حاله في الصّورة والصّوت كوسائل قوية وفعّالة لإشعاعه وتعميمه"²، وهذا لا يعني أبداً فقدان الكتاب لمكانته - التي لا تُعوّض حسب رأي الكاتب- "لكنّه يتكاثر إلى مالا نهاية عندما يصبح القارئ مستمعاً أو مشاهداً"³، ويشارك المواطن الأمي أيضاً في الحياة الثقافيّة بفضل الصّوت والصّورة.

أما بالنسبة للشّعور "فإن اختراع المطبعة - رغم مزاياها التي لا تعد ولا تحصى- جعله حبيس مربعات ضيّقة جامدة وبلا حياة بسبب الكتابة. فالقصيدة تُقرأ طبعاً، ولكنها تقال

¹En Nasr, En marge du poème et du roman : Littérature et activité paralittéraire(les techniques audiovisuelles) Samedi 22 Avril 1967(n°595).

*انظر هذا البحث ص88.
* رواية الحريق لعهد ديب التي بقيت عالقة في الأذهان (سوف تتعرّف نساء دار سبيطار على أنفسهن من خلال الشاشة رغم أميّهن) .

²En Nasr Littérature et activité paralittéraire.

³ Ibid.

أولا ووجدت لثُلقي وُغني وُسمع¹. و"بإمكان المسجّل أن يثبّت أغاني الهقّار التي علينا جمعها، خاصة ونحن ندرك أخطار التقاليد الشفوية والأشياء المنطوقة ورهافتها الشديدة ووقيتيتها. أمّا الآن فتوجد الريشة والشريط المغناطيسي لحماية هذه القصائد من عدوّها المؤكد "الزمن"، الذي لا يمتلك ذاكرة، وتصبح الكتابة والريشة حماية لها من الضياع"².

وفي حقيقة الأمر قد يحتاج الإنتاج الأدبي إلى وسائل أخرى تحميه من التلف وتستوعبه أكثر مما تفعل هذه الوسائل التي أصبحت قديمة في وقتنا الحالي.

2.3 حضور الصورة يعوّض سحر الاستماع:

عرف المشاهد الصورة من خلال دور السينما وما تعرضه من أفلام، فُولدت ثقافة جديدة تُحير رجل الأمس النزيه المتمسك بالأشكال التقليدية التي أعطت براهينها -على حد قول الكاتب-، من الغنى والحماسة كالأدب والرسم والموسيقى... الخ. هذه الشاشة الكبيرة التي تخطف أنظار المتفرجين وتهيم بهم في عالم من الخيال جعلتنا نتكلّم اليوم عن حضارة الصورة: صورة حيّة، مسموعة ومُرافقة موسيقيا. صورة ناطقة توشك أن تُبعد الكتابة والكتاب إلى الدرجة الثانية، لتمنح المتفرجين المتعة التلقائية الخاطفة على حساب التأمل³، لأن خاصيّة السرعة والآنية التي تمتلكها الصورة، تجاوزت حدود الشاشة وأخذت مكانها في الصحافة والإشهار، الذي أصبحت الصورة فيه تعوّض الشّعار بشكل حسّاس.

"أمّا أدب الأطفال فقد أصبح مُزيّنا بالصُّور أكثر فأكثر، كما صار الشّعار نفسه يطلب من الرسم والفنون التخطيطية ضربة قلم تُوضّحه للأعين"⁴. غير أنّ هذه المزايا التي تنفرد بها الصورة، لم تكن متاحة للجمهور العريض لأن

¹ En Nasr Littérature et activité paralittéraire. (Les « Editions Pierre Seghers », éditions spécialisées dans la publication de poésie, l'ont compris qui conjointement au livre éditeur le disque. Ces poèmes de grands poètes, dits par de grands comédiens, se lisent et s'écoutent, ce qui est d'un apport décisif dans la connaissance et la compréhension d'une œuvre. La chose écrite se libère de son inertie et s'anime jusqu'à nous).

² Ibid.

³ Pouvoir et sortilège de l'image, 2 Mars 1968. (n°865).

⁴ En Nasr Littérature et activité paralittéraire.

قاعات السينما-على قلتها بعد الاستقلال- كانت حكرا على المدن الكبرى، ولم يكن التلفزيون قد عرف طريقه بعد إلى بيوت العائلات الجزائرية البسيطة، فكان الراديو وسيلتهم الوحيدة للاستماع إلى الأخبار والبرامج المتواضعة.

أما بعد وجود التلفزيون وانتشاره، "تراجعت شعبية الراديو، لأنّ الأوّل يمنح الصورة والصوت في آن واحد، ويقدم نوعا من الرفاهية دون عناء. ولكن من الخطأ تقديم التلفزيون والراديو على أنّهما وسيلتين متنافستين، لأنّ لكل منهما تقنياته وأبعاده الخاصة، ومع ذلك نجد العائلات الآن تفضّل التلفزيون وتجتمع حوله في المساء دون أن تفكر حتى في الاطلاع على برامج الراديو¹

لكن الكاتب نظر إلى الراديو من زاوية أخرى تجعل منه مفجرا للخيال "فلا نركب قطعة (مسرحية، رواية تمثيلية...) في الراديو مثلما نركب قطعة في التلفزيون، ويسمح لنا المكروفون بأسرار ممتعة وصور ذاتية، وصمت يملؤه المستمع ويترجمه بنفسه"²، بينما تحتاج الصورة إلى انتباهنا وتستدعي حواسنا وتحصرنا في إطار جاهز لا يقبل التأويل.

يتحرّر الفكر من الصورة ويعيد إنشائها مثلما يعيد القارئ إنتاج الرواية التي بين يديه، ويعطي المستمع أيضا أبعادا جديدة لكل ما يستقبله من هذا الميكروفون البسيط، فيصبح بدوره مخرجا مثل "المولع بالموسيقى الذي يسمع مغمض العينين سمفونية، ترحل به وتأخذه من عينيه وتقوده فوق العوالم المرفهة، إلى المناطق ذات الارتفاع العالي أين يتنقّى الفكر من كل ما يثقله، فلا نحتاج إلى رؤية الناي كي نتبع عزفه وآهاته في بقاع الرمال..."³.

¹ En Nasr, Plaidoyer pour la radio (IL est incontestable, indéniable que la retransmission en direct ou même en différé d'un match de football à l'écran a une valeur documentaire, une valeur vécu en quelque sorte, infiniment plus convaincante qu'un reportage au micro seulement....lorsqu'on écoute une chanson à la Radio et lorsqu'on l'entend et la « voit » à la télévision, la même chanson, interprétée par le même artiste, revêt néanmoins une présence plus dense, un pouvoir de communication plus intense. Elle fait vibrer davantage notre sensibilité et notre affectivité).

² Ibid.

³ Ibid.

ومن جهة أخرى دعا الكاتب إلى لامركزية السينما والسمعي البصري بصفة عامة، وتأمل في تغطية البث الإذاعي والتلفزي كافة التراب الوطني، كي يخرج الرّيف من عزلته وانطوائه، لأنه ما زال ينغلق على نفسه بمجرد حلول الليل ويغرق في القرون الغابرة بعد انتهاء النهار*.

3.3 استقلال السينما الجزائرية:

كانت السينما في أيدي القوة الاستعمارية كلية، ونظرا لطبيعتها التي تتطلب وسائل مادية هائلة مع حرية في التعبير، "أصبح من المستحيل وبعيدا عن التفكير أن تظهر أو تزدهر أو تكون لها هوية تميزها، ولم تستطع فرض نفسها على الجهاز الاستعماري، أو تُصنع رغما عنه كما فعل الأدب أو الرسم. وتأثرت هي الأخرى بنفس الشكل للقمع والاستلاب اللذان ميّزا النفوذ الامبريالي وقتها. فكان المستعمر ينقل مواضيع على الشاشة تُستغل بصريا لإضفاء الشرعية على الاستعمار وتبريره المنظم، على حساب كل حقيقة تاريخية وكل أصالة اجتماعية وكل احترام للقيم الموقرة"¹.

لم تختلف مواضيع السينما في الفترة الاستعمارية عن مواضيع الأدب الكولونيالي "الذي اكتشف "بلاد الشمس" و"البحر الأزرق"، وطالتها الخطيئة نفسها-يقول الكاتب- فاككتشت السينما "الرجل الأزرق" وصليب الجنوب، دروب منسية، سيدي ابراهيم، والرّمال الحارة والقبة العسكرية لعضو من جوقة الشرق (...)، عواصف رملية، وسرب أبيض و"البلد"، التأثير السحري لشرق من خشب، ولم تتوقّف الوقاحة والفضاضة -يضيف الكاتب- عند إنجاز هذه الأفلام فحسب، بل كانت تُفرض علينا على شاشاتنا"².

¹ Voir Présence et mission du cinéma algérien, 9 Septembre 1967 (n°794).

² Ibid.

* هذا الانطواء يعود إلى خصوصية حياة الفلاح وعمله، الذي يستدعي النوم باكرا والاستيقاظ باكرا لخدمة الارض قبل ظهور أشعة الشمس الحارقة. ولا أضن أن سهر الفلاح في مشاهدة أفلام سينمائية قد يعود عليه بالفائدة. (... الحذف للطالبة).

ومع ذلك ذكر الكاتب بأن السينما الجزائرية أعطت براهينا من قبل مع "ياسمينه" و"بنادق الحرية"، عندما كانت الجزائر توجّه الضربات الأخيرة للاستعمار.

"كان على الجزائر انتظار حربها التحريرية واستقلالها كي تأخذ مصيرها بيدها، وتمنح نفسها السينما التي تستحقها، وتعيد وضعها في إطارها الأصلي وتنوّع فكرها وعمقه، وتفردّه، ولدت هذه السينما مع الحرب ولم تكن ممكنة إلا مع الاستقلال"¹ الذي منحها حركية وهوية، فتعرّف الجزائريون على أنفسهم من خلالها، والأمثلة كثيرة كان قد ذكرها مالك حدّاد في مقاله: "من معركة الجزائر" إلى "ريح الأوراس" مروراً بـ "فجر الهلكى"، و"الليل يخاف من الشمس" وune si jeune paix.... فإذا أكدنا وقبلنا -يضيف الكاتب- بأن الجزائريين وحدهم قادرين على التحدث بشكل جيد عن الجزائر، والتّغني بها والاحساس والتأثر بها، فهذا لا يعني بأننا مأخوذون بنوع من الاكتفاء الثقافي أو شوفينية عميقة ضيقة، أو حتى نرجسية وطنية عبثية، وإنّما كي نعرف بلدا ما جيدا، يجب أن نكون من هذا البلد وننتمي إليه بكل أرواحنا وأعصابنا، مرتبطين إليه بجذورنا الضاربة في الماضي البعيد للفطرة"².

عرّفت السينما الجزائرية بالجزائر للجزائر نفسها، وللعالم بعد ذلك، وتنتشر الثقافة أسرع من الأدب أو الرّسم والموسيقى، وقد يقول التاريخ يوما -حسب رأي الكاتب- أن السينما هي أكمل الفنون على الإطلاق.

إنّ سلاح الصّورة أخطر من أي وسيلة أخرى، وقد تُستعمل ضد شعب لتدميره أو استمالة الرّأي العام بتزوير الحقائق "وعلى المتلقّي للمادة السينمائية أن يتمتّع بدرجة مقبولة من الوعي، ولا يهب نفسه للشاشة التي تجعله مستهلكا سلبيّا. وحسب رأي

¹ Voir Présence et mission du cinéma algérien.

² Ibid....(Si Aragon chantait si bien son Paris c'est qu'il en est le produit historique et la somme littéraire. Si Kateb Yacine comprend le Rummel c'est qu'il en a les accents terribles. Si Chokolov est né du Don c'est qu'il a vécu son fleuve. Federico Garcia Lorca ne pouvait qu'être espagnol et Césaire de son île. Ramuz ressemble au Valais et Pablo Neruda à la Cordillère des Andes.....la Turquie de Pierre Loti n'est pas celle de Nazim Hikmet. Et le talent n'y est pour rien le plus souvent). هذه أمثلة عن أصالة الأدباء وانتمائهم والذي يمنح خصوصية للأدب.

الكاتب، لا يجب عرض فيلم فقط ولكن من اللائق تقديمه أولاً والتعليق عليه بعدها، ومن هنا أكد على أهمية إنشاء النوادي السينمائية¹.

4.3 دور التقنيات الحديثة في تفعيل السياحة:

تساهم الوسائل السمعية البصرية في فعالية نشر الثقافة وإعطائها أبعاداً حسّاسة وتثبيتها والمحافظة عليها من الضياع أو النسيان و"هناك واحدة حديثة نسبياً، والتي لم تكشف ربما عن كل مواردها وإمكانياتها الأصلية، إنها مشهد الصوت والضوء* الذي تأسّس على أحد الفتن الرائعة: "الليل"²

ترتبط تقنية الصوت والضوء بعلاقة ضيقة مع السياحة، إذ تستعرض المدن التاريخية أو الأماكن الأثرية حكاياتها أمام الزوار تحت أضواء كاشفة تخطف الأبصار، وبصوت مجهول يأخذ الزائر إلى الحقة المستهدفة، "ولا يكون هذا العرض إلا ليلاً لأنّ الليل يمتلك خاصية لا يثيرها النهار فينا إلا قليلاً: الخيال -يقول الكاتب- ومن الخيال إلى الحلم لا توجد إلا خطوة أو عتبة نتخطاها عند الغروب، والليل دعوة للأسفار الكبيرة عبر الزمان والمكان والاستدعاءات الكبيرة والمصالحات التاريخية الكبرى"³. ويشرح لنا الكاتب عمل هذه التقنية بشيء من التفصيل فيقول:

"مكان عالٍ، ديكور، ضوء، تعليق، موسيقى...التقنية بسيطة نسبياً وأساسية. يعمل الضوء هنا عمل الذاكرة التي تُخرج الذكريات من طي النسيان وتعيد بعثها، ويعيد تحيين حدث في إطاره، وتستنثر الأضواء الكاشفة الليل والماضي. يقوم المكروفون بالتعليق وتخلق الموسيقى الجو، وتعيد خلقه. أصوات مصطنعة في هم من الواقعية

¹Voir Pouvoir et sortilège de l'image.

*Le spectacle « son et lumière » inventé dit-on, une nuit d'orage par un châtelain qui à la lueur des éclairs et dans les déchainements du tonnerre et de la tornade, découvrit les beautés de son château, sa « présence » tragique et sa vie mouvementée

²En Nasr Son et lumière 7 Octobre 1967(n°740).

³ Ibid.

تعطي للحيوية الصوتية نكهة الوثيقة والشهادة"¹. وبما أن الجزائر تمتلك تاريخا عريقا ومدنا شاهدة على أحداث عظيمة في كل شبر منها، تستطيع أن تستغل هذه التقنية بما يسمح لسياحتها بالانفتاح على العالم والازدهار في الداخل*. ومن البديهي أننا نستطيع ضبط هذا الأمر (مشهد الصوت والضوء) نهائيا بتسجيله لإعادة إنتاجه كلما أردنا، فيمكن بناؤه على موضوع محدّد أو استحضار مشهد تاريخي واسع، وقد يكون عرضا بسيطا مُعلّقا عليه لموقع يتطلّب استعمال أصوات مشهورة أو مجهولة..."²

قد يذهب السائح الجزائري إلى البحث عن هذا النوع من السّياحة الثقافية في بلدان أخرى، بينما تستطيع الجزائر أن توفر له ذلك وتساعد على التعرف على تاريخه. "فهناك بلدان تمتلك فيها كل مدينة مشهدها "صوت وضوء"، حتى وإن لم يكن لديها سوى قصر ريفي قديم أو برج مُهدّم، أو جسر تحصين أو حتّى بقايا ميدان... فتُنطق أثينا l'Acropole وتُعتبر la Loire بفرنسا دراسة أحادية بليغة، ويحكي أبو الهول حكاية الزمن الأوّل للنيل"³. ومثل هذا يتصور الكاتب برنامجا كاملا لبعض المدن أو الشخصيات ويوقظ التاريخ ويخرجه من المتاحف والكتب والصحف⁴ "فيجذبنا الصّوت والضّوء إلى أبعد من الصّورة البسيطة، إلى الزمن المسترجع....فيتحدّث التاريخ من أجّلنا وفي مكاننا..."⁵

¹ Ibid.

* L'Algérie , pays de haute densité historique, de légende et d'épopée ; on y trouve partout des vestiges des civilisations révolues, des ruines, des monuments, de ces lieux et de ces haut-lieux, villes fameuses, champs de batailles, palais des âges et de la gloire, citadelles, places-fortes, vieilles rues qui s'enfoncent au creux d'une âme.

² En Nasr Son et lumière.

³ Ibid.

⁴ Ibid. Ce ravin qui revit nous dira le printemps assassiné de 1945, et le drapeau dans l'ombre, et cet espoir dans la pénombre. Ah ! Si le Rhummel pouvait parler ! mais il sait parler ! La pierre est toute chaude d'impatience, de lyrisme-potentiel, le rocher, ce monument monumental qui se comptait dans le pléonasme et se plait dans sa légende, le clair- de- lune lui redonne ses dimensions premières, et qu'il raconte un peu sa vie, mille et une nuits ne pourraient lui suffire... L'imagination déborde de toute part, comme un torrent en crue , éclairer le mont Chélia d'une lumière plus forte que tous les feux de Bengale du monde, rendre jalouses les étoiles, aller jusqu'à la Casbah lui demander de nous parler d'Alger, aller jusqu'aux déserts leurs demander de nous parler des gazelles, cette ombre dans la rue c'est peut être Ben Badis, cette silhouette au bord de l'eau c'est peut être Ben M'Hidi.

⁵ Ibid.

الخاتمة

حاول مالك حداد من خلال مساهمته في جريدة النّصر (1965-1968) طرح مشروع كامل في جزائر ما بعد الاستقلال، مسّ من خلاله معظم جوانب الحياة بنظرة تفاؤلية استشرفت مستقبلا يعد بالخير الكثير.

- عرض مشاكل واقترح حلولاً رآها مناسبة في وقتها؛ من المدرسة إلى الأدب والثقافة مروراً بالسياحة ووسائل الاتصال السمعية البصرية، وكتب ما يزيد عن تسعين مقالا بين الشعر والحكاية، والحوار والرأي والعمود الصحفي، والتأمل والتحقيق الصحفي، بلغة كانت أبعد ما تكون عن اللغة الصحفية المباشرة.

- صالح بين الأقطاب المتنافرة والثنائيات المستحيلة، ودعا إلى تعايش الثقافات بمفهوم حضاري راقٍ، يحتفظ كل طرف فيه بخصوصيته وأصالته التي تصبح بدورها عنصراً من عناصر الثقافة العالمية. وركّز على المدرسة واعتبرها مشنلة رجال ونساء الثقافة، كما دعا إلى سياحة ثقافية تحتفي بما هو موجود في البلاد العميقة، ليتعرّف فيها الفرد على نفسه، دون أن ينسى لا مركزية السمع البصري الذي يفك العزلة عن الرّيف.

- طرح مشكلة هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وأجاب عن تساؤلات تخص موقفه من اللغة الفرنسية التي اعتبرها منفي له، دون أن يُنقص من قيمتها الفنية أو يُخضعها للمساءلة أو يناقش وجودها في بلاده، بل أشاد بها واعترف بفضلها في تمكينه من كتابة *Algérie libre et indépendante*، ولكنّه كان متأسفاً من كونه لا يستطيع التعبير بالعربية عما يحسه بالعربية. وناقش بعمق موقفه من مسألة انتماء بعض الكتاب- من جنسيات مختلفة- إلى الجزائر، ووضع شروطاً لمفهوم الجزائر والتي كان أهمها الشرط السياسي المتمثل في الاعتراف بشرعية الثورة التحريرية وعدالتها.

كان قد توقّع قبل الاستقلال زوال الكتاب باللغة الفرنسية من جيله بمجرد استقلال الجزائر، واكتفائهم بترجمة أعمالهم إلى لغات العالم المختلفة. لكنّه عاد بعد الاستقلال ليفنّد ذلك ويناقض نفسه - إن صح التعبير - فتغيّر الخطاب واتسعت الآفاق، وأصبح

يرى إلهام مواضيع الروايات وأسباب القصائد في كل مكان، دون أن يطرح إشكالية اللغة التي تُكتب بها. وقد ترك هو نفسه مخطوطات لم تر النور في حياته:

*Les premiers froids « poèmes ».

*La fin des majuscules « essai ».

*La légende de Salah Bey « roman ».

*Un wagon sur une île « roman inachevé ».

*Les propos de la quarantaine « chronique ».

فهل يمكننا التحدّث بعد كل ذلك عن صمت مالك حداد أو عزلته؟

- إنّ تاريخ الأدب الذي تجاوزه الدّراسات الحديثة وما اصطلحت على تسميته بأدب الدوريات (من خلال تجربتي البسيطة في البحث الميداني)، ما زال صالحا للكشف عن مادة أدبية غنية جدا، ومهملة في الارشيف ومجهولة من طرف القراء، للكثير من الكتاب الجزائريين على اختلاف مشاربهم، وتنتظر من الباحثين الجمع والتّصنيف حتّى يتسنى للدّراسات الأكاديمية مقاربتها بالمناهج التي تراها مناسبة.

إنّ مساهمات مالك حداد في جريدة النصر جعلته صحفيا من نوع خاص، فالخبر الصحفي الذي يحمل عادة شهادة وفاته في متنه ويحترق بمجرد نشره، بقي صالحا هنا إلى يومنا هذا، لأنّ المواضيع التي اختارها حداد طرحت مشاكل عميقة، واستدعت حولا على الصعيد الانساني. ومهما تغيّر الزمن يبقى جوهر الانسان نفسه والقيم الانسانية الصحيحة لا يتجاوزها الزمن حسب رأيه.

ومن هنا أتمنى أن يكون هذا البحث مساهمة بسيطة في إزاحة الستار عن نوع آخر من الكتابة لأديب لم يعرف عنه الجمهور- وخاصة الأجيال التي لم تعيشه- سوى روايات تعد على رؤوس الأصابع، بينما لو قُدِّر لإنتاجه في الدوريات أن يُجمع لعادل أو فاق إنتاجه المعروف في السّاحة الأدبية.

Résumé :

« L'expérience créative de Malek Haddad à travers ses articles dans le journal En Nasr 1965-1968, traduction et étude descriptive analytique ».

Après l'indépendance, de nombreux écrivains ont cessé d'écrire dans la langue de « l'ennemi » pour des raisons ou d'autres, et cela pendant des périodes plus ou moins définies.

Malek Haddad était l'un de ces écrivains où le drame de l'expression fût très important, au point qu'il l'empêcha d'exprimer en arabe ce qu'il pensait en arabe « nous écrivons dans la langue de ceux qui furent nos ennemis dans la guerre de libération... (Jean Déjeux) ».

Rêvant de voir la langue arabe récupérer sa place première au sein de l'Algérie indépendante, notre écrivain avait confirmé la disparition des écrivains algériens d'expression française, « or depuis 1964 cette littérature a vu sa production augmenter et de nombreux écrivains s'affirment..., Malek Haddad disait aussi qu'il avait été dépossédé autrefois de sa langue arabe et qu'il désirait ardemment la retrouver (Jean Déjeux) ».

Avant 1962, il avait décidé de poser son stylo et se taire, car il était –d'après lui- le résultat d'un moment pathologique de l'histoire (qui était le colonialisme), mais juste après l'indépendance de son pays, l'écrivain voyait s'ouvrir les horizons

qui promettaient un avenir saint, ce qui le poussa à renoncer à cette idée.

Lui qui avait cessé d'écrire des romans, dirigeait avec constance et foi la page culturelle d'En Nasr –lorsque le journal était encore en français – 1965-1968 (Jean Déjeux), ces articles-là serrent de corpus pour la thèse intitulée : « *l'expérience créative de Malek Haddad à travers ses articles dans le journal EnNasr 1965-1968 traduction et étude descriptive analytique* »

Pendant trois longues années, il s'est exprimé sur le colonialisme, l'école, la littérature, la culture, le tourisme, et les moyens audiovisuels avec une langue poétique dans des articles de plusieurs styles : reportage, réflexion, opinion, billet, conte et nouvelle. Et pour ce qui est méthode d'étude, j'ai vu que la méthode descriptive analytique était la plus adéquate. La thèse est composée de trois chapitres, une introduction et une conclusion.

Malek Haddad n'a jamais cessé d'écrire et cela malgré ses déclarations qui nous renvoient directement à l'exil de la langue. Il a publié en 1967 un long et beau poème « *Je suis chez moi en Palestine* » (An Nasr, 3 Juin 1967), et plusieurs manuscrits demeurent inédits.

السيرة الذاتية لمالك حداد:

- ولد مالك حداد في الخامس من جويلية 1927 بمدينة قسنطينة أين زاول دراسته وأصبح معلما بعد ذلك لفترة قصيرة.

- سجّل في جامعة الحقوق في Aix – en- Provence، ثم تخلى عن دراسته بعد 1954 ليعمل في الزراعة رفقة كاتب ياسين. وساهم خلال الثورة التحريرية في مجموعة من الدوريات: Entretiens, Progrès, Confluents, Les lettres françaises، كما عمل لبعض الوقت في الإذاعة الفرنسية، وكتب من 1958-1961 رواياته بمعدل رواية في كل سنة.

غادر فرنسا للقيام بمهام في روسيا والهند ومصر لصالح جبهة التحرير الوطني. يعود بعد الاستقلال إلى قسنطينة مسقط رأسه، ليكون مسؤولا عن الصفحة الثقافية لجريدة النصر (1965-1968).

انتقل إلى العاصمة ليشغل منصب مستشار ثم مديرا للأدب والفنون بوزارة الإعلام والثقافة، وأسّس مجلة آمال عام 1969.

سهر على المجاهد الثقافي الذي ظهر من ماي 1971 إلى جوان 1977 .

كان أول أمين عام لاتحاد الكتاب الجزائريين في الفترة ما بين 1974-1978.

توفي في 2 جوان 1978 بالعاصمة بعد مرض عضال.

مؤلفات مالك حداد:

*Le Malheur en danger (poèmes) 1956.

*La Dernière Impression (roman) 1958.

*Je t'offrirai une gazelle (roman) 1959.

*L'Elève et la leçon (roman) 1960.

*Le Quai aux fleurs ne répond plus (roman) 1961.

*Ecoute et je t'appelle (poèmes), précédé de l'essai Les Zéros tournent en rond 1961.

جريدة النصر في سطور:

- النصر يومية إخبارية وطنية تصدر في مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري.
- أُمِّمَت في 17 سبتمبر 1963، وأُسِّسَت في 28 سبتمبر 1963.
- كانت في البداية تحت إشراف جبهة التحرير الوطني، ثم أصبحت تحت وصاية وزارة الإعلام ابتداء من 16 نوفمبر 1967.
- عُربت جزئيا (صفحتين) في 5 جويلية 1971.
- عُربت كلياً في 1 جانفي 1972.

الملحق

La signification d'un drapeau (lundi 05 octobre 1965)

Oh bien sûr, il ne s'agit pas de s'éterniser dans la rancœur, la rancune et le ressentiment. Il est bien rare que les proverbes se trompent, et pourtant l'un des notre, compris d'une certaine manière, est de mauvais conseil qui dit « le passé est mort ». L'histoire n'aime pas les amnésiques et les relègue au rayon des produits incolores, incohérents, inconsistants, incomplets.

Un peuple qui se coupe de son passé est un arbre qui se coupe de ses racines et se prive dès lors d'un avenir original et stable. En s'amputant de sa personnalité profonde, il renonce à sa contribution à l'équilibre et à la civilisation mondiale. Il cesse d'être lui-même pour ressembler à son ancien conquérant. TOUT SIMPLEMENT IL CESSE D'ETRE. Par ces jours de rentrée scolaire où les méditations et les réflexions s'actualisent devant les impératifs de la réalité il est bon de s'en souvenir, sans grandiloquence aucune on peut dire que le rôle de nos enseignants se mesure à l'échelle historique.

La pédagogie s'élargit et trouve une autre dimension. L'école devient la gardienne de toute une éternité.

L'Algérie paya son indépendance au prix fort, sans hésitations et sans marchandages, notre guerre de libération fut un long calvaire dans l'arsenal infernal des armes et le vocabulaire diabolique d'un combat sans merci. Napalm, ratissages, tortures, exécutions sommaires, prisons, camps de concentration, exil, incendie, vols et viols, villages rasés... cette monotone et lugubre litanie résonnera long temps, résonnera toujours dans nos cœurs et dans nos mémoires.

Le bilan se résume et se ramène à des mots écrits en lettres de sang ; à des chiffres sans pitié, des chiffres qui se passent de commentaires, des chiffres abominablement éloquents : un million cinq cent mille morts !

Un million cinq cent mille morts ! Plus du dixième de notre population !...

Déjà la vie dans sa vigueur incassable reprend ses droits.

L'élan vital s'affirme dans une sorte d'optimisme mécanique et quasiment biologique. Le grain ne meurt pas. Des enfants naissent. Les villages se reconstruisent, les blessures se cicatrisent et les

sourires même empreints d'une indélébile gravité reviennent sur nos lèvres. Les regards, même chargés d'une impérissable mélancolie s'éclairent en se tournant vers les lendemains.

Un million cinq cent mille morts ! C'est beaucoup, c'est énorme, c'est affreux, c'est trop... l'imagination ne réalise pas, l'intelligence reste confondue. Les mots avouent leur impuissance. Devant ce carnage, devant ce bilan les mots ne font pas le poids.

La vie dans sa vigueur incassable, la vie qui reprend ses droits a parfois un goût de blasphème. Malgré les chagrins, les plaies, les souvenirs, malgré les traumatismes de toutes sortes, elle continue à l'appel d'un instinct mystérieux et merveilleux. La permanence des nations est faite de ces commencements et de ces compensations. Et le meilleur hommage que nous puissions rendre à nos morts, en nous excusant presque leur survivre, est de transmettre leur message et de réaliser pour leurs enfants leurs espérances. La fidélité à un testament est la signification d'un drapeau, donne à signification à un drapeau.

Car, en vérité, l'enjeu de notre guerre de libération dépassait, et de loin, le cadre d'un combat contre l'occupant colonialiste. Il était d'abord, il était surtout pour toute la nation algérienne une question de vie au de mort en tant que telle. Les colonialistes l'avaient bien compris qui rejetaient l'idée même de notre existence nationale. Pour nous interdire l'avenir ils niaient notre passé, mais le pays algérien ne frôle de si près sa disparition, sa « néantisation ».

C'est en ce sens que notre indépendance est davantage qu'une victoire et que le mot miracle ne nous effraie pas pour la qualifier.

Par la vertu des armes et de l'intelligence nous avons emporté bien plus qu'une décision mais établi à la face du monde notre volonté, d'être Algérien dans une Algérie Arabe, Musulmane et tourne vers les somptueuses possibilités qui s'ouvrent aux temps modernes.

Les fruits et les fleurs ne sont pas des épiphénomènes. Ils couronnent la patience réactrice de la sève que les racines sont allées puiser au cœur du cœur de notre histoire nationale.

CELA S'APPELLE COLONIALISME !...(26 Janvier 1966)

IL est là ce chapeau qui nous faisait rêver, ce chapeau que nous tissions de notre impatience et de notre colère dans l'impatience sacrée de l'obscurité impériale. Devant nous et pour nous, cette Patrie qui se lève et qui se relève, qui assure ses premiers pas, qui s'assure de ses forces et de ses faiblesses. Non, les mots n'ont pas encore perdu de leur vertu, de leur signification et cette lassitude que je lis

dans certains regards, que je vois gravée sur certains fronts, ce pessimisme vaguement masochiste qui noircit certains sourires, ce scepticisme de défaite qui obstrue systématiquement les horizons, cela s'appelle colonialisme !

Cela s'appelle colonialisme avec un goût de cendres et de regrets, et cette autre impatience – ni sacrée ni légitime -- et cette autre impatience, cette gueuse ! – et la paresse qui tient lieu de logique et qui croit aux miracles !... et les formules définitives, les formules sans appel, les exigences et les comparaisons, les programmes prophétiques alentour des oisivetés, cela s'appelle colonialisme !

Cela s'appelle colonialisme et pourtant notre Patrie est libre, et pourtant notre pays est indépendant. Il ne s'agit plus bien sûr de l'habituel rapport de subordination du vainqueur et de vaincu, de l'occupant et de l'occupé, du « sauvage » et du « civilisé ». Le colonisateur s'en est allé, répudié par l'Histoire, condamné par la Morale, (...) par une guerre coûteuse, glorieuse et salutaire.

Le crime suivit parfois à l'assassin, le mal au microbe, les effets à leurs causes.

Certaines défaites n'ont pas pour cadre un champ de bataille, pour ce décor une totale ronde. Elles s'enregistrent dans les domaines de l'intelligence, je serais tenté d'écrire de l'Ame si ce mot n'était prétexte à refuges métaphysiques. C'est alors la victoire de l'Absurde, la négation d'un noble et bienfaisant combat, le règne de la morne contradiction. C'est d'abord et toujours un manque d'amour-propre national, un renoncement à sa dignité personnelle, manque et renoncement qui puisent leurs racines dans le goût du confort et d'un ordre qu'assurait une tutelle rodée pour refuser leur majorité aux peuples qu'elle s'était asservie. Cela s'appelle Colonialisme !

Dès lors, les critères originaux s'en vont à la dérive, les bases référentielles sont d'importation, les tables de valeurs d'emprunt.

Ce dimanche à Chréa, la neige était si belle qu'on se serait cru à Morzine.

Ce petit coin de plage qui attend la pénombre sourit aux mouettes, on se croirait au Lavandou. Ces oliviers qui dévalent les coteaux bucoliques des montagnes Kabyles rappellent la Haute Provence...

Qu'un paysage soit beau, qu'une clinique soit bien entretenu, qu'un lycée tourne rond, qu'une administration marche bien et voilà nos nostalgiques du temps passé se reconforter de la ressemblance du maître et de l'élève, du modèle et de sa copie. Que des insuffisances se manifestent et voilà cette fois mesurant la différence, les voilà comparant, les voilà faisant l'apologie systématique de l'Algérie pré-indépendante. Je ne parle pas des filles qui étaient plus abordables, des brasseries avant la « cafémorisation », des boîtes de nuit aimables, des hôtels mieux gérés, des médecins plus qualifiés. C'est donc que le bonheur habitait autrefois cette terre algérienne et que le bonheur est synonyme de colonialisme.

On peut pousser très loin le syllogisme. Pour ceux-là qui se vautrent dans le regret, qui se sentent étrangers ici, qui confondent leurs sujets réels de mécontentement avec je ne sais quelle malédiction et quel malheur définitif, nous pensons qu'ils ont tort de demeurer plus longtemps parmi nous, de souffrir inutilement, de geindre stérilement. Qu'ils partent !

Le départ est souvent une fuite devant ses responsabilités. Celui qui croit au ciel, celui qui n'y croit pas n'a qu'une existence à vivre sur cette terre, tout comme chacun de nous. Le départ est souvent une fuite. Cela s'appelle Colonialisme !

Il n'est pas dans mon propos et dans mes intentions d'affirmer que tout va pour le mieux dans le meilleur des mondes. L'optimisme excessif et le dénigrement systématique finissent toujours par se rejoindre dans le creux impitoyable des mêmes contradictions.

Par chez nous tout est à faire, à défaire, à refaire, à parfaire. A chaque jour suffit sa peine, à chaque jour suffit sa joie. Il nous appartient de hâter la mutation, le passage du patriotisme au civisme les problèmes qui nous assaillent sont d'ordre politique, c'est-à-dire en fin de compte économique. Nos difficultés sont à la taille de cette énorme contradiction qui pèse à l'échelle planétaire sur nos destins : la répartition mondiale en états nantis et en Etats en voie de développement. Des millénaires d'Histoire nous ont appris que les hommes ne font pas de miracle. Il est plus facile encore d'envoyer un engin sur la Lune, que d'offrir aux hommes de bonne volonté un clair-de-lune dans la décence bleue d'un moment de chimère.

Le désespoir est une victoire de la nuit. Cela s'appelle aussi Colonialisme.

Les yeux et la mémoire (18 Mars 1967)

Ce roman qui commence à la fin de la guerre, ce roman qui n'en finit pas, qui n'en finira jamais de la mise en état à sa gestion, de la blessure qu'on cicatrise au jardin qui nous honore, de la fleur de l'âge à l'âge des fleurs, ce roman qui commence par l'avant-propos des programmes à réaliser et que préfacèrent notre enthousiasme et notre bonne volonté, ce roman, nous souhaitons qu'il débute par la table des matières. Nous entamons seulement un nouveau chapitre.

Nous dirons nous le redirons nullement pour convaincre et moins encore pour rassurer, en évitant le douloureux sourire de la magnanimité, nous le dirons, nous le redirons nous le répétons jusqu'à ce que la vie s'en suive, jusqu'à ce que compréhension en découle, l'Algérie, de par sa nature de par son âme, de par sa lucidité, de par son génie propre, est inapte, est étrangère à la haine, à la rancœur, à la rancune.

Elle respecte trop ses souvenirs pour les entacher de tous ce qui pourrait les dénaturer. Inapte et étrangère à la haine, maîtresse de ses réflexes, généreuse au de-là du croyable et parfois du possible, l'Algérie n'oublie pas, l'Algérie n'oublie rien. Un peuple amnésique est un peuple sans passé. Un peuple sans passé est un peuple sans âme.

Cela ne peut exister !...

Je me faisais ces réflexions, dans cette grande brasserie d'Alger qui conserve un air insupportablement anachronique du « déjà-vie ». Cette brasserie qui tourne rond, qui marche bien et ou certains clients « européens » en toute bonne foi, en toute innocence, en toute gentillesse, en

toute inconscience en toute muflerie tutoient certains « garçons » Algériens qui eux les vouvoient, bien sûr, ce tutoiement n'a pas la morgue des tutoiements d'avant-guerre. (il s'agit de notre guerre de libération évidemment) bien sûr il se veut débonnaire, familier, intime, fraternellement, désinvolte.

N'importe ! C'est le tutoiement du colonialiste au colonisé et le racisme n'est pas très loin ! Vous me direz qu'un tutoiement c'est vraiment peu de choses, qu'il ne faut pas « chercher la petite bête », faire des procès d'intention. Erreur ! Je répète que les serveurs algérien en question- j'allai écrire indigène- vouvoient eux les clients européens en question. Si j'en ai souffert et si je l'ai remarqué c'est que ces compatriotes n'en semblant pas offusqués.

La colonisation est une longue et vieille habitude. Elle se manifeste très souvent par des réflexes de colonisateur et réflexes de colonisés. Je n'ai pas une susceptibilité malade. Un amour propre particulièrement maladif mais je sais dans certains tutoiements surnoisement unilatéraux, la preuve que l'entreprise de décolonisation n'est pas achevée, dans un sens comme dans l'autre.

La somme d'une volonté de vivre

Ce drapeau qui flotte sur ma patrie n'est pas seulement le symbole du territoire retrouvé, reconquis, les armes à la main, le symbole de notre souveraineté, mais d'abord et tout autant celui de notre dignité d'algérien.

Ce drapeau qui flotte dans le ciel lavé de notre victoire, il n'est pas le simple signe distinctif de notre pays il est le résultat, la somme d'une volonté de vivre, d'une volonté d'être. Il est notre revanche sur la nuit infâme et vulgaire du colonialisme qui méprise l'homme, qui déshumanise l'homme, qui avilit l'homme qui rapetisse l'homme, qui amoindrit l'homme, qui nie l'homme, le prénom Fatma était devenu un métier !...

Bien sûr dans le domaine culturel comme dans tous les autres domaines, il faut produire, il faut construire, il faut édifier il faut créer. Il faut marcher, avancer, encore avancer.

Encore et toujours. Dans le domaine culturel, comme dans les autres domaines, c'est une question de vie ou de mort, c'est une question d'amour et c'est une question d'honneur. Ces impératifs catégoriques ces actions bonnes, belles et utiles n'auront de sens et de signification que pour autant qu'elles s'appuient sur notre passé, sur une connaissance solide et fouillée de la longue histoire de notre peuple. Histoire qui trouva son apothéose dans notre guerre de libération, nous avons eu l'énorme privilège d'être les contemporains d'un des plus sublimes moments de l'histoire humaine : la révolution algérienne. Nous avons eu le privilège d'en être les survivants. Peu d'artistes ont eu cette occasion de vivre l'histoire au jour le jour.

Pas question de tourner la page

Pas question d'oublier

Que de films que de livres que de symphonies que de toiles sont encore à réaliser, à écrire, à faire ! Que de ressources créatrices recèlent ces années de malheur et de gloire, de sacrifice et de

tendresse, d'épreuves qui semblaient vérifier et tester à chaque seconde le degré de validité de notre peuple. Il ne suffira pas d'une vie entière et de toute une génération pour tenter de fixer et d'éterniser cette geste et cette épopée ce rêve et cette réalité.

Ce n'est pas en tournant le dos à notre passé qu'on ouvre ses yeux sur l'avenir. Il ne s'agit pas évidemment de s'enliser dans l'ornière stérilisante de l'idée fixe, dans l'anecdote inlassablement répétée du souvenir qui finit par être radotage. Il ne s'agit pas de s'enfermer dans une chronique plus ou moins poétique de nos années lugubres. (Au cœur de ses années lugubres veillait l'incassable espérance). Il ne s'agit pas surtout de se limiter de se complaire dans une obsession qui pour être honorable n'en finirait pas moins par être malsaine. La tentation est grande de faire table rase, de dire « maintenant que nous sommes indépendants, n'en parlons plus ».

La tentation est grande de se réfugier dans un présent coupé de ses racines de tirer un trait, de passer l'éponge.

Une Algérie retrouvée

Nos jeunes qui ont vingt ans aujourd'hui donc qui n'ont pas connu le colonialisme et qui n'ont pu connaître et penser la guerre de libération, particulièrement dans le domaine culturel, ont le devoir d'avoir sans cesse à l'esprit cette évidence : ils sont les citoyens d'un pays indépendant de par la volonté de tout un peuple qui paya sans marchander cette indépendance.

Je n'entends pas les voir se lier par une dette de reconnaissance qui deviendrait un carcan ou une hypothèque. Ils ne sont ni plus ni moins respectables que leurs aînés. De la libération à l'édification du pays la tâche et la même et se poursuit. Mais cette édification sera d'autant plus solide, ingénieuse et rationnelle que les fondations que les fondations ne leurs seront pas inconnues et que la volonté de nos martyrs véritable pacte et contrat qui nous lie à eux, ne restera pas lettre morte. Cette volonté s'est inscrite, dans les faits d'hier, elle doit se retrouver dans ceux d'aujourd'hui.

Elle s'est inscrite, elle s'est écrite sur les stèles et sur les murs de prisons : Elle parle d'une Algérie redevenue elle-même d'une Algérie retrouvée, d'une Algérie restaurée, dans son territoire, sa souveraineté et sa culture. Elle dit mille et mille actes d'héroïsme, d'abnégation, de modestie, d'intelligence, de drames, de tragédies, d'optimisme crispé ou souriant. Elle raconte l'énergie d'un peuple que prend les armes comme on relève un défi et comme on défi le sort, avec les moyens du bord, contre une des armées les plus modernes et les plus puissantes du monde. Elle dit cette levée en masse de la colère et de l'honneur, cette participation collective et unanime, debout, dressé dans la plus merveilleuse des entreprises de colonisation de tous les temps. Nous avons là, matière à création artistique, matière inépuisable et sans cesse renouvelée, matière riche et enrichissante matière inépuisable. Un foyer permanent d'inspiration et de méditation.

Car il faut se garder d'apprécier la guerre d'Algérie dans sa seule matérialité : Deux adversaires en présence, une guerre, des combats terribles, une table ronde, des négociations, l'indépendance.

Notre guerre d'Algérie n'est pas une suite d'évènement, une simple succession de faits dans une chronologie froide et irrésistible.

Bien au contraire elle se confond, elle s'identifie avec l'âme, avec le génie même du peuple algérien dont elle fut l'expression directe et fidèle de la pensée. La guerre d'Algérie est aussi une réalité spirituelle, morale, intellectuelle. C'est là un de ces aspects qu'on ne met pas toujours assez en relief. Le premier novembre 1945, en prenant les armes, l'Algérie entendait renouer avec elle-même, sa culture arabo-islamique millénaire enrichie de toute la diversité de ses particularités régionales.

Elle n'entendait pas rejeter une culture qu'on imposa à quelques privilégiés- et toutes les cultures sont responsables- mais d'abord et avant tout retrouver la sienne. La guerre d'Algérie comprise de cette manière, fut en même temps un acte d'espérance et un acte de nostalgie, réalisant ainsi la synthèse du passé et de l'avenir- un acte d'espérance et un acte de nostalgie, détruire la parenthèse coloniale, résorber ce hiatus de notre disgrâce historique, renouer le fil de notre perpétuel devenir, nous resituer dans nos véritables coordonnées, savoir ce que nous sommes pour devenir ce que nous voulons être.

Est-ce à dire qu'il faille, au nom de ce passé qui nous est cher, qui nous est nécessaire, qui nous est indispensable est-ce à dire qu'il faille nous immobiliser dans une contemplation négative et une référence stérilisante ? Ce serait alors là un mauvais prétexte pour ne plus avancer et avoir une vue statique des choses.

Notre connaissance de notre passé, notre fidélité à ce passé, outre qu'elles peuvent nous donner une grande leçon d'humilité et la juste mesure de ce que nous sommes, sont l'occasion d'un souffle nouveau, d'une marche constamment en avant, d'une progression constante, continu et salutaire. Ce passé ne doit pas être un carcan, des veillées, un frein à notre développement dynamique. D'autant que dans le domaine culturel, les œuvres se rient du temps et s'équipent pour l'éternité. Je sais bien qu'un chef-d'œuvre est toujours d'actualité. La guerre d'Algérie fut un chef d'œuvre d'humanité. C'est parce qu'il connaît à fond sa piste d'envoi que le pilote arrache son appareil à la pesanteur, mais restera toujours en liaison avec sa base. On a dit que c'est en allant à la mer que le fleuve reste fidèle à sa source.

Dans ce matin qui vient notre mémoire et nos yeux se plongent dans nos regards rassurés.

La fin d'un mythe(24/06/1967)

Au ghetto d'une pensée malade des voix se sont élevées – certaines étaient chères – pour dénoncer le « péril arabe » et chanter « l'Etat » d'Israël. Qu'elles se réclament de la Bible ou du « Capital » ces voix se sont confondues dans un unisson suspect qui en dit long sur le prétendu humanisme des gens de gauche en Occident.

Qu'on le veuille ou non, directement ou indirectement, le mois de juin 1967 a vu des Jean-Paul Sartre et des Maurice Clavel se trouver du côté des forcenés qui incendièrent le bidonville de Nice, des

hystériques qui lynchèrent les étudiants arabes sur les Boulevards Saint-Michel et Saint-Germain de Paris. Et, qu'on le veuille ou non les pyromanes de la Côte d'Azur et les nervis du Quartier Latin sont ceux-là qui braillaient « Algérie Française » à une époque qui n'est pas très lointaine.

La plupart des orateurs, des signataires de pétitions, des auteurs de profession de foi en faveur du Repaire Sioniste rappelaient, avec une naïveté puérile qui pourrait être à mon sens leur seule excuse, leur conduite pendant la guerre d'Algérie. Attendaient-ils peut-être que l'Algérie leur délivrât un certificat de bonne conduite ! Il n'y a aucune gloire ce me semble à dénoncer le colonialisme, tout au plus un simple courage et une simple probité quand c'est son propre pays qui l'a instauré. D'ailleurs, l'Histoire dira que c'était plus un service qu'ils rendaient à la France qu'une aide décisive qu'ils nous apportaient. De toutes manières et en aucun cas le fait d'avoir aidé ou salué le FLN ne les autorisait à dissocier la lutte pour l'indépendance algérienne de tout un contexte de lutte anticolonialiste. On ne peut sincèrement être pour l'Indépendance Algérienne sans du même coup souhaiter la libération de la Palestine. On ne peut condamner l'impérialisme français sans condamner l'impérialisme anglo-américain et sa base avancée d'Israël.

Il ne s'agit pas d'une simple contradiction. Il s'agit d'une attitude profonde et ressentie, d'un comportement viscéral à l'égard des colonisés et des Arabes en particulier, d'un sentiment et d'un ressentiment enfin mis à jour, en fin avoué, à la lumière dramatique de la guerre au Moyen-Orient. CE SENTIMENT ET CE RESENTIMENT PLONGENT LEURS RACINES DANS LA NUIT DES TEMPS ET JE SERAIS TENTE D'EMPLOYER LE MOT CROISADE SI LE CHEMIN DES OLIVIERS NE CONDUISAIT A UN PUIITS DE PETROLE. La vérité est que ces gens qui se disent « de gauche » se sont habitués à être des colonisateurs même quand ils prétendent combattre le colonialisme. Ils sont atteints à des degrés divers du même mal et de la même malédiction et le fait qu'ils s'en défendent ne change rien à l'affaire. Il y aurait toute une psychanalyse à faire du colonisateur. Le processus de décolonisation ne s'est pas encore amorcé dans les cerveaux de ces intellectuels qu'une simple dérision de langage situe à « gauche ». C'est donc, les malheureux, qu'ils n'ont rien compris à l'Histoire et que l'Histoire se fera sans eux...

Aujourd'hui, nous sommes en droit de nous demander si ces « penseurs » qui avaient souhaité l'Indépendance algérienne n'avaient pas construit et projeté une Algérie qui ne correspond en rien à l'essence même de notre pays, une Algérie à leur image, une Algérie finalement française. Le fait est là : ils avaient amputé l'Algérie de ses deux caractéristiques fondamentales et essentielles, de ses deux éléments premièrement constitutifs, à savoir l'arabisme et l'islamisme. Il n'est pas jusqu'au Socialisme qu'ils souhaitaient chez nous qui ne fût dans leur esprit le prolongement exporté d'une éthique et d'une méthode qui nous sont étrangères. Ils rêvaient d'une Algérie élaborée à l'écart de son identité propre. Le colonialisme n'avait rien voulu, n'avait rien tenté d'autre. Ils rêvaient d'une Algérie à l'écart de son destin. Ils nous refusaient d'être ce que nous sommes réellement. Il ne restait plus à ces pygmaliens de la plume et du micro qu'à coiffer leur calvitie politique de la casquette du Père Bugeaud pour se préserver de l'insolation arabe. C'est chose faite.

Nous n'aimions pas la même Algérie et tout est là qu'il n'y a qu'une seule Algérie. La nôtre. La nôtre, celle que nous attendions, celle que nous connaissions et que nous reconnaissons, une Algérie ayant

récupérée son âme, une Algérie réintégrée dans sa vocation, restaurée dans son destin, une Algérie ancienne et nouvelle, une Algérie raccordée à son Passé et offerte à l'avenir.

Ceux qui s'étonnent aujourd'hui de nos options et de notre détermination n'étaient pas nos amis. Ils se croyaient nos maîtres et ils pensaient pour nous. L'agression sioniste au Moyen-Orient Arabe aura eu la vertu en quelque sorte de clarifier les choses, voire de les simplifier. En tous cas elle marque la fin d'une équivoque et d'une ambiguïté. Elle a permis aux intentions véritables de se révéler, aux opinions profondes de se manifester. Elle a surtout été l'occasion d'une extraordinaire démystification dans le monde des romanciers, des poètes, des peintres, des cinéastes, de la chanson, du journalisme. Il est significatif qu'un Pablo Picasso – même un Pablo Picasso – auteur de Guernica ait signé un manifeste en faveur d'Israël lui dont le pinceau n'a jamais dit le martyr du peuple palestinien. Sartre s'est autant sali les mains...

Car en vérité il n'y avait pas de choix à faire, il n'y avait pas d'hésitation possible. Il n'est pas jusqu'à l'erreur qui ne devienne un crime quand elle se fait au profit d'une guerre coloniale. Les assassins ont trouvé leurs porte-paroles et leurs chantres.

La gauche intellectuelle occidentale a été la première victime de l'agression sioniste : elle est morte en Israël.

La mémoire du peuple (26 /Août/1967)

On reproche souvent à notre littérature d'être une littérature de circonstances, de n'avoir pas su ou pas pu se dégager d'un cadre historique donné, de n'avoir pas su ou pas pu se libérer d'une véritable obsession politique, et de ce fait d'avoir une portée internationale restreinte. On lui reproche donc d'exister à cause de l'événement directement ou indirectement ! De là à affirmer que notre littérature n'est qu'un épiphénomène le pas est vite franchi par ceux qui recherchent le confort de l'abstraction et de l'évasion, par ceux qui pensent atteindre à l'universel en brûlant les étapes de la petite réalité quotidienne, locale, nationale. L'Homme, avec une majuscule, devient de plus en plus à la mode. On le place très loin, on le situe très haut, on le sublime, on l'analyse, le psychanalyse, le dissèque, le tourne et le retourne, feu-follet surréaliste, on l'étudie à toutes les sauces de la névrose. On l'invente puisqu'on ne le connaît pas. Et puisqu'on ne le connaît pas on ne l'aime pas, on ne peut vraiment l'aimer.

Alors que l'homme est là, tout proche, tout près de nous, en nous, dans la simple mesure de la vie qu'il affronte tous les jours, dans la juste dimension d'un destin banal et pourtant incomparable.

C'est parce que notre littérature est un moment fidèle, un moment ressenti de notre Histoire nationale qu'elle peut prétendre à l'universalité, qu'elle est authentiquement humaine et que par-là, elle a sa place dans la culture du monde. Il est évidemment prématuré d'en dresser un bilan, d'autant que toute œuvre est un roman inachevé, qu'elle s'inscrit dans un ensemble, qu'elle se poursuit dans

cet ensemble éternellement en mouvement et en devenir. Elle est un des aspect dynamique de notre réalité nationale. Le Chant du Monde commence aussi en Algérie.

LE Chant du Monde a jailli de la mémoire des peuples comme une source autobiographique, le Geste et la confiance aux étoiles, la plainte et la complainte, l'amour aux yeux d'inquiétude, la colère du torrent, la jalousie, la patrie sous ses chaines ; la patrie libérée, la nuit qui nous console et l'aube qui nous rassure.

Le Chant du Monde est né d'une prière d'un soleil de Novembre, d'une injure en juillet, du berger entrevu dans l'éternité pastorale du Sersou, de l'endroit sanctifié par la pierre blanche au sommet de la montagne, du marin qui laboure son espérance, de la forêt qui se souvient. Il nous vient tout d'abord de cette terre douloureuse, tragique, de ces horizons qui veulent parler et qui nous parlent. Que chaque Algérien raconte sa vie et c'est un roman, un film, une chanson, une toile... !

Jamais destin ne fut plus riche, plus dense, plus bousculé, nous n'aurons jamais le temps de tout dire, de tout raconter, de tout peindre, de tout chanter !

Ce petit Monsieur tranquille, anonyme, dans ce petit village tranquille et anonyme, ce petit monsieur qui essuie ses lunettes, un peu myope, un peu timide, il suffit qu'il se souvienne et alors c'est toute l'Histoire de ce demi-siècle qui éclate, qui revit. Condamné à mort en 45 ! Prisons, tortures... Il parle doucement. Les héros chez nous ne savent pas qu'ils sont des héros...

CETTE jeune femme au sourire un peu trop grave peut être, cette jeune femme qui berce un enfant après avoir desservi la table, cette jeune femme silencieuse et effacé, une ménagère comme il y en a tant et tant, si elle voulait se pencher sur son passé, elle ferait la fortune d'un romancier ou d'un scénariste. Le maquis à l'âge où les jeunes filles rêvent à leur avenir. Le maquis, la montagne, la peur, les avions, les embuscades, marcher, encore marcher.... Puis un jour la prison colonialiste. La torture. Elle sera libérée avec l'Indépendance, grâce à l'Indépendance....

Cette vieille maman, si vieille qu'elle n'a plus d'âge et déjà une allure d'immortalité, cette vieille maman – deux fils et une fille au maquis, un fils tué au combat, une autre fille et un autre fils en prison –, cette vieille femme qui ne veut pas croire à la mort de ses enfants et qui va demander de leurs nouvelles à l'officier ennemi... et l'officier ennemi la reçoit. Et l'officier ennemi la fait entrer dans une petite cour, et l'officier ennemi lâche sur elle quatre chiens enragés... une vieille femme de chez nous très paisible très croyante et très pieuse. Une vieille femme de chez nous comme il y en a tant et tant, et qui remercie Dieu d'avoir vécu assez longtemps pour avoir vu flotter le drapeau dont elle sait le prix.

DU Nord au Sud, et de l'Est à l'Ouest, qu'elle fresque ! Quel monument ! Quelle symphonie !

C'est là, c'est là qu'il faut chercher, qu'il faut creuser, mettre à jour, c'est là que se dégagait un talent véritablement algérien, une authenticité algérienne, une vérité. C'est là une somme inouïe de courage et de tendresse, de patriotisme, de civisme, d'humanisme en action, c'est là un tour de force prodigieux de l'homme qui veut vivre et qui veut vivre libre. On ne dira jamais assez que cette guerre

d'Algérie ne fut pas seulement une guerre pour l'Indépendance nationale, mais aussi, mais tout autant, une contribution inestimable à la liberté et à la libération de l'Homme, où qu'il se trouve. Elle a libéré le colonisateur lui-même. Tant cette évidence se vérifie toujours : un peuple qui en asservit un autre ne saurait un peuple libre.

Du Nord au Sud, de l'Est à l'Ouest, tous ses destins brisés, vénérables, tous ces destins ressuscités, tous ces destins réhabilités par la vertu de l'Indépendance, attendent le poète, le peintre et le musicien qui rappelleront à nos enfants, qui ne doivent pas l'oublier ou l'ignorer, le prix de notre drapeau.

Il appartient à l'homme de culture, au créateur, à l'artiste de rester sans cesse à l'écoute de ce chant profond qui déjà s'écoule aux flûtes des bergers, que des poètes anonymes reprennent de village en village. Armé de toutes les techniques que lui offrent aujourd'hui, les merveilleux moyens audio-visuels, il plonge dans la mémoire des hommes, dans l'infaillible mémoire du peuple pour le fixer à tout jamais, pour l'éterniser par la magie de la parole, du son et de l'image.

Cet acte salutaire de restauration et de restitution entre tout naturellement dans l'édification de toute l'entreprise nationale. La culture n'est pas un luxe et l'on se rend compte chaque jour de sa nécessité vitale. Elle est aussi nécessaire à notre existence que le pain que nous mangeons. Elle n'est pas un luxe et ne doit plus être un privilège.

Elle est chez elle, dans le peuple, dans son affectivité et sa mémoire, comme la terre renferme la nourriture que la moisson livrera. Les terres en friches sont lourdes de promesses. Nous n'avons d'autre mission que d'aider à leur mise en valeur.

Présence de Novembre (28/10/1967)

Ce n'est plus, tous les ans, les feuilles qui frissonnent, un coin de mélancolie par-dessus les toits, la fumée plus lourde aux horizons qui renfrognent, ni la plaine plus émouvante, ni la mer plus lointaine, ce n'est plus seulement le chemin des écoles, les premières habitudes, ni les aurores équivoques, ni la pénombre latente, ni cette sorte de tristesse tacite qui va si bien aux hautes-terres, non, ce n'est plus maintenant qu'un été qui finit...

Ce n'est plus désormais un mois entre les mois, une saison parmi les autres, et le grand manège sidéral qui nous le ramène aujourd'hui, nous le ramène aussi pour que nous nous souvenions.

Novembre ! Tu serais passé inaperçus si des hommes n'avaient choisi de l'honorer de leur amour, de leur colère, de leur sang. Au calendrier sans histoire des destins acceptés, tu aurais rappelé la pluie que l'on attend pour les labours, pour les semailles, les fruits qu'il faut cueillir, le bois qu'il faut rentrer, un changement d'horaire, un changement de vêtements, des journées plus courtes, des nuits plus longues... Au calendrier sans histoires des destins acceptés, des destins rabougris, des destins

taciturnes, une somme insipide et cruelle de semaines informes... Au calendrier des automnes à perpétuité.

Le culte du souvenir – et quel souvenir !- n'est pas purement sentimentale, une attitude nostalgique, figée, une contemplation passive du passé. On peut relire cent fois le même livre et toujours le découvrir pour la première fois, avec la même ferveur, la même vigueur et le même émerveillement, en y puisant toujours et sans cesse de nouveaux enseignements. Car Novembre est un enseignement, une leçon, un programme. Il n'est pas l'occasion d'échapper au Présent, il se continue, il se poursuit dans le présent. Il ne suffira pas de toute une vie pour en prendre la mesure. Il débouche sur le Présent et déjà sur l'Avenir.

Avant le premier Novembre 1954, l'Algérie était peuplée d'habitant. Depuis Novembre – et sans même attendre le référendum de juillet 1962 qui n'a fait que légaliser une réalité indéniable – l'Algérie est peuplée de citoyens. C'est là un phénomène qui ne pouvait pas ne pas avoir de conséquences dans la vie profonde, dans la vie intime, du pays, dans tous les domaines et particulièrement dans le domaine culturel.

Depuis 1954, Novembre est sans cesse présent en nous, dans nos pensées comme dans nos actes, comme une mère est présente tout au long de la vie de son enfant, dans ses idées, dans ses réflexes. Tant il est vrai que Novembre est une naissance, un acte de naissance, et un baptême, celui du feu. Il est le paroxysme d'une âme nationale, d'un destin national.

Déjà le 8 mai 1945 comptait parmi ces dates qui sont les grands moments de l'existence d'un peuple. Déjà, ce printemps d'apocalypse, ce printemps des roses assassinées aux jardiniers du diable, déjà Sétif, Kherrata, Guelma étaient entrés dans le vocabulaire des poètes, des romanciers, des troubadours et des chanteurs. L'Histoire – on a trop tendance à la croire – n'est pas une chose passée, dépassée par le présent, une science vague que l'on retrouve dans les livres. Déjà le 8 mai 1945 avait prêté sa complainte et sa litanie à l'espérance en colère du peuple algérien.

1954, Novembre 1954, le ton monte dans le Chant Général, la braise devient incendie. Dès lors, les peintres, les musiciens, les écrivains ne se contentent plus d'espérer l'Indépendance, mais ils la chantent, la crient, la hurlent. Il ne s'agit plus de faire le procès du colonialisme qui s'est condamné lui-même, il s'agit de contribuer à sa façon, de participer à sa manière, à la lutte de libération nationale. Les lettres Algériennes trouvent leurs lettres de noblesse.

Novembre n'est pas seulement un anniversaire pour un peuple qui a tellement souffert, tellement saigné, pour un peuple qui a été tellement humilié, en vérité tous les jours sont des anniversaires, tous les jours sont mémorables. Novembre n'est pas seulement une simple revanche sur l'oppressions, le racisme, l'exploitation. Il est plus encore, il demeure plus encore une merveilleuse espérance. Il nous a donné et a donné au monde étonné la mesure de notre peuple, les dimensions de notre peuple. Il s'apparente désormais au génie même de ce peuple.

Ce n'est plus tous les ans les feuilles qui frissonnent, mais dans les brumes du Chéïa les aurores acquises, les aurores conquises.

Ce n'est plus, tous les ans, le premier laboureur dans le silence sanctifié de la plaine mais une âme pour sillon, une signification qui dépasse les blés, un cartable qui dépasse l'école, une semence qui dépasse la moisson.

Ce n'est plus, tous les ans, la fin d'un été, la fin des vacances, mais comme un rendez-vous avec soi-même, comme une prière tellement serine qu'elle en devient joyeuse, une montée de gratitude, une poussée de fierté.

La Présence de Novembre est aussi évidente que le jour qui se lève

Le racisme cette occasion perdue (20 Janvier 1968)

La décolonisation n'est pas un phénomène qui doit concerner seulement les anciens colonisés. Elle doit s'opérer tout autant dans les esprits des ex-colonisateurs.

Le colonialisme est une mauvaise habitude, une sale habitude, qui fausse les rapports et interdit les amitiés. Il compromet l'échange et l'enrichissement réciproques.

On devrait particulièrement y penser lorsqu'on a changé d'âmes dans l'enseignement. D'abord parce que l'enseignant se trouve dans une position de force : il a affaire à des jeunes qui en savent moins que lui, qui sont désarmés et soumis à son enseignement. Ensuite parce que cette matière qu'on lui confie est la plus précieuse de toutes, la plus fragile, la plus sensible : la jeunesse.

Si nous ne pouvons empêcher les imbéciles d'être racistes tacitement dans leur for intérieur, dans leur subconscient parfois, nous avons le droit et le devoir de les dénoncer, de les démasquer quand ce racisme est avoué, et qu'il risque d'entacher une noble entreprise, à savoir la coopération. Nous avons heureusement à l'esprit d'autres exemples de bonne volonté et de fraternité agissante et bienfaisante pour ne pas tomber dans une généralisation qui serait tout aussi injuste.

Nous ne forcerons personne à nous aimer : (et quel est cet amour qui nous viendrait de si bas !). Nous ne pouvons tolérer par contre que l'on nous manque de respect.

Notre jeunesse est ce que nous avons de plus cher au monde, elle est notre capital le plus précieux. C'est elle qui demain prendra en main la destinée du pays, elle pour qui le colonialisme ne sera qu'un souvenir historique, elle qui n'a pas vécu cette pathologie de l'Histoire et qui n'a pas à la connaître ailleurs que dans les livres, comme une curiosité monstrueuse et périmée...

Le racisme n'est pas seulement une faute de goût, une atteinte grave à l'homme, donc à sa propre dignité, il demeure un stupide anarchisme, un non-sens plus irritant que dangereux. Du moins dans notre pays.

Après notre indépendance – et même durant notre guerre de libération – l'étonnement de nos amis et de nos visiteurs fut grand de constater à quel point les Algériens étaient incapables de haine. Nos ennemis eux-mêmes reçurent là une grande leçon de morale. Surent-ils la comprendre ? Peu importe. Cette absence de haine procède d'une générosité lucide et donne la mesure d'une qualité humaine en même temps que les dimensions réelles d'un combat. C'est en ce sens que la guerre

d'indépendance algérienne s'inscrit comme un acte supérieur de morale universelle. Tout acte de décolonisation est ainsi une victoire humaine.

C'est justement parce que nous vivons au siècle des échanges, des grandes rencontres et des grandes confrontations que le racisme peut nous paraître puéril, fruit pourri d'un orgueil malade. L'avion à réaction et les moyens audio-visuels rétrécissent en quelque sorte la géographie, la mettent à notre portée. Comment dès lors ne pas mesurer la chance que nous avons de dépasser nos horizons, de comparer nos civilisations respectives sans nous poser en critère de civilisation, comment ne pas puiser dans cette humanité qui nous est offerte, s'en enrichir, plutôt que de mépriser systématiquement ce que nous ne comprenons pas, ce qui diffère de nous. Sur cette terre, tant pour celui qui croit au ciel que pour celui qui n'y croit pas, personne n'est supérieur ou inférieur à personne. Et lorsqu'on a le privilège et l'honneur de vivre dans un pays étranger, la délicatesse de l'hospitalité reçue devrait se traduire autrement que par des réflexions odieuses et infantiles.

Nous avons payé très cher le droit d'être maître chez nous et lorsque défendre sa dignité comportait des risques, les Algériens ont pris ce risque. A plus forte raison maintenant que nous sommes chez nous et indépendants.

Il n'est point dans notre propos de tenter une analyse et de proposer une définition au racisme. Et dire qu'il est odieux et stupide ne suffirait pas à le couvrir de ridicule et de honte. Il demeure surtout une occasion perdue de connaître et d'aimer l'autre. Il est un rendez-vous manqué avec l'humanité et finalement avec Dieu.

Nous savons la gloire luxuriante des couleurs de soleil sur nos terres, tout le talent du ciel sur la plus merveilleuse palette du monde. Nous savons vers le Ctettaba les horizons qui s'embrassent et tressaillent dans la somptueuse démesure de nos regards multipliés.

Dans le grand silence qui précède la nuit, soudain le crépuscule prend un goût de prière. La ville toute entière s'enveloppe d'émotion et frémit de noblesse. Et nous réalisons alors que ce coucher de Soleil est un hommage du ciel à la ville, cette ville noble et vieille, patiente et audacieuse, cette ville saupoudrée d'Histoire et d'espérance, cette ville-chef-d'œuvre, cette ville monument. Il couve dans ses rues une pénombre de tendresse et cette sérénité incomparable qui donne la mesure d'une civilisation, d'une âme, d'un style. C'est une ville sublime, pathétique et la conviction nous saisit que toute faute de goût, toute faute du cœur, serait un blasphème.

Le racisme est un blasphème.

La Rentrée Des Espérances (01 Octobre 1965)

Je me souviens, tous les ans, le ciel agité de l'automne. Je ne sais plus quel poète algérien a eu un jour se cri : « j'ai laissé mon cœur à l'école! » et qui d'entre nous n'a pas laissé son cœur à l'école ? Elle était notre premier rendez-vous avec la vie, notre première confrontation avec la réalité. Si le maître de mon enfance faisait aujourd'hui l'appel de ses élèves, il en manquerait certains et parmi

les meilleurs. Seul le pieux souvenir répondrait « présent » à l'appel des noms de ceux qui ne verront pas cette années le ciel fragile et poignant d'un premier octobre.

L'histoire est passée par ici et ceux qui la font rarement y survivent. Au tableau noir du colonialisme la liste est longue, si longue....Au tableau d'honneur de l'indépendance ces noms qui ne répondent plus à leur appel sont devenus des adjectifs qualificatifs. Ils ont signé le livre d'or de l'Algérie libre. Premier Octobre 1965. Cet enfant que je vois ce matin, tout fier et tout timide, bien conscient qu'un événement Co monstrueuse dialectique se vénement. Il ne va pas à l'école pour y apprendre que ses frères étaient gaulois, que les Arabes sont paresseux que les Kabyles sont travailleurs, les juifs, les polonais ivrognes et les Chinois sournois.

Heureux gamins qui entrent en classe comme on va à la fontaine. De mon temps on allait à l'école comme on s'expatrie. Les mots ne voulaient plus rien dire, l'absurde tenait lieu d'Éducation et le non-sens d'instruction.

Le système pédagogique colonial n'était qu'une entreprise de dépersonnalisation, de mutilation d'aliénation. Une vaste et concertée entreprise d'atomisation du «Moi Fondamental» Algérien. A l'agression militaire succédait l'agression de l'esprit. La rifiait en s'illustrant. La conrifiat en s'illustrant. La conquête des intelligences devait suivre celle des terres. Le «lavage des cerveaux» ne date pas d'hier.

Il fallait coloniser dans l'âme.

Écoutons ce que disait au début du siècle, un certain monsieur Bernard, pionnier de l'enseignement primaire en Algérie. Sous une apparente bonhomie et une douce séréntité le cynisme éclate tant il est vrai que le colonialisme n'est pas seulement une question de fusils. Écoutons donc ce noble pionnier :

«Ce n'est pas par générosité que l'Université peut répandre l'enseignement mais, disons-le bien haut, dans l'intérêt de la France, ce seul intérêt, toujours présent à notre esprit, a donné à notre enseignement son caractère, à nos maitres leurs méthodes et procédés, à nos programmes leurs formes actuelles. Il importe encore que les indigènes aient de notre part l'idée la plus élevée et la plus pire : nous donnerons donc à nos élèves, par des leçons appropriées à leur âge et à leur degré de culture, des notions sur la grandeur de la France, sur sa force militaire, sur sa richesse. Notre situation serait bien plus solide si les indigènes en arrivaient à penser «les Français sont forts et généreux, ce sont les meilleurs maitres que nous puissions avoir». L'école indigène, dans sa forme actuelle, par sa double action bienfaisante n'est pas seulement un instrument de rénovation morale ; elle est surtout un instrument d'autorité et un moyen d'influence ; elle fera de nos sujets un membre très utile à la colonie, un fidèle auxiliaire de la France».

Il est inutile je crois de commenter cette prose. L'éclipse a pris fin, la langue arabe reprend ses droits, car il ne sera jamais assez répété que l'Algérie qui se débat dans le présent, qui veut vivre dans le présent, n'a pas seulement un Avenir à préparer, mais un passé à explorer, à découvrir, à gérer. Le

retour aux sources n'est pas un réflexe rétrograde de marche à reculons mais un souci positif de bilan dynamique. .

Premier Octobre 1965. Face à des difficultés qui font le drame et l'honneur de nos enseignants et de nos amis coopérants, l'État assume dans sa terrible complexité les rentrées scolaires.

Cette course au soleil est la juste revanche d'un peuple avide de savoir, d'un peuple qui prend ses inscriptions à l'université des aurores.

Premier Octobre 1965. Cet enfant qui je vois ce matin, tout fier, tout timide, bien conscient qu'un événement commençait. Il est lui-même un événement.

Il est une promesse, il est une espérance. Dans une Algérie Arabe, Musulmane et Socialiste, il est le témoin et le cadeau que nous offrons aux lendemains.

1- l'école du souvenir (17/06/65)

La formule serait banale et usée jusqu'à la corde la plus sensible qui dirait qu'un quotidien est le témoin de tous les jours, de chaque jour. Il ne faut pas forcément se méfier des pléonasmes et se moquer des vérités de La Palice. Les pléonasmes confirment les évidences et ce qu'on appelle les Les Paliçades ont un fond de bon sens qui incite à la réflexion...

On retrouve de vieilles photos – On dit qu'elles sont vieilles quand elles racontent notre jeunesse – On retrouve des lettres écrites il y a vingt ans et plus, on revoit les lieux familiers de son enfance, une rue, une école, un village, bref on se penche sur le passé.

Le temps d'une émotion attendrie on évoque un visage, une joie, un chagrin, on se pose des questions qui restent parfois sans réponse. La vie en fin de compte n'est qu'un constant pèlerinage et cela n'est pas incompatible avec la croyance en l'Avenir.

Les espoirs commencent par les souvenirs et le culte sacré que nous portons à nos morts nous rend plus impérieux encore nos devoirs. Une page est tournée certes, mais cette page existe, indélébile dans la force de notre serment. J'y pensais ce matin de Premier Mai en voyant notre jeunesse défiler, en voyant nos enfants, en voyant tous ceux et celles qui ont eu vingt ans ou qui auront vingt ans dans une Algérie libre et indépendante. Chacun de nous y a pensé. Cette jeunesse ne verra pas ce que nous avons vu, ne connaîtra pas ce que nous avons connu. Lorsque nous parlions d'indépendance, d'abord nous en parlions à voix basse et comme nous l'aurions fait d'un rêve lointain, très lointain. C'était pour Demain et l'Avenir semblait cet horizon qui fuit lorsqu'on croit l'approcher. Nos espoirs à l'époque avaient un goût de chimère. Lorsque nous parlions de socialisme, nous avancions davantage des idées que nous affirmions des certitudes. Et ce Demain presque abstrait, ce demain qui nous paraissait une vue de l'esprit est arrivé. Il est là ce drapeau ! Mon Dieu tout ce qu'il a fallu...Il s'élabore notre socialisme ! Qui l'aurait cru...

J'ai feuilleté une collection de ce journal, de ce journal avant qu'il ne s'appelle "AN NASR". Tout un peuple était tenu à l'écart, étranger même à ses propres destinées. C'était le temps des "Indigènes", des "Centenaires" des "Loyalismes" des "Français-Musulmans", des "Premier Collège" et des "Deuxième Collège", et bientôt le temps des "Rebelles", des "Assassins", des "Fanatiques", des "Terroristes", des "Hors-la-loi" ...

Litanie interminable et interminable terminologie dans l'arsenal démentiel des équilibres précaires...

Mon Dieu ce qu'il a fallu, tout ce qu'il a fallu... Les Algériens n'ont pas vécu l'Histoire dans des livres tant chacune de leur vie est à elle seule le résumé de notre Histoire Nationale. Nos

enfants s'en souviendront-ils ? Ils s'en souviendront, il faut l'espérer, il faut tout faire pour cela, car le plus grand malheur qui puisse arriver à un peuple c'est d'être coupé, d'être ignorant de son Passé. Le colonialisme le savait bien qui avait tous mis en œuvre pour nous persuader que nous lui devons jusqu'à notre propre existence. Les Algériens sont incapables, sont inaptes à la haine et à la rancune. Mais le pardon n'exclue pas le souvenir.

Ce n'est pas un cri d'orgueil que cet impérissable vers du poète :

"J'ai plus de souvenirs que si j'avais mille ans".

Au calendrier du malheur les années n'ont pas la même durée et les siècles n'ont pas le même poids.

Il est bien entendu que le malheur n'est pas la seule école. Déjà depuis trois ans s'affirment les certitudes ; Des possibilités s'ouvrent qu'on aurait osé espérer ou même imaginer. Les souvenirs se sont actualisés à la lumière de l'expérience vécue. D'autres chants sortent de nos poitrines, un autre vocabulaire à cours en ce pays. Les simples des mots ont retrouvé un sens : un arbre, un enfant, une route, un volontaire...

Il ne s'agit pas de miracle en Histoire. Bonnes ou mauvaises les sciences humaines sont d'une rigoureuse logique. Un arbre, un enfant, une école, une route, un volontaire... Et même une prison ! Barberousse ouvre ses portes et devient un musée.

Les rues et les places ont changé de noms, nos villes et nos villages se disent avec des syllabes qui sortent de notre terre. L'Algérie se trouve chez elle. Trois ans depuis... Et ce n'est là qu'un départ, ce n'est là qu'un commencement.

Je ne sais de symbole plus poignant, plus émouvant et plus confortant que l'image de cette vieille femme de chez nous qui plantait l'autre jour son arbre sur les versants de la colline. Quel âge pouvait-elle bien avoir ? Elle était certainement née avant le Siècle. Elle plantait son arbre comme on signe un manuscrit précieux, le verra-t-elle grandir cet arbre ? Connaîtra-elle son ombre douce bleue et sa taille d'audace ? En vérité c'était plus qu'un symbole mais l'image concrète de la permanence algérienne.

Le Passé et le Présent se confrontaient dans la dialectique triomphale de l'Espérance.

J'ai mieux compris le mot : Racine

Le chemin de l'école (09 Septembre 1967)

On l'a dit, l'a redit, des voix autorisées et des voix anonymes, parce que c'est l'évidence même, parce que c'est la vérité, on l'a dit, l'a redit : la culture n'est pas un luxe et doit cesser d'être un privilège.

Elle n'est pas un luxe parce que l'homme en a besoin, parce qu'il la respire, parce qu'il la sent et la ressent, parce qu'elle le marque autant par sa présence que par son absence.

Elle doit cesser d'être un privilège parce que l'égalité que consacre la loi, doit se concrétiser dans la réalité et que la culture fait partie intégrante de cette réalité.

Elle n'est pas un luxe et doit cesser d'être un privilège parce que l'homme y puise sa mesure et y prend ses dimensions, parce qu'elle est une joie supérieure et que l'homme a besoin de cette joie pour vivre, pour être lui-même. Pour être totalement lui-même. Un homme sans culture est un homme diminué tout comme l'est Un homme sous-alimenté. C'est bien pour cela que le mot d'ordre sacré demeure plus impérieux que jamais : culture pour tous!

La famine qui menace ou qui frappe des centaines de millions d'hommes, le problème de la faim qui émeut les sociologues, les économistes, les gouvernements, les instances internationales, on a peine à comprendre et à admettre que le vingtième siècle qui envoie des fusées sur la lune, qui double ou triple, la vitesse du son pour ses transports, qui a libéré l'énergie nucléaire, qui change le cours des fleuves, on a peine à admettre et à comprendre que ce siècle de sciences et de progrès soit encore confronté avec des drames que l'on croit l'apanage de siècles révolus, barbares et ignorants.

Il est juste que l'on s'en émeuve, s'en inquiète et que le génie humain, que la solidarité humaine, trouvent à ces tragédies leurs solutions et leurs thérapeutiques.

Notre propos n'est pas de spéculer à savoir si l'homme a besoin de pain avant les roses ou de roses avant le pain. Ce serait là, un faux problème. Nous pensons seulement, qu'une vie sans pain n'est pas une vie, et qu'elle n'est pas non plus tout à fait une vie si une fleur ne vient rassurer nos regards.

Nous pensons seulement, que la famine de l'esprit est aussi dramatique et inhumaine que celle de l'estomac. Nous pensons surtout que l'analphabétisme, ce malheur hérité de la parenthèse coloniale, doit disparaître, comme doit disparaître une survivance hideuse d'une époque maudite. Nous pensons, enfin, qu'il sera toujours un peu vain, un peu faux, un peu gênant de parler de culture tant que cet analphabétisme justement n'aura pas disparu. Non pas qu'il faille cesser d'écrire, de produire, de peindre, ou de composer, bien au contraire! C'est lorsque la nuit est très noire qu'il faut allumer le plus de lumières possible.

En cette veille de rentrée, jamais nos regards ne se sont tournés avec autant de respect et d'attente vers l'école, jamais nous ne lui avons autant confié nos espérances.

C'est là, à l'école que se trouve la solution, le remède, le salut. C'est là, à l'école, et à l'école d'abord, que revient le redoutable honneur de féconder le présent, de le gérer, de l'investir. C'est là, à l'école, le meilleur rempart contre la nuit, le dernier bastion contre cette autre cécité qu'est l'analphabétisme.

L'école a toujours eu une place privilégiée dans le cœur des Algériens. C'est chez notre peuple, une vieille tradition de respect que d'entourer de reconnaissance et de vénération le maître. Il suffit pour s'en convaincre de voir avec quelle affection, nous parlons de ceux qui se penchèrent sur nos jeunes années, qui les formèrent et qui les marquèrent d'une trace indélébile. Il suffit pour s'en convaincre d'analyser cette émotion qui nous étreint soudain lorsque nous rencontrons notre vieil instituteur ou lorsque nos pas nous ramènent, pour un pèlerinage, devant l'école primaire de notre enfance. Il suffit pour s'en convaincre d'écouter s'égrener les regrets de ceux-là qui, jadis imprévoyants, réalisent maintenant leurs erreurs d'avoir sous-estimé leurs premières études. Chacun de nous a laissé son cœur à l'école. Et il suffit pour s'en convaincre enfin, de voir, aujourd'hui dans l'Algérie indépendante, les parents inscrire à l'école leurs filles et leurs garçons, de voir comment ils veillent sur leurs débuts, comment ils les suivent ou les font suivre. Ils se vengent dans l'instruction de ces gamins et de ces gamines, promis à un autre avenir, déjà offerts à un autre destin, plus que jamais le chemin de l'avenir passe par l'école. La culture y germe, s'y développe, s'y équipe.

L'injustice serait d'être un patient. Nous devons avoir conscience des énormes difficultés qu'il faut vaincre, des obstacles qu'il faut surmonter, accroissement sans cesse grandissant des effectifs, problèmes des locaux scolaires, de la formation et de la qualité pédagogiques, problème des programmes, des manuels etc... chaque rentrée est un tour de force, mais aussi chaque rentrée est une espérance, une victoire, et dans bien des cas un miracle.

Lorsque cette école aura rempli sa mission, dans l'Algérie de demain, lorsque tous les Algériens, et toutes les Algériennes, sauront lire et écrire, lorsque les techniques audio-visuelles seront le complément vivant d'une base écrite, alors seulement la notion de culture s'équilibrera dans ses véritables dimensions et dans son vrai contexte. Étant pour l'instant l'exception l'homme (ou la femme) de culture est condamné à une certaine solitude, cette solitude qui n'est pas de l'isolement. C'est une solitude de fait. Nous n'écrivons jamais tout à fait pour le lecteur dont nous rêvons. Et c'est encore vers l'école que nous nous tournons car elle seule fera sortir l'homme de culture de sa solitude, car elle est tout autant une pépinière d'hommes et de femmes de culture.

D'ailleurs les générations qui montent n'auront pas à connaître ces problèmes directement liés à l'ère coloniale. L'écrivain algérien de l'an 2 000 par exemple –et l'an 2 000 n'est pas si loin, 33 ans à peine –et 30 ans, c'est à peu près ce qu'il faut pour faire un écrivain. Bref, l'écrivain algérien de l'an 2 000 s'étonnera peut être de ce qui aujourd'hui nous préoccupe. Il sera vraiment disponible et en symbiose étroite avec son peuple et ses lecteurs. L'analphabétisme ne sera qu'un mauvais rêve, sujet d'études pour l'historien qui prendra les mesures exactes du méfait colonial dont les séquelles, même auront disparu.

Le chemin de l'école conduit bien au-delà de l'école. Il mène à l'avenir.

L'école et le puits (23 Septembre 1967)

Nous avons eu déjà l'occasion de dire combien dans notre pays était grand, important et vital le rôle de l'école.

En ces temps de rentrées scolaire les problèmes de culture sont plus que jamais d'actualité, une rentrée scolaire est un peu l'offensive du savoir contre l'ignorance et l'analphabétisme, cette ignorance et cet analphabétisme qu'il faut à tout prix supprimer, comme on supprime les causes d'une infection, comme on combat un des maux les plus redoutables de l'humanité, comme on refuse le malheur qui diminue.

Il est évident que c'est par l'école, et par l'école d'abord qu'on arrivera à mettre le livre et la plume à la portée de tous et de toutes. C'est par l'école et par l'école d'abord que s'engage et se développe l'entreprise salubre de lumière, cette lumière qui bouscule et multiplie les horizons, qui donne de la profondeur et des perspectives à notre champ d'action et de pensée. C'est en ce sens je crois qu'il convient de comprendre le dicton: « Un homme averti en vaut deux ». Un homme instruit est un homme véritablement libre. Il suffit pour s'en convaincre de réfléchir à ce que représente une lettre

que l'on fait écrire ou que l'on fait lire, désarmé, impuissant. Ce qui nous paraît normal, machinal devient alors un véritable drame, gênant parfois, humiliant souvent, dans l'étalage de sa vie privée, dans l'impossible communication directe. Même de nos jours où le téléphone supprime les distances et où l'avion défie le temps, même de nos jours l'instruction est encore le plus court chemin d'un homme à un autre, savoir lire et écrire, apprendre, apprendre encore et toujours et l'homme grandit, et l'homme se démesure, et l'homme s'épanouit... Apprendre, apprendre encore et toujours, ne serait-ce que pour savoir que l'on ne sait pas grand-chose, car dès lors l'humilité a une autre saveur. Cette humilité-là, a déjà un goût de culture.

Par l'école, et par l'école d'abord, parce que c'est sa vocation, sa destination, son but et sa raison d'être. Parce que s'y doit refléter l'âme d'un peuple, ses ambitions, ses frémissements profonds et ses espérances. Chaque fois que nous passons devant une école, que nous voyons ces gamins et ces gamines affronter leur première grande expérience sociale, un sentiment de sécurité nous enveloppe et nous reconforte. Ces gamins et ces gamines qui vont pour la première fois à l'école cessent d'être des prénoms sur des visages soucieux ou rieurs. Ils ont déjà un grade, ils sont des écoliers et des écolières. Et déjà, à leur insu, ils s'intègrent dans la vie dynamique du pays. Ils investissent le présent.

Il sortira de cette école des hommes et des femmes irréversiblement promis et offerts à une autre existence, à un autre destin.

Des cadres, ces cadres dont nous avons sans cesse besoin, des techniciens, des spécialistes, des hommes ouverts et compétents, imprégnés de cette irremplaçable sérénité que procurent le véritable savoir et la véritable science, des cadres, des techniciens, des spécialistes, nous attendons cette moisson réjouissante des semailles d'automne, de la rentrée scolaire, et puis aussi, évidemment, ceux-là et celles-là qui se voueront à une autre entreprise, à une autre technique, à une autre spécialité. Ceux-là et celles-là qui choisiront d'écouter la chanson première, qui prendront le pouls du vent, qui voudront dompter l'éternité d'un silence, ces aventuriers des merveilles et des dialogues impossibles, les peintures qui veulent faire rentrer le ciel dans leurs tableaux, les musiciens qui font pleurer les étoiles, les romanciers qui corrigent la vie, les poètes qui reprisent leur amertume avec une aiguille de soleil, à l'abat-jour des clairs-de-lune...

Tant il est vrai que l'école ne délivre pas que des diplômes et qu'elle est le carrefour de tous les bouillonnements, de toutes les ouvertures, la préface de toutes les expériences.

Parallèlement à l'entreprise scolaire, l'organisation systématique de la lutte contre l'analphabétisme –lutte d'ailleurs élaborée à l'échelle mondiale –permettra et permet une marche de l'Algérie vers le progrès. Ceux et celles qui n'ont pas eu la chance de pouvoir aller à l'école trouveront ainsi l'occasion de se récupérer, de s'équiper et finalement de mieux servir.

Cette soif inextinguible de savoir et de culture qu'a notre peuple –qu'il a toujours eu d'ailleurs –est une des meilleures preuves de sa vitalité et de sa dignité. Elle suffit à donner les mesures de sa présence et les dimensions de ses nobles ambitions.

Dans nos campagnes, dans nos villes, dans nos villages, du Nord au Sud et de l'Est à l'Ouest, jusque dans nos douars, les plus isolés, les plus reculés, la vie humaine, la vie sociale s'organise et se regroupe autour de ces deux pôles de vie, autour de ces deux sources de vie : l'école et le puits.

L'école et le puits, il y aurait de quoi rêver si la réalité n'était infiniment plus passionnante, plus exaltante, plus dramatique –et ce mot n'a rien de tragique –qu'un rêve.

L'école et le puits, dans la sublime dialectique de la vie, dans le pathétique miracle de la survie –la survie, cette vie qui veut vivre –s'imposent dans une royauté suprême, dans une majesté émouvante. La vérité au fond du puits, la vérité au tableau de l'école, les images sont peut-être faciles partout en ce pays, la culture plus chère que la prune des yeux et les yeux qui donnent leur nom aux sources, l'eau et le savoir, dans le même ruissellement fécond de la friche que l'homme sanctifie...

L'école et le puits, le vocabulaire lui-même participe à cette magie, procède de ce miracle. La première donne au second sa rigoureuse signification. Seul l'esprit peut donner ses lettres de noblesse à la matière...

Couleurs d'automne et d'espérance septembre a mis son tablier, le ciel est plus fragile, les couleurs moins brutales, l'été cet analphabète épicurien, s'efface au tableau noir de la rentrée.

L'image qui me poursuit et m'enchanté revient, l'école, le puits, une motopompe sur la plaine, la rumeur d'une classe, une musique qui raconte un espoir.

École primaire et culture (30 Septembre 1967)

Une année qui s'achève laisse toujours dans les regards la mélancolie des choses qui s'en vont, du temps qui passe. La renaissance d'une nation est une telle aventure que les bilans sont toujours dérisoires comparés à l'œuvre qu'il reste à accomplir. Mais nous croyons au Désert qui se redit sans cesse et ne se répète jamais. Nous croyons aux aurores car ce sont les hommes qui allument leurs certitudes.

Nous croyons à cette école du bout des horizons et du bout de la nuit, cette école posée sur la montagne qui prend soudain une autre altitude, cette école de la plaine ou des grands sables, qu'on remarque au village, qu'on distingue au douar, nous croyons à cette école qui structure l'Algérie de nos rêves, qui la quadrille d'espérances.

Il lui revient en premier lieu la charge de redonner à l'Algérie son âme, sa musique première, c'est-à-dire, sa langue, c'est-à-dire son passé, c'est-à-dire son avenir, cette langue arabe sans laquelle notre indépendance serait incomplète, privée de sa saveur profonde, de son style véritable.

L'arabisation n'est pas une option, n'est pas un choix, n'est pas une décision. Elle s'inscrit naturellement, logiquement, dans le cadre de la décolonisation de l'Algérie ancienne et de l'édification de l'Algérie nouvelle. Elle correspond à la réintégration du pays dans son circuit historique, à la récupération de son identité nationale, à la confirmation et à l'affirmation de sa

personnalité première et véritable. L'arabisation de notre patrie était un des buts de notre guerre d'indépendance. Sa réalisation couronnera notre libération. Au rendez-vous de nos valeurs propres nous nous retrouvons nous-mêmes, pour mieux assimiler les autres cultures, pour une approche de l'universalité qui ne corresponde pas à l'ignorance de notre patrimoine, de notre héritage. La colonisation se caractérisait par l'adoption d'une culture qui s'imposait au mépris de notre culture nationale. Elle devenait dès lors une entreprise impérialiste comme les autres. C'est en ce sens que nous avons pu écrire que l'occupant n'était pas Bugeaud mais Molière. Et c'est seulement parce que l'Algérie est aujourd'hui indépendante que nous pouvons étudier Molière sans équivoque et sans ambiguïté. La décolonisation ne concerne pas seulement le peuple anciennement colonisé mais tout autant l'ancienne métropole coloniale. En libérant l'Algérie, nous avons aussi libéré Molière.

Cette mission qui revient à l'école et cet honneur qui lui échoit d'assumer les destinées intellectuelles de l'Algérie, nous les mesurons d'autant plus que chacun sait les énormes difficultés qu'il faut affronter, les obstacles qu'il faut surmonter, la poussée démographique qui impose de penser au rythme des prévisions, le personnel enseignant et sa qualification pédagogique, les programmes et les manuels scolaires, ce sont là évidemment des problèmes extrêmement délicats à résoudre et qui font appel autant à la bonne volonté qu'à la patience. Il ne s'agit pas d'une expérience qu'il nous faut juger et apprécier sur des cas isolés. C'est une œuvre de longue haleine, une œuvre large, une œuvre de masse, un travail en profondeur. L'essentiel est que l'Algérie se soit engagée résolument dans cette voie qui est la sienne, qui correspond aux réalités et à nos aspirations, cette voie qui la réhabilite à ses propres yeux et qui la désaliène une fois pour toutes. De ce fait l'école primaire se trouve au cœur de nos espérances.

Avec l'école primaire et l'arabisation totale, une page est véritablement en train de tourner la page de l'Algérie d'hier qui n'était pas libre à ce point de son destin que l'enseignement de sa langue lui était refusé.

Le rôle et l'importance de cette école primaire sont d'autant plus à souligner que c'est à l'école que les enfants d'un même pays se retrouvent, à l'écoute d'un même enseignement, à l'étude d'une même langue, à la découverte d'un même patrimoine commun. Dans cette école primaire de l'Algérie indépendante. Les écoliers qui s'arabisent en même temps, seront demain les citoyens «homogènes» d'un même pays, imprégnés d'une même formation. Ainsi disparaîtront à tout jamais les différences qui existent de nos jours entre «arabisants» et «francisants», différences qui sont les conséquences directes de l'agression et de la mutilation coloniales. L'école primaire, en plus de sa vocation strictement scolaire apparaît d'ores et déjà comme un creuset de l'unité nationale, la rencontre de tous les Algériens au sein d'une même source, sur le premier chantier d'une même édification. L'homogénéité d'un enseignement conditionne et renforce la cohésion culturelle de tout l'ensemble national.

Cette arabisation qui inquiète certains de nos amis ne saurait être considérée comme une fermeture de l'Algérie aux autres cultures qui, comme la culture arabe, participent de la culture universelle et de la gloire de l'homme.

Cette arabisation ne se fait pas contre une culture mais pour la culture. Ce qui nous caractérise profondément nous rapproche encore plus profondément des autres. Ce qui nous distingue originalement enrichit plus encore le patrimoine culturel mondial.

D'ailleurs, une culture qui se respecte ne saurait être compétitive. Le serait-elle qu'elle aurait un parfum d'impérialisme.

Des instituteurs par milliers! ... (06 Mai 1967)

Lointaine, si lointaine qu'on la croit orgueilleuse, quand on la dit distante il s'agit de la distance qui nous en sépare, donc du chemin qui nous y mène... définie, disséquée, analysée, mise à droite, mise à gauche, mise à prix, mise à mort, mise à vie, mise en doute, la culture, cette seule conquête véritable de l'homme, c'est d'abord à l'école qu'il nous faut la trouver. C'est là qu'elle se réfugie et s'homologue, s'enregistre, se conserve.

On parle beaucoup –et à juste titre –de Cercles, de Foyers, d'animation culturelle. Dans le langage courant le mot Culture s'associe de plus en plus au mot loisirs. On multiplie sous toutes ses formes sa présence et ses activités : au Théâtre, à la Radio, à la Télévision, au cours de Conférences, de séminaires, à l'occasion de la sortie d'un film, de la parution d'un livre, à la lumière d'une polémique, d'un hommage reconnaissant, d'un festival. Dans ce pays dramatiquement marqué par l'analphabétisme chacune de ces manifestations culturelles a un goût de miracle et de pathétique. Chacune de ces manifestations témoigne de ce grand respect que l'on porte par chez nous aux choses de l'esprit, de l'importance qu'on lui accorde dans ce qu'il est convenu d'appeler la Civilisation Humaine. Je ne sais guère de pays qui entoure d'autant de considération l'Homme de Culture. Et par conséquence directe je ne sais guère de pays où la responsabilité de l'homme de culture est aussi grande. Étant qu'on le veuille ou non un privilège, la culture devient un devoir elle est très lourde à porter. Elle ne se garde pas, elle se dispense.

On ne dira jamais assez la gloire d'une école. Jamais assez petites écoles à classe unique, et unique lumière aux aboiements de chiens, écoles posées sur la plaine, d'un horizon à l'autre pour nous faire patienter, au détour d'une piste, insolites et précises, au sommet d'une montagne et d'une obstination, autour d'elles les villages se regroupent comme autour d'un puits, les hommes se réunissent comme autour d'une source. Écoles du Grand-Pays, sans gaz et sans électricité, au ravitaillement difficile, (pas de courrier tous les jours, le journal est toujours au passé), un autocar ahurissant de contenance trépide aux horaires variables, écoles des quatre vents, écoles de bonne volonté que fréquentent sur les toits les cigognes et tout le jour des gamins en haillons, vous êtes les postes-avancés de la Culture Nationale, dans le Pays réel!

Je ne sais de plus triste qu'une école fermée. Sauf peut-être un jardin abandonné, sauf peut-être un pont détruit que l'oued emporta et qui nous oblige au long détour, et qui nous fait douter de la vertu de la ligne droite. Sauf peut-être ce silencieux regard des aveugles comme un rideau tombé à l'éternelle relâche.

Je ne sais rien de plus triste qu'une école fermée. Le puits qui s'ensable contient moins d'inquiétude, d'angoisse et de désolation.

Bien sûr, il n'est pas question, dans le cadre d'un simple article, de réveiller des angoisses ou de susciter des vocations. Le problème est énorme et, de par ces dimensions et sa gravité, il est une affaire d'état, un sujet de préoccupation nationale. Les mots tournent dans une ronde infernale où le miracle a peu de place, où la bonne volonté, n'est pas en cause, où les idées ne manquent pas. Ouvrir des écoles, former des maîtres, utiliser de manuels, devant la marée montante d'une démographie qui potentialise à l'infini tous les problèmes, dans l'équation bouleversée de la Quantité et de la Qualité, ouvrir des écoles, disposer de moyens en hommes et en argent, non, ce n'est pas si simple et les Algériens le savent bien. A se pencher sur la scolarisation en Algérie on peut en éprouver un vertige, ou en être démoralisé si l'impatience nous gagne d'une manière ou d'une autre, malgré et à cause de cette démographie, il faudra amener le temps à travailler pour nous compter avec le temps ne signifie pas compter sur le temps ne signifie pas attendre mais faire face, mais préparer. si le miracle tient peu de place, l'obstruction et le sacrifice en tiennent beaucoup. Le mot impossible n'est pas algérien également.

Les écoles des villes et des villages, écoles surchargées à l'extrême, à la limite d'une pédagogie raisonnable, rationnelle ou tout simplement possible, dans cet enseignement qui recherche son profil d'équilibre et sa voie naturelle de l'arabisation, ces écoles, quelle que soit la qualité de leur personnel, quelle que soit la qualité de leur équipement, ces écoles primaire et parfois primitives, ces écoles demeurent le meilleur rempart que nous pouvons dresser contre l'ignorance, la meilleur arme –et la seule –dont nous disposons pour instruire les plus larges masses possible.

Certains, nostalgiques ou grincheux, incompréhensifs ou impatients, rappellent à longueur de regret la qualité pédagogique des maîtres «d'autrefois», la qualité supérieure de l'enseignement dispensé, les Écoles Normales de jadis, pépinières d'instituteurs et d'institutrices préparés à l'exercice de leur noble mission. On oublie trop souvent par chez nous que cet «autrefois» sent mauvais, qu'il s'appelle colonialisme, aliénation, «nos pères gaulois», «certificat indigène», langue arabe interdire, bafouée, ignorée. Le temps des «Jeannot et Jeannette», des «vous mettez vos petits souliers devant la cheminée, le soir de Noël, racontez», le temps des Sarrazins, courageux, cruels et perfides, et de «L'Homme blanc adulte et civilisé de ma classe de philo...les maîtres étaient plus qualifiés –pédagogiquement parlant –, mais combien de nos gosses étaient-ils scolarisés? Combien de nos élèves accédaient-ils à l'enseignement secondaire ou supérieur? Privés d'avenir, internés dans le présent rabougri on nous avait volé jusqu'à notre passé. Nous étudions l'Histoire des autres. En vérité, avant le premier novembre 1954, c'était pour nous la Préhistoire.

Nous sommes ce que nous sommes, pauvres, malmenés, dépourvus, au sortir d'une impitoyable disgrâce historique, à peine au point du jour, et nous savons le prix et le poids de l'école. Cette école peut-être sommaire, peut-être insuffisante, aujourd'hui, mais école quand même! Présente malgré tout, gardant et secrétant nos valeurs. Si le gardien n'est pas toujours à la hauteur du musée peu importe. Il le sera demain. Il est en train de le devenir.

Des instituteurs par milliers et par milliers des étoiles! Jusqu'à que jour s'en suive!

La leçon du Boulhilet. (20 Mai 1967)

Ne cherchez pas sur une carie de géographie le nom du Boulhilet. Vous le retrouvez peut-être sur une carte d'état-major de la Horde-méchante avec comme légende explicative : «zone pourrie et de haute dissidence. Zone interdite».

Pays plat, grand pays, vastes terres, d'un infini à l'autre les horizons s'immobilisent et le ciel est si proche qu'on pourrait le toucher du doigt. Là-bas, dans leur pluriel, les Aurès veillent au mausolée du souvenir. Par ici le mouvement est un vœu dérisoire. La piste s'évertue à mener quelque part. Mais par ici, c'est toujours quelque part. Je comprends cette terre qui se rassure en son immensité, cette terre calomniée, cette terre rouge et noire délaissée comme une veuve, cette plainte silencieuse et ce regret qui se tait. Je comprends cette plaine qui défie notre impatience, qui s'étale en sa longueur et que les saisons ne parviennent plus à marquer de leurs caprices, à décorer de leur talent. La plaine, comme un plateau de théâtre qu'abandonnèrent ses acteurs, s'est réfugiées dans un refus de reine, dans sa nudité des premiers âges. Il n'y a avait pas d'eau au Boulhilet.

On vient de trouver de l'eau au Boulhilet! Ah Dieu qu'elle a raison cette sagesse populaire qui affirme que la vérité se trouve au fond d'un puits. Sous le ciel implacable du Boulhilet c'est encore plus saisissant. On n'a pas à distinguer entre l'eau et la vérité. Déjà j'ai entendu l'hymne d'allégresse des pompes, déjà j'ai vu se dresser les premières haies pour briser le vent, déjà j'ai vu les premières feuilles éclore dans les séguiates. Et j'ai surtout écouté ces hommes, ces géants modestes, ces vainqueurs de la mort, parler du village qu'ils construiront bientôt. A l'heure du repas et du repos ils discutaient des endroits propices et des édifices à élever. Tous, unis, unanimes, ces hommes qui ne savent ni lire ni écrire, ces hommes qui ne connaissent pas la chaleur amicale d'un livre, ces hommes qui n'ont jamais promené leurs regards sur un tableau de Bouzid ou d'issiakhem, qui n'ont jamais caressé de leurs mains calleuses la surface si vivante d'un papier blanc, tous, pour le village qui va naître ils envisageaient d'édifier d'abord une mosquée et une école. J'ai reçu ce jour-là une incommensurable leçon de culture.

Une école, une mosquée... cette eau qu'ils ont trouvée, qu'ils ont arrachée aux entrailles de la terre, qu'ils ont en quelque sorte forcée dans ses sorniois retranchements, cette eau que la pompe déjà refoule vers les champs retournés, cette eau prend alors toute sa signification et nous sommes assaillis de symboles. Cette vérité que l'on va chercher au fond du puits et que le muezzin rappellera cinq fois par jour au haut de son minaret, cette vérité que les enfants apprendront à connaître sur les bancs de leur école, cette vérité venue de Dieu et qui retourne à Dieu en passant par les Hommes, elle nous apparaît comme une énorme, comme une merveilleuse, comme une réconfortante victoire de l'Esprit sur la Malice.

Ils le savent bien les gens du Boulhiet, ils savent bien que ces champs de blé qui valseront la saison prochaine ne seraient qu'un simple champ de verdure si une école et une mosquée ne venaient donner une âme à la galette qu'ils mangeront.

Une mosquée, une école, ces hauts-lieux habités, inspirés et tout autant sacrés, le Temple de l'Âme et celui de l'Esprit, la diabétique de la vie algérienne s'affirme et se retrouve, s'illustre et se complète aux deux pôles de sa culture. Une authentique culture nationale jaillie du sol charnel comme cette eau vivante et qui fait vivre, une culture étroitement, intimement liée à ce qui fait le génie de notre peuple, secrétée par lui et exprimée par l'artiste, une culture enfin qui tienne compte, qui s'alimente à la source des sources, qui s'inspire des aspirations, des chagrins, des joies, du solide bon sens et de l'incassable espoir des hommes qui revendiquent et assument la noble condition humaine...

Au Boulhilet comme ailleurs c'est par Dieu et la science que l'homme se distingue de la Bête.

Il faut avoir vécu au désert, avoir connu le désert pour réaliser pleinement ce qu'y représentent une mosquée et une école. La terre gercée et morte, le Reg infernal, l'Erg vertigineux, dans l'implacable despotisme d'un soleil totalitaire, dans l'impérialisme délirant d'un cosmos surréel, le tableau noir et la prière redonnent à l'homme sa dignité menacée.

Partout en danger, il s'organise et se rassure dans sa croyance et son savoir. Le mot culture cesse alors d'être le sujet éternellement remis en question de conversation d'esthètes et de dilettantes. Il échappe naturellement à la prison des définitions et des querelles, à la tentation des formules qui s'en amusent et ne s'en imprègnent pas, à la séduction des rhétoriques savantes, au bla-bla-bla de cet autre désert qu'est la spéculation gratuite. Le mot culture repose alors sur des faits, sur des réalités tangibles et merveilleuses, sur l'amitié de l'homme pour l'homme, sur l'incomparable courtoisie de chez-nous, sur la flûte d'un berger qui dédicace un crépuscule, sur un violon targui qui scande une épopée, sur une main de femme qui commande à l'argile, sur un chant profond que reprend avec la légende de Salah-Bey les mandolines de Constantine, sur un poème du pays kabyle, sur un refrain de maquisard et dans le clair regard des enfants du Chélia... le mot culture repose alors sur l'incomparable sensibilité de notre peuple, sur son incomparable pouvoir créateur, sur son incomparable humanité, sur son incomparable générosité. Sur sa patience sans cesse renouvelée. Il ne suffirait pas de toute une vie à un artiste algérien, peintre, musicien ou poète, pour dire, pour tenter de dire ce pays mobile, ce pays vivants, ce pays d'éternité et de nuances.

Des hommes ont creusé des puits. Des hommes ont trouvé de l'eau. Des hommes vont construire un village. Des hommes vont construire une mosquée et une école. Pays plat, grand pays, vastes terres, avec les champs de luzerne et les chants de blé, vous trouverez bientôt, sur les cartes de géographie le nom du Boulhilet. Vous y trouverez des fleurs et des chansons. Et, qui sait, il sortira bien un jour de ce village conquis sur le néant, voulu, enfanté par ces hommes, il sortira bien de ce village hier encore impossible, hier encore impensable, un autre Feraoun, un autre Issiakhem, un autre Mohamed El Anka, un autre Benbadis...

Notre culture ne fait pas que commencer. Elle continue, elle se poursuit sans cesse, toujours. Selon le mot lucide du docteur Khaled Benmiloud, «elle se fait en se faisant», incroyablement vivante et liée au destin de tous les Boulhilet d'Algérie et du monde.

La repossession d'une pensée (Samedi 06 Janvier 1968)

Une culture – et par culture nous entendons en premier lieu la possession d'une langue – se fait inévitablement et presque toujours au détriment d'une autre culture. C'est ce qu'avait très bien compris l'impérialisme. Dès l'école primaire, l'enfant, réceptivité pure, s'alimente de la matière qu'on lui propose, qu'on lui offre, qu'on lui impose. L'erreur coloniale avait été de croire qu'on peut «franciser» des gens qui chez eux ne parlent pas les français, donc ne réagissent pas en français. L'erreur rejoint le crime car l'intention était impure et s'apparentait à une implantation de plus, l'implantation culturelle, qui s'ajoutait à l'emprise politique, militaire et économique.

A l'heure coloniale, il ne nous restait plus que l'islam et la langue de livre pour nous refuser, pour nous distinguer, pour nous caractériser, pour nous opposer : opposition tacite ou active, puis explosion de l'affirmation du «moi» national au matin de Novembre.

L'arabisation ne condamne pas la langue française, ou toute autre langue. Elle procède à un retour à soi-même, à une repossession d'une pensée et de son véhicule naturel. Elle est la forme achevée de la décolonisation.

Nous sommes arrivés à un état d'indigence et de confusion linguistique qui fait que dans leur ensemble nos enfants ne parlent ni le français ni l'arabe mais un jargon hybride, une communication élémentaire et chétive, une expression verbale qu'on ne peut appeler une langue.

Ce n'est qu'une fois qu'ils posséderont et posséderont parfaitement les bases solides de leur langue que les écoliers algériens pourront, comme tous les autres écoliers du monde, -- (et généralement cet enseignement est dispensé dans le secondaire) – apprendre une langue étrangère. Alors, et alors seulement, l'acquisition d'une ou de plusieurs langues étrangères, se fera harmonieusement, sans semer la confusion dans l'esprit, sans porter atteinte à la personnalité de l'enfant. Car il est évident que l'acquisition de langues étrangères est toujours un merveilleux enrichissement et que l'arabisation ne signifie pas une fermeture de l'Algérie aux autres sources de culture.

A quelque chose près techniquement parlant, l'arabisation ne pose pas plus de problème. Ne soulève pas plus de difficultés que l'enseignement de la langue française ou par la langue française. Nous affrontons avec elle les mêmes problèmes et nous retrouvons, pour ce qui est du personnel enseignant, les mêmes difficultés. Il s'agit avant toute chose, et sans pour autant le minimiser, d'un problème de scolarisation, de recrutement et de la formation intellectuelle et pédagogique des maîtres, de l'élaboration des programmes et des méthodes, de la création et de l'utilisation des livres et manuels scolaires. Il faut bien se convaincre et se répéter que ce n'est pas une expérience qui est tentée mais un destin s'accomplit, une destinée qui s'assume. Notre génération a eu le privilège historique de voir notre drapeau flotter dans un ciel libéré. Les écoliers qui vont pour la première fois, cette année, à l'école, auront celui d'assister au rendez-vous de l'Algérie avec elle-même.

L'enseignement de la langue arabe, et l'enseignement par la langue arabe, n'est, rappelons-le, ni une option, ni un choix, et encore moins une expérience. Il s'intègre logiquement et naturellement dans l'ensemble de l'édification nationale. Il participe de la résurrection historique de l'Algérie, de sa renaissance avec ses attributs d'État indépendant, il raccorde l'Algérie d'avec son passé en lui redonnant sa dimension première. Il est un acte supérieur et ultime de décolonisation. C'est une énorme entreprise de restauration aux conséquences incalculables, aux promesses exaltantes. Parallèlement à l'industrialisation du pays et aux efforts prodigués dans le domaine agricole, parallèlement donc à la lutte menée contre le sous-développement économique, l'arabisation, dans la vie culturelle de la nation, tend à promouvoir une Algérie moderne et fidèle à elle-même, une Algérie originale qui pourra donner les vraies mesures de ses capacités intellectuelles et spirituelles.

Cette Algérie à la fois nouvelle et retrouvée se sera ainsi épurée des séquelles du colonialisme et libérée d'une ambiguïté qui la paralyse, l'atrophie et la dénature.

Le problème qu'il faut donc résoudre dans les délais les meilleurs est celui de cette scolarisation. Le recrutement des maîtres qualifiés retient l'attention. La qualité de l'enseignement et des enseignants ira en s'améliorant et il ne faut pas se cacher que l'affaire est une entreprise de longue haleine. Pédagogie, méthodes et programmes s'ajusteront, s'adapteront. Les déchets inévitables iront en diminuant. Les erreurs seront des leçons profitables. Le drame est qu'il faut faire face avec les moyens réduits du bord. Il serait vain de s'attendre à des résultats enthousiasmants dès le début. Néanmoins, quels que soient ces résultats, ils constituent une victoire, ils sont une promesse.

En cette matière, comme en d'autre, la réussite ou les déboises ne se mesurent pas aux premiers contacts aux premiers effets.

Au rendez-vous de l'Algérie avec elle-même, il s'agit moins d'une parfaite exactitude que d'une rationnelle patiente. .

IV- Grandeur et misère de la littérature algérienne (03/02/1966)

(Problème de culture algérienne)

La culture, la vraie culture (mais en est-il une autre ?) Voyage sans passeport et le seul visa qu'on exige d'elle suffit à l'identifier : **sa qualité humaine**. C'est même là un rare exemple d'internationalisme intégral, par-dessus les utopies, les traités, les ambassades, les instances supranationales. C'est une vérité tellement évidente qu'elle risque de passer inaperçue. C'est aussi une victoire de la raison et du cœur qui peut surprendre, même au vingtième siècle, surtout au vingtième siècle, si l'on songe aux mille occasions que nous avons quotidiennement de craindre pour la paix, **pour la paix** c'est-à-dire en fin de compte pour **la civilisation universelle**.

Les écrivains, les peintres, les musiciens, les savants, leur rayonnement, ne faut-il pas y avoir à revanche de leur solitude et de leur précarité. Eux qui ne représentent la plus part du temps ni des partis ni des puissants intérêts, eux qui sont étrangers à ce jargon : "Rapport de force" appuyés par "pour le compte de", etc.. Eux enfin qui, le plus souvent ne connaissent ni la gloire, ni les honneurs ni la fortune, et qui mènent dans le silence de leur réflexion et le désert de leur cheminement le plus

dur des combats peut-être : **la lutte contre l'Absurde** ?... Un combat inégal et dont ils sortent toujours vainqueurs. Un jour ou l'autre on est heureux c'est à dire intelligent.

A juste titre Mouloud MAMMERI se félicitait récemment du fait que l'Algérie après son indépendance, avait su s'épargner une solitude culturel qui lui eut néfaste. Il est bien évident qu'une culture nationale pour vivre pour s'épanouir à besoin d'être confrontée d'avec (...) Elle a besoin de s'oxygéner de s'élargir sans cesse et de trouver dans son originalité, dans sa spécificité les propres germes de son universalité. Une culture fermée une culture repliée sur elle-même est (...) à brève ou longue échéance à s'atrophier, à engendrer (...), à enfanter une pensée morbide, une pensée prisonnière d'elle-même et de son jargon, une pensée dangereuse, une pensée qui ne rejoint pas la bonne action, c'est-à-dire l'action bonne. La culture est une réalité vivante ; bien vivante et vivante d'une façon bienfaisante. Telle est sa vocation : se mettre au service de l'ensemble humain, de participer à l'élaboration des idéaux qui font la gloire de la condition humaine. Et peut-être son excuse si l'on a en mémoire HIROCHIMA qui vit se lever et fondre le soleil d'apocalypse qui naquit dans le cerveau d'homme pourtant.

La culture est une réalité vivante qui se fait en se faisant. Une étude du Docteur BENMILOUD parue dans "REVOLUTION AFRICAINE" la lavait de son pêché régional et la situait au cœur du « MOI NATIONAL » elle est ce qu'on regarde(...) yeux une **élaboration à l'acte** un phénomène et non un épiphénomène.

Je n'aime pas les définitions, je refuse les définitions, je dénonce les définitions en matière de culture. Les définitions sont généralement le fait de théoriciens à la recherche d'arguments pour établir leur théorie. La culture est pour eux un prétexte, elle ne les concerne pas. Ils l'utilisent. Ils en vivent. Nous sommes nombreux sur la terre à pouvoir en mourir.

Tout au plus une culture se caractérise !

Ses caractéristiques ne sont que des commodités de localisation dans le temps et dans l'espace, une simple tentative de recherche de coordonnées, à l'usage surtout des touches à tout qui se prend pour activités des paresseux qui s'honorent d'être instruits, de ces faux érudits dont l'éclectisme dissimule mal le vernis de leurs connaissances. La culture est l'ultime confidence d'un peuple. Son premier et son dernier soupir. Elle est l'intimité d'un peuple. De simples particularités d'ensemble et le reflet toujours direct d'une âme nationale d'une spécificité géographique et d'une originalité historique.

Soit ! J'ai toujours BERGSON en mémoire quand il s'agit de nuancer, BERGSON le prince du scrupule BERGSON qui(...) tenter de dégager la merveilleuse complexité des démarches de l'homme.

Une unité multiple est une multiplicité. Une(...) est vrai que le dénominateur de la culture est l'homme, que cet homme soit blanc ou noir, chinois ou arabe, soviétique ou spiritualiste.

Ce dénominateur commun est l'homme et le mot culture est le seul (...) celui de dieu qui ne souffre pas de pluriel.

Cœur ouvert esprit ouvert, l'Algérie ne craint ni le dialogue, ni la confrontation.

Au tribu sans entrailles du colonialisme, elle a décliné et revendiqué son identité. Car elle se faisait accusatrice riche d'un (...) fabuleux, son passé, forte d'arguments péremptaires : l'inépuisable culture créatrice de son peuple.

Par la bouche et par la plume d'un algérien du plus grand peut-être, les mots s'ordonnèrent dans la noble logique de leurs impératifs historiques. Il est des mots qui font de la musique, il est des mots qui s'enlisent dans la phrase creuse d'une rhétorique sans fond, sans fin et sans fondements. Je sais aussi des mots qui éclatent comme des balles et des lumières. Des mots qui rassurent.

Cette parole du Cheikh Abdelhamid Ben Badis par exemple :

"L'Arabe est ma langue, l'Islam est ma religion, l'Algérie est ma patrie". Le plus grand d'entre nous ne s'enfermait pas dans une définition il s'érigait lui-même en programme.

Au petit matin de novembre 1945 il n'y eut pas seulement le fusil. Il y eut d'abord le verbe.

La culture revenait chez elle en Algérie.

Grandeur et misère de la littérature algérienne (04/02/1966)

Afin que la géographie échappe à sa routine et voire à son abstraction, il est bon de l'illustrer, de la matérialiser en quelques sortes autrement que par des villes, des montagnes et des fleuves. J'aime ces itinéraires qui s'humanisent et qui nous proposent comme guides et cicérones, ceux-là dont le métier est d'écouter aux creux des âmes, dans la paix d'un clair de lune ou le tremblement des univers en danse.

Guelma c'est KATEB Yacine et cela lui ressemble : le drame, la colère, la passion, le lyrisme des Hauts Plateaux préface des Aurès.

Tlemcen patiente et sage, terriblement attentive, terriblement réservée et dont la prudence réfléchie est une autre forme d'audace, c'est Mohammed DIB qui a mieux senti que Jean Amrouche les aurores déchirés le voile de veuve qui entoure les plaintes de la SOUMMAM, les confidences de la vallée ? Mouloud MAAMERI revient souvent sur sa colline et prend sous la dictée des Beni Yenni des notes qui éternisent un long moment d'histoire.

Anna GRECKI qui vient tragiquement de nous quitter, nous a crié son amour pour la terre charnelle **"Algérie capitale Alger"**.

Blida n'est pas en reste et désavoue le clair-chantant qui serait tenté de penser que nul n'est poète en son pays au-delà de toute amertume et pour mieux l'honorer.

Je pense à Elisa RHAIS du temps de l'Algérie de Papa, du temps lointain des cerises et des mandarines avant que les fruits eux-mêmes ne se révoltent et deviennent à lancer et non pas à cueillir et deviennent grenades.

Je pense à Henri KREA qui demanda à sa montagne de lui prêter son nom pour mieux signer le sien.

Je pense surtout, je pense d'abord, au plus grand d'entre nous, peut-être au poète délicat et dangereux, à l'historien scrupuleux au citoyen d'exemple : j'ai nommé Mostefa LACHERAF.

Problèmes de la littérature algérienne d'expression française... Ce titre comme tous les titres d'ailleurs n'est qu'une indication, une simple commodité de langage et d'écriture comme tous les titres, il est arbitraire, incomplet et peut-être même vaguement équivoque.

Si la formule n'était usée prétentieuse et emphatique, j'aurais volontiers intitulé ma causerie : **grandeur et misère de la littérature algérienne d'expression française.**

Pourquoi grandeur et misère ? Je m'en expliquerai plus tard, dans la dernière partie de notre entretien.

Pourquoi cette précision « littérature Algérienne d'expression française » la réponse est simple : tout bonnement parce qu'il existe une littérature algérienne d'expression arabe d'écriture arabe.

Expression arabe d'écriture arabe, non je ne joue pas sur les mots, la précaution s'impose car la nuance est de taille. Nous y reviendrons largement, car là est- je pense- le cœur du sujet.

J'éviterai si vous le permettez une analyse systématique et critique de nos auteurs et de leurs œuvres pour m'en tenir à un panorama d'ensemble et d'en dégager les remarques générales.

Bien avant 1954 le même phénomène se dessinera. En Tunisie et au Maroc, apparaissent les noms de Mouloud Mammeri, de Mohamed Dib, Jean Amrouche Ferraoun, Mostefa Lacheraf.

Je ne pense pas qu'on puisse parler là d'une école ou même d'un embryon, ou même de précurseurs. Mais ce que nous pouvons immédiatement souligner de remarquable, c'est l'étroit rapport qui existe peu chez nous entre le phénomène politique et le phénomène littéraire, entre la réalité sociale et le contenu ou le message de ces œuvres.

Parallèlement à ce groupe d'écrivains autochtones je ne trouve pas d'autre mots celui-là dit bien ce qu'il veut dire. Parallèlement au Mammeri, au Ferraoun, au Mohamed Dib, des écrivains vivant en

Algérie constituent ce qu'on put appeler l'école méditerranéenne dans laquelle s'affirment les noms de Gabriel Audisio, Pélégri, Jules Roys, Roblès, René, Jean Clos et le plus prestigieux d'entre eux: Camus.

Avec ces écrivains nous abordons un sujet délicat très délicat, un sujet douloureux même. L'an passé (...) une époque si ma mémoire est fidèle, éclatait une nouvelle génération pour certains d'entre eux à propos de la publication, sous la direction d'Albert Memmi d'une Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française.

Une Anthologie dans laquelle les écrivains algériens occupent la plus grande place. Il ne s'agit pas (...) Chauvine mais d'une question d'arithmétique. Il se trouve que les écrivains algériens (...) les plus valables(...) mais du moins les plus nombreux. Donc à l'occasion de la publication de cette Anthologie plusieurs écrivains dirent, par la voie de presse, leur indignation de ne pas y figurer. Pélégri, l'auteur des oliviers de la Justice fut très violent, Gabriel Audisio fut touché (...) de lui-même et Jules Roy me dit son amertume et son (...) fait que ces auteurs, dont le talent et la bonne foi ne sont pas en cause (...) leur appartenance à l'Algérie nous amène à définir, à nommer et définir les critères de l'algérianité.

Il est évident que dans un pays de (...) comme le nôtre - mais quel pays ne l'est pas-L'Algérianité ne pas avoir de base ethnique et des noms me viennent à l'esprit aussitôt : Frantz Fanon, Henri Kréa, Jean Sénac et notre mère Anna Greki que la mort vient nous enlever. Pas plus qu'elle ne peut (...) pour unique critère la religion. Un des plus grands écrivains Jean Amrouche de père et de mère autochtones, n'était-il pas de confession chrétienne ?

Grandeur et misère de la littérature algérienne (05/02/1966)

(Problème de culture algérienne)

Et qui lui discuterait sa qualité d'algérien ? Mais alors ou sont les critères de l'Algérianité ? On pourrait penser à la langue ; mais la plupart d'entre nous écrivons le français et un Kateb Yacine qui écrit le français est tout autant Algérien qu'un Mohamed El-aïd par exemple qui s'exprime en arabe.

Nous sommes donc obligés de revenir, avec tout ce que cela comporte d'étroit d'arbitraire et parfois d'artificiel, aux critères politiques.

Je pense quant à moi que les écrivains comme Audisio, Roblès, Jules Roy, Pélégri se seraient épargnés ce déchirement, cette ambiguïté et en fin de compte cette solitude en porte à faux en rejoignant comme les enfants d'une même patrie l'Algérie en lutte.

Je sais que la chose n'était pas facile et nous n'avons pas à les juger. Les drames cornéliens sont plus faciles à trancher dans une lecture expliquée que dans la vie. Un jour à Paris, Pélégri pour qui j'ai beaucoup d'affection et d'estime, me dit : "La nationalité ce n'est pas une question de passeport". Dans la belle république des lettres peut être ou la seule citoyenneté est celle du talent, la seule souvent celle du beau, mais pas dans un monde structuré où l'appartenance à une communauté est d'abord un choix qui se concrétise en option formelle. D'autre part, hélas, lorsqu'un agent, de police demande ses papiers à un poète, il ne saurait se satisfaire de ses manuscrits.

Pour clore cette parenthèse, nous pouvons dire que l'Algérianité procède essentiellement d'un concernement qu'elle se prouve et se vérifie dans les faits, qu'elle consista à dénoncer et combattre le colonialisme qu'elle consiste aujourd'hui dans l'édification heureuse de la patrie algérienne.

Autrement dit et sans rejeter personne : **n'est pas Algérien qui veut**, je le répète, gardons-nous de juger ceux que l'Histoire a surpris, et délogés de leurs habitudes ceux qui, eux aussi, se faisaient une certaine idée de L'Algérie, une Algérie de Littoral plus touristique et exotique qu'humaine.

La velléité est parfois respectable et témoigne plus d'un scrupule que d'une lâcheté.

Néanmoins, il se déclare tout net : Je n'éprouve aucune indulgence à l'égard de Camus.

Il savait bien que notre guerre était une guerre juste et que la lutte contre le colonialisme devenait une contribution active à la morale universelle. En préférant sa mère à la Justice- mais qui n'aime pas sa mère- en alignant sur le même plan d'égalité les parachutistes et nos fidayine, en ne jetant pas dans la bataille le poids de son renom et du prix Nobel, il n'a pas cessé d'être un écrivain. Il a cessé à mon sens d'avoir le droit de se réclamer de l'Algérie...

Mais revenons aux écrivains algériens.

A l'Etat Civil de l'Histoire et pour les situer, deux dates, deux grandes dates jalonnent les œuvres et les biographies des écrivains de ma génération. Deux grandes dates qui exacerbèrent chez notre sentiment national, notre colère d'être colonisés.

Deux grandes dates qui en fait nous déterminèrent et ramenèrent le problème à la simplicité de sa solution, une solution extrême la seule possible : La lutte armée.

1945, 8 Mai 1945 ne fut qu'une préface, le 1er Novembre 1954, un prélude. Il n'est pas à ma connaissance, quel que fut son degré d'engagement, son courage, son talent ou sa notoriété d'écrivain algérien, qui resta indifférent devant cette somptueuse démesure, ce chant final et ce chant premier, un de ces miracles qui se reproduisent de loin en loin dans l'Histoire des peuples.

Le Premier Novembre restera dans l'histoire algérienne comme un sursaut. Le refus de disparaître d'une nation, son impérieuse volonté de demeurer dans sa chair et dans son âme. La guerre de libération fut une période faste, féconde pour la littérature algérienne. Dans des conditions difficiles, dangereuses, parfois dans l'incompréhension, dispersés au hasard de l'exil, des prisons et du combat, les écrivains algériens publient, ne cessent de publier, romans, poèmes, essais, articles, pièces de théâtre, numéros spéciaux de revues étrangères qui nous offrent leur hospitalité courageuse et compréhensive. Nos œuvres sont traduites en plusieurs langues, adaptée pour scène et micro. Les noms de Mostefa Lacheraf, de Kateb Yacine, de Mohamed Dib, de Bourboune, d'Assia Djebbar, de Senac, de Kréa, de Jean Amrouche, Nitaï et de tant d'autres, que je m'excuse de ne pouvoir citer, s'affirment. La critique étrangère salue, on s'inquiète, on s'étonne.

La littérature algérienne apporta aussi sa modeste contribution à la lutte qui se déroulait.

C'est une des vertus des guerres justes que de réunir dans un front sacré toutes les bonnes volontés, et tous les talents par-delà les différences de tempérament et pardessus les idéologies particulières.

Toutes les résistances Nationales ont connu cet unisson pathétique qui ne résiste pas toujours à l'évènement de la paix et de l'indépendance. Démobilisés, les esprits à leur tour se dispersent et s'orientent dans la complexité des options de chacun "La politique" cède alors le pas à "la Politique". De toujours et de partout la Nation, réunit bien plus que l'Etat et cela se comprend. L'une fait appel au cœur, l'autre à la raison.

Rien n'est plus concret que cette somme géographique et sociologique, que cette symbiose, cette synthèse dynamique d'un peuple et d'un pays.

Cela s'appelle Patrie, cela survit aux hommes et aux régimes

Grandeur et misère de la littérature algérienne (07/02/1966)

(Problème de culture algérienne)

1962 - L'indépendance obtenue, conquise, arrachée et à quel prix mon Dieu !

La patrie est libre, l'Etat s'organise et s'installe, il s'ouvre alors pour les écrivains, comme pour tous les Algériens une période de haute densité et de haute turbulence.

La crise inévitable, la réadaptation pour la plupart d'entre nous à la vie sur le sol national, la découverte du pays et du pays réel, la prise de conscience de cette énorme mutation que représente l'indépendance, la nervosité de ces époques fatalement agitées, ce formidable ensemble humain à la recherche de son profit d'équilibre, l'urgence des priorités, bref tout cela accapare nos esprits au

détriment peut être de la pure création. Je dis peut-être car c'est là pour un écrivain une expérience unique. Il faut faire face avec bonne volonté sinon avec bonne humeur.

On a beaucoup parlé, on l'a même écrit, en Algérie comme à l'étranger du silence des écrivains algériens.

Cette critique est injuste parce que nous n'avons pas cessé de nous manifester, de collaborer à notre presse nationale, de participer dans notre solitude à la vie culturelle de l'Algérie, de publier des œuvres, d'apporter notre collaboration aux techniques audio-visuelles du pays.

Un ouvrage d'Anna Greki est actuellement sous presse, que son auteur ne pourra nous dédicacer et qui aura déjà à sa parution un goût de message d'outre – tombe. Mouloud Mammeri vient de publier "L'opium et le bâton". Réda Falaki nous a donné "Le milieu et la marge ". Malek Bennabi nous offre le début d'une vaste fresque avec "Les mémoires d'un témoin du siècle". Sahli nous apporte "L'histoire à décoloniser". Mostefa Lacheraf analyse scientifiquement notre passé avec "L'Algérie Etat et Nation". Dib nous a présenté récemment "Qui se souvient de la mer", "Les enfants du nouveau monde" d'Assia Djebbar ont vu le jour après l'indépendance. M'Hamed MHamsadji, Djamel Amrani ne sont pas restés inactifs, Kateb Yacine met une dernière main à son Polygone étoilé... Des éditions Nationales annoncent "Les 5 doigts de la main" du poète Hocine Bouzaker.

Kaki n'a pas cessé d'alimenter le Théâtre National Algérien.

Je sais ce que cette énumération a d'arbitraire et d'incomplet Je n'oublie pas les jeunes ou les moins vieux qui apportent çà et là dans notre presse leurs voix à cet ensemble. La mise en place des Editions Nationales sera à coup sûr d'une contribution décisive à la vie culturelle en ce pays. Par cette énumération de noms et d'œuvres, je le répète incomplète, j'ai simplement voulu montrer qu'il n'y avait pas eu silence depuis l'indépendance.

La lutte contre le colonialisme fut une source intarissable d'inspiration.

Maintenant que nous pouvons parler du colonialisme à l'imparfait, les sujets de roman, les raisons de poèmes demeurent autant innombrables. Un écrivain valable n'a pas son destin lié à un fait historique dont la disparition entraînerait sa propre caducité. Le fait même de vivre est matière à roman, est matière à poème.

Je vous ai brossé jusqu'à présent un panorama -Oh combien superficiel et incomplet- de la littérature algérienne d'expression française.

Je voudrais maintenant vous entretenir de ce que je considère comme sa caractéristique essentielle ou tout au moins ce qui, à mes yeux, la caractérise le mieux.

S'il y a quelque lâcheté parfois à préciser : "Ceci n'engage que moi", il y a toujours quelque indécence à s'improviser soi-même porte-parole et par là à remplir un mandat qui ne nous est pas confié. Dès lors cette chose bien admise, le pronom trop personnel "Je" s'épure de tout narcissisme déplaisant et toute représentativité usurpée.

Je tenais à cette précision car beaucoup de mes confrères et de mes amis ne partagent pas mes opinions et ma position dans ce que j'appelle le drame du langage, drame que j'ai résumé et tenter d'analyser dans mon essai "les zéros tournent en rond «et "Le malheur en danger" par ces trois formules:

L'Histoire a voulu que j'ai un défaut de langue est la langue française est mon exil.

J'écris le français, je n'écris pas en Français.

Je veux, je tiens à répéter, à préciser, comme je l'ai toujours précisé, en Algérie, en France et dans d'autres pays étrangers, dans mes livres, dans mes conférences et dans mes articles qu'il n'est pas dans mon esprit et dans mes intentions question de condamner la langue française.

Il n'est pas dans mon esprit ni dans mes intentions question, de près ou de loin, directement ou indirectement, objectivement, ou subjectivement, de faire le procès de la langue française ni même de remettre en question son existence.

La langue française est le seul moyen que je possède de communiquer avec mes semblables, avec mes lecteurs, avec mes compatriotes même. Ma seule communication directe sans intermédiaire, car je ne parle pas ici de mes œuvres traduites en russe, en allemand, en chinois, en italien ou en arabe.

La langue française m'a donné mes premières émotions littéraires, a permis la réalisation de ma vocation professionnelle.

Il m'est un devoir agréable de la saluer. A sa manière elle est devenue un instrument redoutable de libération. C'est en français que j'ai prononcé pour la première fois le mot : **Indépendance**.

Grandeur et misère de la littérature algérienne (08/02/1966)

(Problème de culture algérienne)

L'histoire a voulu que j'aie un défaut de langue. Le colonialisme ne se traduit pas seulement par la disparition politique d'un Etat. L'exploitation économique ne lui suffit pas. A l'agression physique correspondra en Algérie une agression morale, intellectuelle, religieuse, atteinte dans ses infrastructures, occupée géographiquement. L'Algérie fut occupée, si j'ose m'exprimer ainsi, dans son âme, la langue arabe en fut la première cible et la première victime... Le colonialisme voyait très loin et employait des méthodes d'une efficacité redoutable. Proscrite en Algérie, la langue arabe se réfugia dans quelques universités de Tunisie, du Maroc et surtout du Moyen-Orient. Elle trouva asile en Algérie même chez les gardiens de l'islam auxquels il convient de rendre hommage, sinon à leur pédagogie, du moins à la vigilance jalouse qu'ils apportèrent à sauver ce qui pouvait être sauvé.

Le colonialisme n'est pas seulement une pathologie de l'Histoire. Il demeure avant tout une tentative préméditée, concertée, systématique d'aliénation et de mutilation. Il nous imposa sa loi et sa langue. Ne pouvant détruire physiquement le Peuple Algérien, il le mina de son essence, dans son moi profond et fondamental.

Il en fit ou tenta d'en faire un orphelin d'Histoire. Chacun sait bien que de l'ignorance à l'amnésie il n'y a qu'un pas.

La langue française est mon exil : une langue n'est pas une simple convention, une simple commodité, un simple moyen de communication. Elle exprime l'âme d'un peuple et d'un individu. C'est en ce sens qu'un écrivain est le produit de l'histoire. C'est en ce sens qu'un écrivain authentiquement national est infiniment représentatif de son pays, Charles Péguy ne pouvait être que Français, Goethe ne pouvait être qu'Allemand, Gorki que Russe, Cervantès qu'Espagnol.

Ce qui ne serait qu'un inconvénient somme toute secondaire pour un homme de science, ce qui n'aurait aucune importance pour un peintre, un sculpteur ou un musicien devient une question de vie ou de mort nationale sinon professionnelle pour un écrivain. Les matériaux de L'écrivain sont d'une facture spéciale qui n'atteignent à l'universalité que par le truchement de la traduction. En matière littéraire comme en matière économique l'intermédiaire pose un problème. Il n'est pas besoin de connaître L'espagnol pour apprécier dans la totalité de son message un tableau de Goya. Mais il serait bon de connaître l'Espagnole pour apprécier toutes les nuances d'une œuvre de Cervantès. De même il n'est pas besoin de connaître le français pour goûter un Renoir.

Mais peut-on goûter véritablement Verlaine ou Aragon sans connaître la langue de François Villon ?

Bref, on pourrait multiplier les exemples à l'infini, point n'est pas besoin de parler le polonais pour écouter une Polonaise de Chopin.

C'est qu'en vérité on ne parle pas une langue, on la ressent, on la pense, on la vit. Elle détermine et élabore des formes de sensibilité spécifique. Le mot automne n'a pas la même musicalité, le même contenu en Français, en Arabe ou en Chinois.

L'écrivain qui est un travailleur des mots, comme il y a des travailleurs du bois, de la pierre, ne peut prendre avec ses outils la même distance que l'ébéniste d'avec le bois, que le tailleur d'avec la pierre, que l'orfèvre d'avec son métal. Il vit dans une langue, il y habite et elle l'habite, il est domicilié.

Il est domicilié mais tout est là qu'on peut être domicilié à l'étranger.

L'écrivain algérien d'expression française est donc une victime directe de l'agression coloniale. On l'a expulsé de sa langue comme on avait exproprié les Fellahs de leurs terres.

Mais le drame est là que si les paysans ont trouvés leurs terres à l'indépendance, les écrivains algériens de ma génération sont trop âgés pour tenter une reconversion. Je le dis sans amertume : je crois que nous sommes condamnés à la langue française à perpétuité.

J'écris le français, je n'écris pas en français : nos amis français s'inquiètent dès que nous abordons le problème de la langue française, de son devenir ici et dans le monde. Ils ont raison, elle est si belle.

J'ai pu personnellement constater cette inquiétude particulièrement chez les journalistes, les universitaires, les écrivains lors des conférences que j'ai données il y a quelques mois à Paris, à Strasbourg et à Nancy. Je suis sûr que cette inquiétude leur fera mieux comprendre l'attachement à la nostalgie que nous avons pour notre langue maternelle perdue et que les générations qui lèvent ont le devoir de retrouver.

Les écrivains algériens d'expression française qu'ils s'appellent Dib, Yacine Kateb, Feraoun ou Lacheraf - Ce dernier était une exception car possédant une double culture- n'en demeurent pas moins représentatifs de l'Algérie. Peut-être pas dans sa totalité et sa permanence mais d'une certaine époque de l'Algérie. Qu'on le veuille ou non le colonialisme fait partie de notre histoire.

Aux historiens de l'avenir nous serons l'illustration de ce qu'il en coûte à un pays d'avoir subi pendant plus d'un siècle une occupation étrangère.

Mais un mal n'est jamais tout à fait négatif et secrète parfois sa propre thérapeutique, puisque nous avons dans nos œuvres utilisé la langue française comme un moyen de faire connaître l'Algérie au monde, et aujourd'hui comme une arme de décolonisation. En réalité dans ce pays la solitude de l'écrivain algérien d'expression française, ne provient pas seulement du fait qu'il ne s'exprime pas dans la langue qui y est parlée. Je le dis bien et non pas écrite.

Les ravages de l'analphabétisme dont on connaît les causes et dont on connaît les remèdes-mais il ne suffit pas hélas d'en connaître les remèdes, encore faut-il les posséder- les ravages de l'analphabétisme n'épargnent ni les arabophones ni les francophones. Et lorsque nous nous plaignons, ou tout au moins que nous regrettons de ne pas avoir de lecteurs en Algérie, les écrivains algériens d'écriture arabe en sont à peu près au même point.

Donc, s'il est bon de se tourner vers le passé pour retrouver son âme, pour être soi-même, il est juste de ne pas s'éterniser dans les regrets stériles. L'indépendance n'a pas mis fin à nos problèmes, elle nous permet en toute souveraineté de les étudier et d'en adopter les solutions. Dans le domaine culturel comme ailleurs les miracles n'existent pas.

De par sa vocation, l'Algérie, riche d'une personnalité infiniment complexe est Arabe et Musulmane. Indépendance elle l'est déjà. Notre drapeau flotte libre sur Alger et sur le Palais des nations unis à New York.

L'Algérie s'organise dans sa pauvreté, ses difficultés et ses espérances. La guerre de libération l'a laissée épuisée dans un monde qui ne tolère pas les faibles.

La lutte contre le sous-développement économique doit nécessairement s'accompagner d'une lutte contre le sous-développement culturel.

La libération nationale passe aussi, passe d'abord par l'école.

L'Algérie aura véritablement recouvrée sa personnalité et son indépendance quand chaque Algérienne, chaque Algérien pourra lire sa langue, écrire sa langue. Alors seulement on sera mis un point final au processus de décolonisation. Quant à nous, je pense que nous sommes nés avec le colonialisme et que nous disparaîtrons avec lui.

Une scolarisation systématique, un enseignement pédagogiquement valable de la langue arabe fera que l'Algérie de demain, de bientôt, possèdera ses écrivains et les écrivains leurs lecteurs.

J'irai même plus loin, je pense que notre disparition hâtera ce moment, tant il est vrai qu'il est plus facile de résister à Massu qu'à Molière. La littérature ressemble étrangement à un voyage. On fait le tour d'un cœur, le tour d'une âme, comme on fait un tour dans son jardin, comme on fait le tour du monde.

Au siècle des Boeings et des caravelles, le stylo est encore le moyen le plus sujet, le plus rapide pour aller d'un homme à un autre.

Le seul respect que je dois à Camus... (18 février 1967)

Le docteur Ahmed Taleb vient de donner une conférence sur Albert Camus, dont notre journal a rendu compte par ailleurs.

Cette conférence est la bienvenue, sans passion, avec une calme lucidité, l'orateur a brossé un portrait du styliste et développé une analyse de son œuvre –dans l'optique qui nous concerne- qui sont une mise au point loyale et profonde, la précision d'une vérité historique. Une légende injuste tendant à s'instaurer, une fausse réputation à s'établir. Ce n'est point faire œuvre de polémique que de constater une usurpation de titre. La conférence du Docteur Taleb est une contribution d'importance à l'étude d'un écrivain qui se montra plus brillant dans les drames qu'il écrivait que dans ceux que nous avons vécus.

Une littérature de littorale ou de sable chaud pour des esthètes de carte-postale, un pays de rencontre pour un décor de ciel tout bleu, et cette brise qui sent le thé à la menthe goûtez-y, vous m'en donnerez des nouvelles! –des couchers de soleil à en assombrir l'orthographe des compositions de dictée à l'école primaire, un cheval arabe et un cavalier de commune mixte, cette Algérie de philatéliste, ne se reconnaît pas dans cette imagerie de tourisme colonial- .

Ce pays vivant, mouvant et émouvant, ce pays dressé dans sa colère, son refus, son défi, a trouvé pour l'exprimer d'autres voix et pour dire son chant profond des accents qui ne trompent pas, des accents venus du lointain de l'instinct, du fin fond des entrailles filiales. Cette mobilisation générale et spontanée, ce concernement direct et unanime ont établi sans équivoque les critères de l'algérianité. Le fait d'être né à Mondovi et de s'être penché çà et là sur la misère du fellah ne prouve pas son appartenance à une nation. Le déchirement passif d'un Camus l'a conduit à l'abstention. Encore que!

Le déchirement actif d'un maréchal et d'un général d'aviation ont amené Juin et Jouhaud à nier la notion algérienne et à prôner l'Algérie française. Juin et Jouhaud étaient aussi des pieds -noirs, mais avaient, eux le mérite de se déclarer franchement nos adversaires.

En vérité on ne peut parler du silence de Camus. Son ambiguïté, ou plutôt son équivoque, dissimule mal sa mauvaise conscience et l'inconfort de son argumentation. « L'homme révolte » est une des premières victimes de la guerre d'Algérie. L'occasion lui était offerte de mourir au chant d'honneur et de sortir de « l'absurde » pas même une balle perdue. Pas même un chant perdu. Pas même l'excuse de partager une cause injuste. Camus n'est pas un traître à l'Algérie puisqu'il n'était pas algérien. Il

n'était pas un déserteur puisqu'il n'a jamais rejoint les rangs de ceux qui ont fait l'indépendance. Il n'était pas un objecteur de conscience puisqu'il avait en réalité préféré sa mère à la justice. Nous n'avons aucun droit de le condamner puisqu'il n'était pas à nous, avec nous, de chez nous mais nous avons le devoir de remettre les choses à leur place et Camus a la sienne, de démystifier une légende qui tendrait à présenter cet écrivain comme un artisan de l'anticolonialisme, comme un serviteur de l'Algérie. Camus n'a trahi que l'espoir que sa génération mettait en lui. Il n'est pas le seul dans ce cas.

La lumière qui a pointé à Bardo et qui est devenue incendie en Algérie, a vu s'étendre et se voiler pas mal d'étoiles au ciel d'Occident comme il l'avouait et il le reconnaissait lui-même, Camus n'a fait que rejoindre sa communauté. Je pense quant à moi que son accident d'auto lui a épargné un jugement plus sévère de l'histoire.

J'entends déjà la réponse - et elle est de taille, et elle est respectable - : ce n'était pas simple. Il n'est pas simple en effet de choisir et nous qui n'avions pas à choisir, nous qui n'avions pas à trancher, nous saluons d'autant plus la démarche de ceux-là qui n'hésitèrent pas à nous rejoindre à faire corps et âme avec nous malgré tout ce qui m'en distingue et que l'histoire explique, rien ne me sépare d'un chollat ou un scotto mes compatriotes. Ce qu'un jeune médecin et un simple curé de paroisse ont osé faire, ont su faire, un prix Nobel n'a osé le faire, n'a su le faire.

Bien sûr, cela n'était pas si simple et ce mot merveilleux de Verne dans « le silence de la mer » s'éclaire d'une tragique et belle lumière : « heureux celui qui peut avec une aussi simple certitude trouver la voix de son devoir »

Qu'on ne s'y méprenne pas nous ne jetons pas la pierre à Camus. Nous refusons seulement de la lui apporter pour construire son monument. Nous n'avons pour lui aucune reconnaissance, que nous prenions ce mot dans le sens d'une gratitude ou d'une attestation d'Algérienité.

Le drame avec Camus est qu'il pose moins un problème moral ou philosophique qu'un problème public. L'asse encore qu'il n'ait pu s'élever au-dessus de sa condition de pied noir, de son optique de pied noir, de ses réflexes de pied noir, pour découvrir et admettre l'Algérie dans sa réalité -(dans son roman « la peste » qui se passe à Oran il pousse son racisme conscient ou inconscient jusqu'à ne pas même y faire figure un pestiféré de cru -pas même un tout petit pestiféré arabe, rien qu'un seul, pour le principe! -alors que même préfabriquées les élections d'alors permettaient la représentation symbolique de « l'indigène de service »-); passe encore que pour lui l'Algérie n'étant qu'un décor et les Algériens de simples figurants, Camus se démasque et ne mâche plus ses mots ordinairement plus habiles et prudents : « il faut considérer l'indépendance nationale Algérienne, en partie, comme une de ces manifestations de ce nouvel impérialisme arabe dont l'Égypte, présumant de sa force prétend prendre la tête et que, pour le moment la Russie utilise à des fins anti occidentales ». En juillet 1955 on retrouve sous sa plume le même jargon auquel nous avait habitué les Soustelle et Lacoste de l'époque, un jargon perfide et méprisant : « ...les murs se sont refermés autour d'une masse sans représentant, ni Bey, ni Sultan qui puissent parler pour elle et la personnifier ». -en niant le FLN, sa représentativité et son rôle moteur et dirigeant, Camus, l'écrivain engagé, Camus l'auteur de « l'Homme révolté », Camus le journaliste de gauche et d'extrême-gauche, Camus prend parti, contre nous, contre le peuple algérien qui s'immortalisant dans ces trois initiales qui devaient faire le tour du monde : FLN.

N'est pas Algérien qui veut! Cette nationalité-là, acquise à l'Etat civil de l'Histoire qui accouche aux fers est plus qu'une nationalité, elle est un titre.

L'Algérie a trop de souvenirs sacrés pour encombrer sa mémoire de rancœur ou de rancune. Elle sait bien, elle sait très bien reconnaître ses enfants et ses amis.

Le seul respect que je dois à Camus est celui que je dois aux morts.

Les générations se continuent vingt ans et plus (25 février 1967)

Aragon qu'on s'évertue à tort à me donner pour maître, mais que je tiens pour un des plus grands poètes du monde, m'écrivait il y a quelques vingt ans de cela ces mots qui m'irritèrent et que je ne pouvais comprendre : « il y a un sens péjoratif du mot jeunesse »

C'était le temps de tous les génies, de toutes les audaces et le fait d'aller à la ligue me laissait croire que je faisais des vers. La magie des paradoxes et l'opium de l'absolu nous entraînaient dans une générosité débraillée et merveilleuse. Nous découvrions Maïakovski et nous fredonnions « min Djibalina ». Le drapeau que nous souhaitions semblait une chimère d'au-delà. Les rues d'Alger sentaient la joie des autres. Yacine avait déjà connu la prison. Ben Badis en sortait pour aller à la tombe au calendrier du malheur le mois de Mai ne disait pas des fleurs. Notre jeunesse croupissait dans l'ornière coloniale. Lorsque je songe à nos vingt ans j'éprouve un vertige d'angoisse qui ne cessera qu'avec ma mort.

Il n'est pas dans mon propos de brosser un tableau comparatif des vingt ans d'aujourd'hui et des vingt ans d'hier- encore qu'il serait très intéressant de le faire- ni de méditer sur je ne sais qu'el faux conflit de génération, quelle polémique des âges stérile et fastidieuse. La culture est une permanence et déjà se mesure en éternité. Il n'y'a pas d'un côté les « yé- yé » et de l'autre les « croulants » d'un côté les anciens et de l'autre les nouveaux. En cette matière, prodigieusement vivante entre toutes, le mot relève n'a pas de sens (en relève un défi, en enlève la poussière). Il y a chez les créateurs ce qui ont du talent et ceux qui n'en ont pas. Un état civil ne fait rien à l'affaire, hormis la spécificité des expériences vécu.

Je vois un fleuve qui coule et qui s'écoule, qui ne s'arrête jamais et confond dans son sein l'apport de chacun. A quoi bon cloisonner, compartimenter, hiérarchiser. La chronologie n'est qu'une perpétuelle marche en avant. On ne situe pas des écrivains, des musiciens, des peintres comme on établit le pedigree des chevaux de courses ou leur classement dans une compétition. Il ne s'agit pas de se faire un nom mais de faire une œuvre. L'impatience est mauvaise conseillère.

Ahmed Azeggagh réclamait « je serais tenté d'écrire : exigeait- pour les jeunes le droit à la parole. Ici même, il plaida avec fougue la cause des artistes inconnus, moins connus. Il employa l'expression de « parents pauvres » - Ce n'est pas à lui qui j'aurais besoin de rappeler que nous sommes tous des parents pauvres, que les difficultés que nous connaissons sont les siennes, sont celles des créations de son âge, qu'elles ne se mesurent pas sur les plateaux d'une balance que notre motivation première, la lutte de libération s'appelle aujourd'hui l'édification du pays et qu'il ne saurait dans notre esprit et dans les faits détenir un monopole ou un privilège. Ce n'est pas à lui que j'aurais besoin de répondre que nous avons à faire face aux mêmes problèmes, aux mêmes drames dont le premier et le plus tragique ne devait pas cesser de nous hanter et de nous donner une leçon d'humilité : l'analphabétisme. Tant qu'il y'aura des gens qui ne savent pas lire dans ce pays, nous serons, nous écrivains, dans la situation de peintres qui exposaient pour des aveugles. Ce n'est pas à Azeggagh que j'aurais besoin de rappeler que la légende du poète maudit fût inventée par une société décadente, par des exégètes poussiéreux qui n'aiment pas qu'on les dérange dans leurs

habitudes de penser, par des littératures fatigués qui font leurs siestes intellectuelle au ronron douçâtre des vérités acquises. Il suffit qu'un poète ait un ulcère d'estomac ou un chagrin d'amour pour qu'aussitôt on le classe parmi les poètes maudits alors que ce sont là des péripéties qui arrivent tous les jours au commun des mortels. Je ne crois pas aux poètes maudit, je ne crois pas aux chefs-d'œuvre qui dorment dans les tiroirs.

Et l'on s'en va au fil de la plume et de sa générosité, citer les noms de Kateb Yacine, Mohamed Dib, Mouloud Maâmeri, Mouloud Feraoun, Mostefa Lachraf qui monopoliseraient et concentreraient en eux toute la vie littéraire du pays. On les oppose inconsciemment involontairement en toute bonne foi à d'autres romanciers et poètes moins connus et plus jeunes. C'est là une grande injustice et une grande désinvolture. Le fait d'être jeune ne donne pas que des droits et s'il n'y avait pas eu ces Kateb, ces Lachraf, ces Dib, ces Feraoun, ces Maâmeri gageons qu'il n'y aurait jamais eu les Azeggagh les Makhnachi. Ils ont ouvert le chemin et s'ils ont imposé leurs noms c'est que leurs œuvres se sont imposées en Algérie, comme à l'étranger. Va-t-on leur rapprocher d'exister? Ils n'existent pas à la suite de je ne sais quelle opération publicitaire.

Ils existent parce qu'ils sont devenus des phénomènes littéraires, des faits culturels et sociaux. On peut les juger sur pièces! Qu'on ne l'oublie pas.

Qu'on n'oublie pas également qu'ils eurent eux aussi vingt ans et vingt ans dans une Algérie occupée, bafouée, une Algérie amputée de sa langue et livrée au redoutable impérialisme d'une culture improvisée. Qu'on n'oublie pas qu'à l'époque ils n'avaient rien d'autre pour les soutenir que le message qui les habitait.

Faux problèmes et faux combats, l'Algérie véritable et la véritable littérature n'ont que faire des querelles d'école, des conflits de générations qui dissimulent mal les envies peu honorables. Les blés que l'on moissonne n'évoquent pas l'âge du semeur. Les lauriers ne sont ni coupés ni à tresser. Ils sont faits pour fleurir le long de nos rivières qui connaissent tant le prix de l'eau.

Du haut de ses vingt ans, on voit parfois très mal les choses. Il tomberait dans les lieux communs si je disais que nous avons tous eu vingt ans. Mais vous les jeunes, vous les jeunes d'aujourd'hui vous avez cette chance unique vous avez cette occasion historique d'avoir vingt ans dans une Algérie indépendante. Par la magie de la dialectique qui s'est payée si cher. Le rêve de nos vingt ans est devenu la réalité des vôtres. Je songe à tous ces livres qui dans vingt ans s'aligneront sur les rayons de nos bibliothèques, à tous ces tableaux qui s'accrocheront à nos murs, à toutes ces musiques qui seront la respiration de notre peuple. Et je pense, parce que je crois qu'il y a des sens merveilleux du mot jeunesse.

De l'écrivain et du lecteur **Citoyen et sujet** (1^{er} Avril 1967)

Lorsqu'on aura perdu la détestable habitude de vouloir à tout prix comparer un écrivain à un autre, un peintre à un autre, un cinéaste à un autre, un musicien à un autre, lorsqu'on se sera libéré de l'irritante manie qui consiste à classer les artistes selon un numéro d'ordre, on aura à coup sûr fait un grand pas dans la compréhension de la chose culturelle.

Si tous les créateurs se ressemblaient la création serait une affaire fastidieuse et les œuvres d'art révéleraient plus de la production industrielle, à la chaîne, en série, que de la conception personnelle et originale qui les caractérise. Les critiques professionnels ou

amateurs confondent leur goût d'avec un jugement objectif, leur préférence d'avec ce qu'ils croient les critères du Beau.

Qu'on ne se fasse aucune illusion, en ce domaine la subjectivité l'emporte de beaucoup et c'est avoir une humilité réduite que de s'affirmer juge ou expert. J'ai toujours en rue admiration vaguement éberluée pour le profane qui d'une phrase désinvolte exécute ou encense une œuvre. Il me rappelle un peu ces malades que l'authenticité de leur affection n'autorise pas à se substituer au doyen de la faculté et auxquels une maladie incurable ne confère nullement le titre de docteur en médecine. Je ne m'étonne plus de voir des gens dont l'assurance tranquille est une preuve de bonne conscience sinon de bonne foi critiquer un livre qu'ils n'ont pas lu. Que dirait-on d'un examinateur qui noterait un devoir sans même avoir pris connaissance de la copie.

Je ne parle pas des modes, des vagues, des vogues, des caprices, des goûts et des dégoûts, qui sont des phénomènes qui semblent échapper à toute explication logique.

Si j'ai parfaitement le droit de dire- et cela n'engage que moi-même qu'un tel est un grand poète, je me refuse celui d'ajouter qu'un tel est plus grand poète qu'un autre. Le prénom personnel «je» n'est pas alors une manifestation de narcissisme mais devient au contraire la marque d'un scrupule et la précision d'une appréciation toute personnelle. J'aime ou je n'aime pas, je comprends ou je ne comprends pas, je sens ou je ne sens pas. Beaucoup d'éléments entrent en jeu et je pense qu'en matière artistique, comme ailleurs, finalement on aime ce qui se rapproche le plus de nous-mêmes, ce qui nous ressemble le plus. J'aime d'autant plus un poète par exemple que je me retrouve en lui et qu'en fin de compte il chante à ma place, il parle pour moi. Ceci bien sûr, je le répète, n'est qu'un jugement strictement personnel. Et ce qui vaut pour la poésie vaut pour la peinture, la musique, le cinéma ou toute autre forme d'activité artistique.

Je suis donc de ceux qui pensent qu'il y a impossibilité totale à porter un jugement totalement objectif sur une œuvre d'art. On peut dire d'un mur qu'il est solide ou non, vertical ou oblique, d'un mets qu'il est salé ou sucré. Lorsqu'une œuvre est valable, où sont exactement les critères qui la rendent valable ou fameuse ? On peut dire d'une phrase qu'elle est correcte ou non mais là s'arrête notre base positive d'appréciation. On peut dire d'un livre qu'il est bien écrit ou mal écrit et c'est tout, et cela ne prouve pas grand-chose car des livres mal écrit, mal construits- selon les normes habituelles de l'écriture et de la construction – sont parfois des chefs-d'œuvre. Je pense à Celine par exemple. L'écrivain n'étant pas un photographe, son talent, sa sensibilité, son originalité déterminent des moyens d'expression qui échappent quelque fois à nos façons de penser et de sentir. Est-ce une raison pour le condamner ? Mais surtout que l'on ne se méprenne pas. Je ne prône pas l'abstention de jugement. La médiocrité ne «tient pas le coup», se condamne elle-même, se reconnaît sans hésitation. Je voulais surtout parler de la difficulté qu'il y a à juger et j'avoue ne pas être choqué de ma réaction un peu simpliste, lorsque, répondant à la question : «que penses-tu de ceci ou de cela?». Je réponds : « j'aime ou je n'aime pas».

Le cas devient pénible, douloureux parfois, lorsque, préjugant de la compétence que nous donneraient notre petite expérience et les quelques livres échappés de notre silence on nous soumet des manuscrits. Je sais tout ce qu'un manuscrit. Je sais tout ce qu'un manuscrit contient d'espérance et d'impatience surtout lorsque ce qu'il a de meilleur en lui est la croyance de son auteur.

Notre pays, lui a au moins cette chance de ne pas connaître cette plaie, cette lèpre que sont les «salons littéraires», les «milieux littéraires», les antichambres de la gloire, les vestibules papotant de la postérité. Si restreint soit-il, pour des raisons bien connues, notre seul milieu littéraire valable est notre public, nos lecteurs. Que dieu fasse que l'Algérie ne connaisse jamais les rives droite ou gauche d'une opinion calfeutrée, précieuse et snobinarde, et que l'artiste se contente de son œuvre et de son œuvre seulement pour briser le cercle de sa solitude et de rejoindre par là sa communauté qui est sa raison d'être, cette communauté qui elle-même rejoint l'humanité toute entière.

J'insiste sur le fait que la diversité des fleurs fait la richesse et la beauté d'un bouquet. C'est une image banale peut-être mais qui dit bien ce qu'elle veut dire.

Un artiste se définit par son œuvre et cela suffit amplement à la situer. Pour honorables qu'elles soient les écoles ne font que confirmer cette évidence. L'arabe doit tout à la forêt qui ne peut exister sans lui.

Et l'on en revient ainsi à notre mot d'ordre qui est tout un programme : produire! Il importe peu de savoir dans quelle catégorie on nous classe, quel numéro d'ordre on nous attribue. Les querelles d'école si fécondes pour le progrès de l'Art – de la discussion jaillit la lumière --les dialogues, les confrontations doivent reposer sur une matière suffisamment fournie pour les justifier. Il faut discuter sur pièce et non sur des intentions, de simples intentions qui feraient que toute table ronde se déroulerait dans le vide. C'est de cette masse de créations que se dégageront les idées-force, les grandes lignes, les tendances. Plus que jamais, malgré son inévitable solitude, qu'il ne faut pas confondre avec un isolement, l'artiste a son destin intimement, étroitement lié à celui de toute une démarche historique. Il refuse la «tour d'ivoire», la «plus haute branche» pour se mêler à la vie même de la nation. Il appartient par toutes ses fibres à son peuple. Son œuvre est sa contribution à l'édification de l'ensemble national. Cet ensemble national, rien ne l'en sépare et rien ne l'en distingue car ses caractéristiques, si variées soient-elles, sont les caractéristiques de cet ensemble. Il en est, qu'il le veuille ou non, le reflet, jusque dans ses contradictions que l'Histoire explique. Sujet de son art il est d'abord un citoyen.

Sujet du beau royaume où les idées se fondent au creuset magique et merveilleux de la création artistique, sujet de ce souverain despotique qui s'appelle l'Art, il est citoyen de la République Algérienne Démocratique et Populaire. Il se doit tout autant à l'un et à l'autre.

En marge du Poème et Roman littérature et Journalisme (8Avril 1967)

On pourrait épiloguer sans fin sur cette conviction de Goethe, à savoir que toute poésie est poésie de Circonstance. Après la guerre de 1914-1918, les surréalistes d'un peu tous les pays se divisèrent à sujet et en firent leur cheval de bataille, dans un sens ou dans un autre. La Circonstance conduit inévitablement à l'engagement.

Le mot engagement est de ceux qui réunissent le moins les hommes de lettres, les artistes en général. On s'engage pour ou contre une quelque chose, pour ou contre une idée. Mais on oublie trop souvent que tout acte intellectuel, tout acte qui requiert un jugement est un acte d'engagement. Et ne pas s'engager ne constitue pas un désengagement mais une prise de position. L'abstention elle-même une option. Quant au manque d'idée, c'est la mort de

l'âme. La poésie a une cause, une motivation. Elle est le reflet, la conséquence, l'interprétation d'un événement, d'un fait personnel ou extérieur, suffisamment notoire, remarquable pour être noté, transcrit en langage poétique. Généralement cette transcription se fait d'elle-même, s'impose impérieusement à notre Actualité Privée, qu'elle traduise un état d'âme ou un état de fait.

Si l'on n'entend pas le mot Circonstance dans son sens étroit de réalité contingente, on peut convenir avec Goethe que toute poésie est poésie de circonstance, d'une opportunité spontanément, presque inconsciemment saisie. La littérature, poème ou prose, qu'elle se veuille Réaliste ou non, est un témoignage. Elle rend compte. Elle explique. D'une Certaine manière elle raconte. On voit donc que par sa nature profonde le journalisme s'apparente à la littérature.

Il y a très peu d'écrivains, romanciers ou poètes, qui se consacrent exclusivement à leurs romans ou à leurs poèmes. En tout premier lieu, les exigences, les difficultés de la vie matérielle ne la leur permettent pas. On a beaucoup discuté là-dessus, je veux dire analyser le pour et le contre d'un second métier.

A l'instant précis de la création – et cet instant peut durer des mois et des mois – il est évident que l'auteur aimerait ne pas être dispersé, sollicité par des activités parallèles, qui le rendent moins disponible à son œuvre. Rien n'est plus fragile qu'un manuscrit qui traîne. Les idées se saisissent au vol, comme on prend un train en marche. Le moindre retard, report ou contre temps peuvent être fatals. Les rendez-vous manqués, les occasions perdues ne se retrouvent presque jamais. Et c'est dommage.

D'une façon générale, aujourd'hui encore plus qu'autrefois, c'est vers le journalisme ou l'enseignement que l'écrivain se tourne pour trouver une solution à ses problèmes matériels. Pourquoi l'enseignement et le journalisme (et parfois les deux)? La réponse est bien simple, ces deux formes d'activités sont compatibles avec l'exercice du métier d'écrivain. (Le contact avec des jeunes, les congés scolaires sont des facteurs qui entrent en jeu). Quant au journalisme, le fait de «savoir écrire», d'avoir la «plume facile» offre un débouché naturel tout indiqué à l'homme de lettres.

Ce second métier n'est pas un expédient, un pis-aller, une roue de secours plus ou moins confortable. La plupart des écrivains que je connais l'exercent avec autant de zèle qu'ils apportent à leurs œuvres. Écrire, comme peindre, n'est pas un dada dominical auquel on réserve tout son amour, tous ses soins. Ce sont là des domaines qui se complètent et parfois se poursuivent, qui peuvent bien souvent s'enrichir l'un l'autre.

Fréquemment les écrivains ont donné au journalisme ses lettres de noblesse et les grands noms de la littérature signent de plus en plus des articles de presse. Pour des raisons que l'on devine la presse tend de plus en plus à se les attacher, particulièrement de nos jours qui la voient sans cesse se spécialiser et se politiser, multiplier ses chroniques, ses enquêtes, ses reportages, ses tables rondes, etc... Les formules même de publication, hebdomadaires, magazines, revues, pages régulières, appellent cette collaboration et élargissent le sens commun du mot journalisme.

C'est un fait évident : l'écrivain n'a pas seulement besoin de «gagner sa vie», de subvenir à ses besoins matériels, il a besoin de communiquer avec ses semblables.

Le journal lui offre cette possibilité et un public qu'il ne tricherait pas forcément par ses livres. Le livre attend le lecteur, le journal, lui, va au lecteur tous les jours ou toutes les semaines, directement et insidieusement tout à la fois.

Il ne faudrait pourtant pas croire que le fait d'être écrivain l'autorise automatiquement à être journaliste. Je sais de très grands écrivains qui ne feront jamais des journalistes, soit, qu'à tort évidemment, ils considèrent le journalisme comme une forme dégradée de leur expression, soit, tout simplement qu'ils en sont incapables. Le journal permet et exige un contact direct avec le lecteur, un lecteur anonyme, souvent pressé, un lecteur qui veut être rapidement et globalement informé. Le romancier, et plus encore le poète, recherchant un but plus lointain, moins fonctionnel, une information plus personnelle, un échange, une communication. Le journalisme, à l'exception du long reportage, n'établit pas de pareils rapports. Cela provient en grande partie du fait que le travail de l'écrivain est un travail solitaire, réfléchi, lent et que celui du journaliste est un travail, résulte d'un travail d'équipe, un travail rapide, au rythme de l'événement, un travail frénétiquement mouvant, quotidiennement repris et renouvelé. Le matin, lorsqu'on ouvre son journal, on prend acte d'une somme, d'une synthèse, bref, d'un résultat collectif. De la rédaction au «marbre» et à la rotative la pensée du journaliste s'est moulée, s'est fondue avec les plombs qui lui donnent son éternité d'un jour.

Ce contact direct et répété qu'a le journaliste avec l'actualité et son lecteur est une dimension qui ne peut qu'enrichir l'écrivain toujours exposé au danger de sa cogitation solitaire. Mais un autre danger le guette alors, celui du «jargon» auquel il peut s'habituer pour faciliter l'expression en raccourci de sa pensée. L'art s'en accommode très mal et s'en ressent le marbre peut devenir la stèle funéraire d'une carrière littéraire ou le manuscrit prestigieux d'une chronique qui ne finit jamais

Au fil des lettres (15 juillet 1967)

Cet acte par lequel une idée devient architecture sonore, cet acte qui fixe et projette la vision intérieure, cet acte qui en quelque sorte immobilise la pensée en la coulant au moule du poème, cet acte est l'aboutissement d'une longue et méticuleuse opération. Il à la rigueur de la gestation il exige tout autant la spontanéité et la technique. La création est simultanément un don et un art. Elle est donc un métier.

C'est dire que l'acte poétique ne saurait se confondre avec le fait «d'aller à la ligne» ou cette rime que le hasard des mots appelle. C'est dire surtout son exigence et sa fragilité. Organisme vivant il est à la merci de la moindre faute d'écriture ou de goût. En poésie, le ridicule tue. L'acte littéraire en général, l'acte poétique en particulier, sont des actes graves qui ne sauraient satisfaire leur auteur du seul fait d'avoir été accomplis. L'art répugne à l'à-peu-près. Il ne tolère pas le passable. Un jour ou l'autre le poème finit par se venger lui-même d'avoir été composé et plus encore publié, un peu comme ces enfants malades ou congénitalement anormaux qui reprochent à leurs parents de les avoir mis au monde.

L'utilisation d'une langue étrangère augmente encore les risques de l'entreprise.

Si l'acte littéraire est une entreprise, la publication, elle, demeure une aventure dont, au départ on ne peut mesurer les conséquences. Il y a un risque à prendre à livrer sa pensée au public et d'inévitables malentendus.

On n'écrit pas pour «passer le temps» on n'écrit pas pour se soulager de ce que l'on croit «sa vérité», on n'écrit pas de temps à autre à l'occasion d'un événement qui éclate dans notre émotion transcrite. Il n'y a pas de «poètes du dimanche», pas plus qu'il n'y a pas d'âge où l'on écrit, où l'on est porté à écrire : adolescence douloureuse, chagrin d'amour, incompréhension, fleur-bleue ou fleur du mal, ou mal des fleurs la rose ou les épines... non! Je ne dirai pas qu'on rentre en littérature comme on rentre en religion. Entre écrivain n'est ni un sacerdoce ni un apostolat. On est écrivain – romancier ou poète – et chez-nous généralement les deux – comme on devient médecin, aviateur ou chercheur. C'est un métier comme un autre et ce qui le caractérise est la nature de sa production. Je dis : «comme on devient» car il est évident, qu'au-delà d'une prédisposition, la technique s'apprend, s'étudie, s'acquiert. La facilité – enfin, ce qu'on appelle la «facilité» --, n'est rien d'autre que la rapidité avec laquelle s'exerce cette technique. Il existe, en écriture, comme en d'autre domaine, un véritable entraînement, aussi méticuleux et aussi suivi qu'un entraînement sportif. En tout premier lieu, la lecture en est un.

Les élèves des Beaux-arts consacrent un temps énorme et profitable à l'observation et à l'analyse d'œuvres exposées dans les musées ou reproduites. Ces œuvres de maîtres incontestés deviennent ainsi des exercices d'écriture. Et cela des années durant. Le diplôme qu'ils obtiennent en fin d'école, s'il ne leur confère pas toujours au talent ou de génie, leur confère – et c'est très important – une technique sûre. Leur tempérament se chargera «d'animer» cette technique, de lui donner une vie et une âme, une marque, un style. De lui donner un contenu.

L'apprenti-écrivain dédaigne souvent – trop souvent – l'étude de ceux qui l'ont devancé. Ils dédaignent cette source indispensable d'enseignement : la culture. Ils n'ont pas de maîtres au sens le plus pédagogique, mais des modèles. Des lors, ils imitent. Ils pensent en toute bonne foi que leur «génie» naturel est la condition suffisante de la création. On ne crée rien à partir de rien.

Il existe une école de médecine, une école des beaux-arts (je n'ai jamais tout à fait compris ce pléonasme), une école d'architecture etc... il n'existe pas d'école discernant la qualité d'écrivain. Seule l'œuvre, ici, confère le titre. Et bien souvent on se décerne ce titre soi-même...

Il faut lire, lire sans cesse, comme les apprentis-ci-livres de bons romans, de beaux poèmes. Il n'est pas de meilleur moyen de posséder une langue, de la posséder totalement, d'en connaître les ressources pour la dompter comme le musicien dompte le bruit et le silence pour en tirer son langage propre.

Il faut lire, lire sans cesse, comme les apprentis -cinéastes voient un nombre incalculable de films pour avoir une culture cinématographique, ou revoient inlassablement le même chef d'œuvre, non pour s'en imprégner, mais pour apprendre les méthodes du réalisateur, sa pensée, ses astuces, ses «ficelles» même. La lecture est une incomparable initiation. La difficulté réside évidemment dans l'assimilation de cette lecture et c'est là qu'apparaît la nécessité d'un équipement intellectuel de type strictement scolaire ce qu'on appelle la

«formation». Je ne crois pas à la vertu magique des diplômes attestant cette formation mais je crois au minimum de garanties qu'ils fournissent, au minimum de possibilités qu'ils accordent. En littérature cela va de l'orthographe à la syntaxe, du vocabulaire à la formulation. Cela vaut pour la prose comme pour le vers. La connaissance d'une langue est à la littérature ce que le dessin et la couleur sont au peintre, le solfège au musicien, on peut écrire une chansonnette sans connaître la musique, on ne peut composer une symphonie. La littérature comme toutes les autres branches de l'activité intellectuelle et artistique a ses lois. La poésie est une science exacte.

Cet acte littéraire qui n'est pas un caprice, un jeu momentané, qui se répète à l'infini, ne tolère pas la satisfaction. «La satisfaction, c'est la mort» disait justement G.B Shaw. Il est un dialogue impossible et ininterrompu et finalement une façon d'être Terriblement encombrant il accapare toute une pensée et toute une vie. Dès l'aube de l'humanité on retrouve le poète et sa recherche permanente, témoin, «oiseau de la plus haute branche» ou « haut-parleur en chef». Il n'est pas jusqu'à son silence qui ne continue son œuvre nous avons eu l'occasion en ce domaine de nous rendre compte que les points de suspension l'emportent de beaucoup sur la chose écrite.

Il ne s'agit pas ici, dans le cadre de simples réflexions du poète, ni de faire ce que l'on pourrait appeler une «anatomie et une physiologie» de l'acte littéraire. Les quelques écrits échappés à notre silence ne nous en donnent ni le droit ni les moyens. Nous avons seulement voulu dire, voulu faire sentir qu'écrire est un acte important, que publier est un acte grave. Nous le disons surtout à l'intention de jeunes qui doivent savoir que les satisfactions sont rares et doivent être rares dans la carrière des lettres. Nous le leur disons moins pour les décourager que pour les mettre en garde contre des déceptions qui d'ailleurs ne prouvent pas que le monde est méchant. S'il y a quelques risques à être poète le premier d'entre eux est à coup sûr la solitude qu'il nous échoit et qu'il nous faut combattre, cette tendance à l'irréalité que la froide lucidité d'un monde organisé remet en question ou tourne en dérision.

Oh, je sais bien qu'un poète averti n'en vaut pas deux et que les difficultés ne sauraient décourager celui qui croit profondément en son destin. D'autre part, la deuxième moitié du vingtième siècle, période de haute technique s'il en fût, est paradoxalement une époque faste pour les lettres. L'écrivain de nos jours est intégré à son milieu et participe à la vie sociale. Les progrès extraordinaires de l'Édition et l'incessant développement des procédés audio-visuels lui offrent des possibilités d'expression dont prédécesseurs ne jouissaient pas. Il n'y a plus, ou de moins en moins, de «poètes maudits».

Et le fait d'être dans la lune ou dans les nuages n'est même plus une vue de l'esprit ou une façon de parler.

De nos jours, et pour ces raisons, il est bien rare qu'une œuvre valable dorme dans les tiroirs comme on dit. Le problème n'est pas tellement de publier, de publier à tout prix. C'est la qualité du message qui importe et qui importe d'abord.

Un bon manuscrit a toujours le dernier mot.

Fixer l'éternité (30 septembre 1967)

Je me souviendrai toujours de cette lettre que je reçus d'un de mes amis, miraculeusement rescapé des combats de notre guerre de libération. Il venait de lire un de mes livres, un roman en fin duquel le héros trouvait la mort au maquis. J'avais tenté de reconstituer un accrochage sur les crêtes d'après des récits, des témoignages, des communiqués de guerre. Mon ami m'avait fraternellement reproché de «faire de la littérature» et m'avait décrit une hallucinante bataille, monstrueuse, démoniaque, inhumaine à laquelle il avait participé. Je me souviens de cette leçon et j'en profite dans la mesure où je ne pense pas qu'il faille forcément avoir vécu un événement pour le raconter. La relation de cet événement n'est pas une œuvre de fiction et la mémoire et l'imagination sont en littérature, très souvent, une seule et même chose. Sinon, il n'y aurait pas d'historien ou de romancier. Mais il est évident que le fait d'avoir vécu un événement se ressent à l'écriture bouleversante de sincérité, d'authenticité. Le témoignage vécu est incomparable. Il a la saveur du souvenir personnel, de la participation effective et directe, il fait partie d'une vie, d'un passé, d'une biographie. Mais tout est là qu'il ne suffit pas d'égrener ses souvenirs pour écrire un livre et qu'à défaut d'être témoin-participant, l'écrivain peut, en prenant sous la dictée de l'histoire, participer à sa façon, en le rendant impérissable, à l'événement en question. Prendre sous la dictée de l'histoire, ne fait pas de lui un simple «scribe», puisqu'il est lui-même concerné, totalement concerné et que les ressources de son métier et de son talent se mettent au service d'une réalité vénérable. Suprêmement vénérable puisqu'elle est un des grands moments du destin national. De plus, prendre sous la dictée de l'histoire n'est pas, pour le romancier, un acte passif qui se ramenait à une simple transcription. A sa façon le roman est toujours une aventure vécue. Les droits imprescriptibles de l'imagination ne sont pas la prime à la fiction. La sensibilité fait le reste.

Mais le souvenir vécu recèle souvent en lui-même sa propre vertu de chef-d'œuvre, son propre talent, sa magie formelle et son irremplaçable pouvoir d'évocation vivante. S'il est bien vrai que ceux qui ont beaucoup souffert répugnent, par une noble pudeur et une noble humilité, à raconter, à se raconter, s'ils savent la vanité des mots, il leur arrive cependant, aux heures inspirées de parler, de dire l'obsession discrète, en s'effaçant généralement derrière l'exploit des autres. Ils trouvent alors des mots, ces silences et ces accents qui ne relèvent ni d'un métier, ni d'une technique et qui valent tous les métiers et toutes les techniques de l'écrivain le plus doué.

A ce propos, on ne peut pas ne pas penser, ne pas revenir aux problèmes de la tradition orale, cette tradition orale qui est comme l'éternité d'une âme nationale et qu'il faut rechercher, fixer, éterniser plus encore en la radent disponible, disponible à l'étude et aux joies de l'esprit. Les techniques audio-visuelles dont nous disposons aujourd'hui doivent nous permettre de recueillir, de classer ces trésors de notre patrimoine culturel, chansons, danses légendes, récits de paix ou de guerre.

Un mot de Jacques Maritain («Art et Scolastique»), m'obsède littéralement : «Malheureusement les aventures qui ne sont pas contées». C'est vrai, c'est tellement vrai ...

J'ai souvent songé au drame de ces écrivains, de ces peintres, de ces musiciens, de ces cinéastes, qui n'ont plus rien à dire, qui ne savent plus que dire, et qui se réfugient dans des recherches formelles, à la poursuite sans cesse déçue, la poursuite douloureuse de sujets, de

thèmes, de sensations, dans un érotisme qu'ils pensent «dépassement», dans un désespoir qu'ils pensent «message».

Nous avons, quant à nous, la chance d'avoir vécu directement ou indirectement, mais toujours passionnément, une époque de haute densité humaine, et de la vivre encore. Les sujets, les thèmes nous sont fournis par la réalité elle-même, notre réalité, passé ou présente, et un présent déjà en devenir.

Oui, malheureuses, les aventures qui ne sont pas contées, qui dorment dans la mémoire ou dans le souvenir qui ne se partage pas, qui ne se raconte pas.

Que de films à faire, de romans à écrire, de toiles à remplir!

Les plus beaux morceaux de bravoure humaine, les plus beaux exemples de générosité, d'amour, de fraternité, une lumineuse et vivante anthologie, à l'école de la douleur, à l'école de l'espérance, des gestes impérissables, des raisons sans cesse renouvelées de croire, d'être fier, l'œuvre doit venir, à la caméra, au chevalet, à la guitare, au manuscrit.

De Feraoun à Fussik –deux poètes assassinés- mais peut-on assassiner les étoiles! Cet amour de la patrie est un humanisme en marche, en action une rue de Prague ou d'Alger, une rivière qu'on connaît, un ciel qu'on reconnaît, une école d'enfance, un visage effacé... c'est là que nous devons puiser, nous rafraîchir, pour la documentation la plus fournie et la plus pathétique qui soit.

De même que l'on a parfois le regret de ne pas disposer dans l'immédiat d'un appareil de photographie pour saisir un coucher de soleil, une aurore, un rayon, un regard, une silhouette fugitive, de même que d'idées s'envolent, que de récits s'envolent, que de merveilleuses chanson et légendes se perdent dans la nuit des temps, se dissolvent dans la mémoire imparfaite des hommes.

Ils ne sont pas tout à fait morts ceux-là que nous chantons, ceux-là qui s'immortalisent dans notre attendrissement, dans notre reconnaissance, dans notre fidélité. Une pièce de théâtre, un roman, un film, une émission radiophonique, et ils sont là, nous les retrouvons, ils reviennent au rendez-vous des ombres et des lumières.

Malheureuses les aventures qui ne sont pas contées, ces mois ne mettent pas en cause leur utilité, leur gloire, leur impérissable valeur d'exemple. Parce que, en fin de compte, c'est nous qui nous en priverions, c'est nous qui en serions frustrés. C'est alors nous qui serions malheureux.

Finalement, il nous appartient de fixer l'éternité..

L'Art dans la cité (8 Mars 1966)

On connaît le trop fameux : «quand on parle de culture, je sors mon revolver». Le docteur Gobbels ténor écouté du régime nazi, ne prenait plus même la peine de tricher, de déguiser ses mots et sa pensée. Il est rare que les criminels, les tueurs de l'esprit, les assassins de l'âme, les fossoyeurs de guitares et de rossignols apportent autant de franchise à l'expression de leur profession de foi. En

vérité il ne s'agit pas de franchise mais de cynisme. Ce mot trop fameux donc, il y a quelques temps un écrivain répondait : « Moi, quand on me parle de révoluer, je sors ma culture».

Il est bon, il est juste, il est réconfortant que l'honneur réponde à la bête, c'est-à-dire en fin de compte à la bêtise.

Le premier Novembre 1954 ne fut pas seulement le début de la lutte d'un peuple pour son indépendance strictement politique. Il marqua avant tout la volonté d'un peuple pour retrouver sa véritable personnalité, ses valeurs bafouées, sa langue en agonie, sa spiritualité propre, sa façon d'être, bref son moi national et historique que le colonialisme étouffait méthodiquement en attendant de le faire disparaître. Une véritable personnalité, une spiritualité propre des valeurs spécifiques, une langue, une manière de sentir et de penser, tout ce qui résonne au timbre affectif d'un peuple, tout ce qui le concerne, tout ce qui le sensibilise et qui vient du fond d'une âme et d'un instinct, tout cela s'appelle Culture.

Le mot Culture est un mot qu'on a dramatisé, qu'on a, avec désinvolture ou préciosité, voué à toutes les définitions. Prisonnier des dictionnaires et jouet des théoriciens, il s'est vu devenir une entité, une abstraction, un concept vide de toute chair humaine. Une idée dépouillée de toute humanité réelle, en quelque sorte une métaphysique. La métaphysique et l'abstraction sont souvent le refuge d'acrobates de leurs plus soucieux de leurs prouesses que de ce qu'il est communément convenu d'appeler la vérité.

On y mêle pour passionner et compliquer les choses les vieilles querelles d'écoles, d'académies ou de partis. On y oppose les matérialistes et les idéalistes, les marxistes et les spiritualistes, dans un débat stérile qui laisse souriant le véritable homme de culture. Ces débats, ces discussions, ces polémiques n'aboutissent pas, ne peuvent aboutir. Ils dégénèrent la plus part du temps en règlements de comptes qui pour être bien écrits n'en demeurent pas moins des règlements de comptes. S'il est vrai que de la discussion, une discussion franche et désintéressée, peut jaillir la lumière, de ces empoignades publiques ou privées il ne paraît pas que la culture en ressorte grandie.

Chacun de nous à sa façon, à sa manière, est un homme ou une femme de culture. L'artisan dans l'échoppe de nos ruelles, en gravant sur le cuivre ou sur le cuir les dessins et les figures qui lui viennent du passé, est un homme de culture. Le bijoutier, le potier, sont des hommes de culture.

Les maçons _ ces urbanistes méconnues qui édifièrent nos villes du sud et qui firent tant rêver un Le Corbusier _ sont gens de culture. Comme la mère qui nous raconte l'histoire que sa mère lui avait contée. Comme le troubadour de village qui improvise sur un violon d'infortune des mélodies à rendre jaloux le vent, comme le romancier devant son papier, le peintre devant sa toile, le chercheur devant ses documents.

Le mot culture est un mot qui se suffit à lui-même et qui n'a pas besoin d'épithète pour le qualifier.

Une chanson bédouine qui frissonne de toute la tendresse mélancolique du Hodna, un tapis d'El-Oued chargé de tout le soleil vainqueur du pays soufi, un poème de Kateb Yacine, une rêverie de

Mohamed Dib, une miniature de Racim, un allégorie de Baya, un refrain de Hadj El Anka, une guitare andalouse, un morceau choisi de la complainte Kabyle, pieusement recueilli par Jean Amrouche et pieusement chanté par sa sœur Taos, un livre de Lacheraf, un tableau de Issiakhem, un cri d'Anna Gréki, une réalisation de Mustapha Kateb, une pensée du Cheikh Abdelhamid Benbadis c'est là une autre forme de notre présence, de notre permanence et de notre représentation à cette capitale qui n'a qu'un nom : la civilisation universelle.

Le malheur rend facilement artiste et les Algériens ont trop souffert pour être indifférents aux choses de l'art et de l'esprit.

La vitalité d'un pays se mesure bien sûr à des réalisations plus concrètes et d'une priorité d'urgence plus immédiate : la mise en état d'une économie saine, l'industrialisation, l'alphabétisation, la scolarisation, etc....

En vérité tout est question prioritaire en Algérie et tout se tient, toute forme un ensemble dont l'élaboration est la contribution de tous.

Aujourd'hui, la culture n'est plus le simple rapport qui liait le créateur à son œuvre. L'artiste- homme libre par excellence et dont la liberté conditionne essentiellement la création- n'est plus seulement responsable de son œuvre devant l'idée qu'il se fait de son devoir d'artiste. Sans être le prisonnier d'un pragmatisme sans âme et d'occasion, plus inspiré par l'opportunité que par son tempérament, l'homme de culture présente son œuvre pour enrichir le patrimoine nationale et partant universel.

Il est cette goutte d'eau dont la répétition multipliée à l'infini fait le fleuve et les océans.

Il est le témoin de son œuvre et le témoin de son temps. Son talent, sa sincérité et son désintéressement sont les meilleurs garants de son civisme et de son humanisme.

N'aurait-il d'autre ambition que d'être à la hauteur de sa solitude qu'il mériterait par la même une place de choix dans la cité.

Autant qu'un champ de blé!... (11 Mars 1966)

Les années passent vite en Algérie, très vite, et le temps n'a pas les mêmes dimensions ici qu'ailleurs. Heureux les hommes dont l'âge est en rapport avec celui de leurs artères. Pas chez nous l'âge ne découle pas d'un état-civil mais d'une résultante déterminante : l'expérience. En premier lieu l'expérience du malheur cette cocotte-minute de la maturité. L'Algérie est un pays mobile. C'est ce qui déconcerte nos amis et nos ennemis dont les jugements se fondent sur des critères qui n'ont pas cours ici. Le mot jeune, pris dans son acception intrinsèque ne signifie pas grand-chose.

Je me souviens d'avoir écrit qu'à ma connaissance personne n'eut jamais vingt ans en Algérie. Il s'agissait d'hier, du règne du forban colonial. Les vingt ans d'aujourd'hui ont une autre saveur et d'autres perspectives. Ils s'inscrivent dans un ensemble cohérent, dans l'unité dynamique d'un État libre. Déjà maître de nos destinées, nous sommes responsables

de nos joies et de nos peines. Déjà, pour certains, s'estompe et s'efface l'énorme excuse et l'inattaquable alibi qu'offrait l'occupation étrangère à leur médiocrité. Déjà les difficultés que nous avons à surmonter se présentent à nous sans équivoque de leurs causes et l'ambiguïté de leurs origines. De plus en plus, heureux ou malheureux nous devons ce bonheur ou ce malheur à nous-mêmes. Être l'auteur de ce qui va bien et de ce qui va moins bien, cela s'appelle aussi Indépendance. L'Indépendance n'est pas la fin de nos problèmes. Elle est le début de leur solution. N'aurions-nous que notre drapeau pour réchauffer nos cœur et tempérer nos impatiences que nous remercions dieu de nous avoir permis de vivre dans un Algérie indépendante.

La Culture algérienne attend une sève nouvelle et cette sève ne pourra jaillir que des jeunes eux-mêmes. Les expériences diffèrent mais se complètent. Il ne s'agit pas de prendre une relève sur les pas épuisés d'une génération qui a fait son temps. Aucune génération n'est périmée. Rien n'est plus stérile, nuisible, rien n'est plus ingrat que ces procès véhéments et injustes qu'une génération qui monte intente à celle qui l'a précédée. Je ne sais si l'Histoire est une science exacte mais elle a sa logique. Et cette logique commande, impose une marche toujours dynamique, un mouvement sans cesse créateur qui fait boule de neige sur les chemins qui se poursuivent et ne finissent jamais.

Il ne s'agit pas non plus d'un cloisonnement. «Les jeunes avec les jeunes»... C'est faux ! Mais il est bien évident que les problèmes culturels qui se posent à ceux qui ont vingt ans aujourd'hui, 20 ans dans une Algérie indépendante, ne sont pas les mêmes que ceux qui se posaient à nous, il y a vingt ans dans une Algérie en danger de mort intellectuelle et spirituelle. Il est bien évident que les problèmes culturels qui se posent à des jeunes, les concernent d'abord en premier lieu et qu'il leur reviendra l'honneur de la résoudre, comme nous avons plus ou moins résolu certains des nôtres dans le désordre pathétique de nos solitudes et de nos expériences. L'Histoire n'a jamais donné de talent à personne et pourtant le talent n'est jamais un hasard. L'affirmation d'une personnalité culturelle est un long cheminement, une longue patience. On ne fait pas carrière dans la culture comme on peut faire carrière ailleurs. Les satisfactions sont rares et les impatiences dangereuses. L'Art est un Droit. Le talent ne l'est pas. Réussite, mots qui ne veulent rien dire aux jardins qui sont beaux. Mais l'audace quand elle est une conviction, une foi, une volonté, paie toujours.

Les jeunes artistes d'aujourd'hui, qu'ils soient peintres, cinéastes, comédiens, écrivains, poètes, musiciens, chanteurs, sculpteurs, voient le jour-oh non pas dans le meilleur des mondes- mais néanmoins dans un monde meilleur. Ils disposent, s'ils le veulent bien, s'ils le méritent de moyens techniques qui nous eussent paru, il y a vingt ans, un rêve. Une Radio, des Éditions Nationales, une École des Beaux-arts, une presse, un Théâtre National, un centre National du cinéma. Ils peuvent bénéficier de stages ou de bourses. Il leur appartient de rôder ces appareils ces instruments, de se battre pour ce qu'ils jugent Beau et Utile, de s'imposer dans le cadre des actions salutaires, de s'expliquer, de lutter avec désintéressement contre certains préjugés et certaines routines, de se sentir enfin chez eux, totalement chez eux dans ce pays qui les aime avec son cœur innombrable, qui les aide avec ses moyens pour l'instant limités. Qu'ils fassent de «l'union des Écrivains» succès, célébrité sont des une véritable «union des Écrivains». Et pour cela qu'ils soient l'abord des Écrivains véritables ! Qu'ils fassent de : « l'union des Arts Plastiques» une véritable «union des Arts Plastiques». Et pour cela qu'ils soient d'abord des peintres véritables, des sculpteurs véritables, des graveurs véritables.

Les plus sûrs soutiens, le plus sûr appui, c'est dans leurs œuvres qu'ils le puiseront dans leurs créations. Il faut créer! Il faut écrire, il faut peindre, il faut graver, il faut faire des chansons, des scénarios, des pièces de théâtre. Il faut créer, toujours créer, en laissant dire, en laissant faire, dans le superbe orgueil et la noble humilité de la conscience tranquille.

Il ne s'agit pas d'être connu.

Il s'agit d'être reconnu!

Il ne s'agit pas d'imposer, il s'agit de s'imposer. L'Art se juge sur pièces et sur qualité.

Je n'ai jamais douté du jour où l'on respectera l'artiste autant qu'un champ de blé.

Produire (11 Février 1967)

Je sais bien qu'aujourd'hui le poème est tracteur, usine et bâtiment, qu'un atelier qui s'ouvre et un regard qui se déroutent, qu'une forêt qu'on plante et un espoir qu'on enracine, qu'une route qu'on trace est une victoire sur la solitude et l'isolement. Je sais bien que la renaissance de ce pays après sa disgrâce historique, passé par le fellah, l'ouvrier, le médecin, l'instituteur. Le mot «priorité» s'impose à notre vocabulaire et à notre esprit comme un programme d'urgence et une thérapeutique de toute première nécessité. Il faut faire face. Faire face à la vie. Faire face à la mort. L'Indépendance, une indépendance ne vaut que par son contenu. Dérisoire si elle est formelle, illusoire si elle ne réalise pas concrètement la volonté sacrée de nos martyrs à savoir la libération profonde de l'homme Algérien, la restauration de son patrimoine culturel, l'élaboration salutaire de son idéal politique et spirituel.

Cette priorité d'urgences qui consiste à faire face, à remettre en État, à gérer, à promouvoir, ne se ramène pas à la formule vaguement simpliste et fatalement arbitraire de «parer au plus pressé». Bien ici comme ailleurs tous les problèmes se tiennent, sont étroitement liés mécaniquement et humainement solidaires et dépendants les uns des autres. En vérité. Il n'existe pas de problèmes particuliers mais des problèmes d'ensemble et, partant, ces problèmes exigent et appellent des solutions d'ensemble.

Dans un pays quel qu'il soit, la culture n'est pas un luxe, n'est jamais un luxe. Notre patiente ambition et notre rêve serait qu'elle cessât d'être un privilège. Lumière pour tous!

Lorsqu'on dit : Patrimoine National, il s'agit aussi, il s'agit en même temps, il s'agit également de ses Arts, de ses Lettres, de sa lointaine spiritualité, bref de ce que l'on appelle communément et justement le Génie d'un peuple.

Je crois aux gouttes d'eau parce que je crois au Fleuve et je pourrais fort bien inverser ma phrase, en manière culturelle tout comme en d'autres domaines la production est la mesure du Travail. En matière culturelle, comme en d'autres domaines, il faut produire. Encore produire, toujours produire, en musique, en littérature, dans les Arts Plastiques et Graphiques dans le monde de la Radio comme dans celui de la Télévision, dans le monde du Cinéma, comme dans celui du Théâtre. Il faut produire, il faut créer, il faut réaliser. On élève le niveau culturel d'un pays comme on élève son niveau de vie, par un effort constant, par la mise en valeur des âmes qui ne demandent qu'à vibrer, telles ces belles et généreuses terres

que la friche condamne à une insupportable vacuité. Notre passé est trop riche, notre présent est trop dense pour que ne jaillissent pas des œuvres et des chefs-d'œuvre.

Un livre de plus, signé d'un auteur algérien, à la devanture d'un libraire, une exposition de peintres algériens, un Festival de musique algérienne, sur nos écrans des films algériens, tout comme sur nos scènes des comédiens algériens c'est là, en même temps que l'application et la confirmation de notre personnalité algérienne, une affirmation et une confirmation de notre indépendance nationale. Il est très triste de constater que des gens savent lire, qui ont la chance de savoir lire ignorent parfois les noms et les œuvres d'auteurs de chez nous célèbres à l'étranger. S'il est grave, s'il est très grave de vivre replié sur soi-même, dans une sorte d'antarcie intellectuelle, il est tout aussi grave d'œuvrer pour seules références culturelles des apports étrangers.

Produire, encore produire, toujours produire c'est. Pour l'homme de Culture, non seulement se réaliser lui-même devenir lui-même, mais déjà une façon de Civisme. Tout enrichissement du patrimoine national est un acte positif et large de patrimoine. Chaque fois qu'un livre algérien est traduit à Rome ou à Pékin, c'est un peu de l'Algérie qui rayonne, chaque fois qu'un visiteur étranger admire une toile de notre peinture, c'est un peu l'Algérie qu'il salue.

Mais l'importance de nos gens de culture revêt toute sa noblesse et toute sa grandeur dès lors que l'on songe à notre jeunesse, à celles-là et à ceux-là qui auront vingt ans ou qui ont en vingt ans dans une Algérie indépendante. Celles-là et ceux-là qui doivent d'abord trouver chez eux ce qu'ils seraient tentés de chercher ailleurs. Celles-là et ceux-là sont des Algériennes et des Algériens libres, qui doivent à tout prix échapper à l'aliénation culturelle, à cette mutilation de l'âme qui fut inévitablement le lot de leurs aînés.

Produire, encore produire, toujours produire, alimenter et faire la somme, apporter sa pierre à l'édifice, sa goutte d'eau au fleuve, une fleur au jardin, une note à la sympathie, dans ce pays vivant, dynamique, mobile, dans ce pays aux ressources qui nous étonneront toujours, c'est encore pour nous la façon la plus efficace de nous rendre utiles. Cette victoire sur l'Absurde est une revanche sur notre solitude, un coup porté à la précarité des choses d'ici-bas. Un peu en porte à faux sur le Rêve et sur le Réel, devant l'immensité sournoise de notre page blanche, devant le silence à remplir de la toile qui se refuse à devenir tableau devant la partition qui contient toutes les musiques qui attendent le talent, archer, pinceau ou porte-plume, au carrefour de notre réflexion, l'Idée ne demande qu'à nous, prendre par la main.

À propos de la dernière semaine culturelle :

Un grand Absent Ben Badis (29 Avril 1967)

Il ne s'agit pas de chercher la faille, la faiblesse de minimiser l'effort de la bonne volonté. Il ne s'agit pas de critiquer systématiquement avec les exigences amères de la mauvaise foi et le dénigrement trop facile de l'éternel mécontent qui est généralement à l'abri de toute remarque puisqu'il ne fait rien, puisqu'il ne participe à rien. Il ne s'agit pas de tourner en dérision sournoise ou sarcastique les heureuses initiatives de tous ceux qui croient à la vie

culturelle dans ce pays et dans cette ville, de tous ceux qui, avec les moyens du bord, veulent conserver une âme à ses hauts-lieux d'Algérie, veulent la faire connaître et la faire partager.

La dernière «semaine culturelle», placée sous le prestigieux patronage moral et spirituel du Cheikh Abdelhamid Benbadis était une initiative qui honore ses organisateurs et ses participants. Il était juste et utile de fêter et de saluer, avec tout l'éclat possible celui qui dans toute L'Algérie, dans tout le monde arabe et musulman, symbolise un des plus merveilleux phénomènes d'auto-défense d'une Patrie souillée dans sa chair et agressée dans son essence. Il était juste de rappeler, de souligner dans la civilisation universelle l'Algérie en venant pas les mains vides et que le génie d'un Ben Badis s'il nous appartient en propre et d'abord, appartient tous autant à la conscience humaine toute entière. Il est toujours bienfaisant de rappeler aux générations qui lèvent les noms des plus illustres des Algériens, ces gardiens jaloux, courageux et compétents d'une pensée que les impérialistes s'étaient juré de faire disparaître. Nous puisons dans cette source de grands hommes non pas du chauvinisme mais un sentiment de fierté, un sentiment de réconfort. Nous ne remercierons jamais assez les conférenciers qui ont présenté le cheikh, son exemple, son message. Nous ne remercierons jamais assez ses contemporains qui ont bien voulu faire revivre pour nous les grands moments d'une destinée qui rejoint le destin même d'une nation. Ses élèves, ses disciples, ses amis sont venus spontanément nous offrir leurs témoignages. Dans tout le pays, la presse parlée, écrite et filmée a multiplié ses éditoriaux, ses analyses, a retracer l'itinéraire politique et religieux de ce grand Algérien, de ce grand Musulman.

Bref, cette semaine culturelle qui vient de se dérouler à Constantine, les commémorations de l'anniversaire du Cheikh qui ont lieu un peu partout sur le territoire national, ont eu pour effet de mieux faire connaître l'homme, son courage et sa foi. Elles ont eu surtout pour conséquence d'actualiser un nom héroïque entre tous, un nom qui dans la pénombre coloniale conserva très haut une espérance et un combat.

D'éminentes personnalités, des journalistes, des professeurs nous ont donné un aperçu conséquent de la biographie du fondateur des Oulémas, une idée d'ensemble illustrée d'éloquentes citations sur la pensée du maître.

Cependant nous avouerons qu'il nous est resté comme une sourde insatisfaction. Ce faisant, nous ne remettons nullement en cause l'opportunité, une semaine culturelle Ben Badis. Nous répétons que nous lui témoignons une énorme reconnaissance puisqu'elle nous a permis de nous pencher sur l'apport inestimable de notre glorieux concitoyen à une pensée Algérienne cohérente. Une sourde insatisfaction en effet, car enfin tout le monde n'a pas eu le privilège de connaître Ben Badis, de l'approcher, de recueillir ses paroles, de collaborer à son œuvre, de poursuivre cette œuvre. Une sourde insatisfaction, car enfin tout le monde ne peut disposer d'une collection complète d'«El Bassair» ou de «Ech Chiheb». Et quand bien même nous posséderions ces collections. Encore faudrait-il pouvoir les lire, et là nous retrouvons un vieux drame : L'analphabétisme, l'analphabétisme dont nous connaissons les causes et qui sévit chez les arabophones comme chez les francophones.

A propos de la connaissance de l'œuvre du Cheikh Abdel Hamid Ben Badis, c'est tout le problème de la culture et de sa diffusion qui se pose à nouveau. Le problème du livre, du recueil, Le problème de la traduction. La connaissance des travaux d'un Cheikh Ben Badis, d'un Cheikh El Brahimi, d'un Cheikh El Mili, d'un Larbi Tébessi, oui, la connaissance de ces travaux et leur analyse sont encore du domaine, trop privé de l'érudit et du chercheur. Les

masses, intellectuels compris, en savent quelques citations, une idée générale, un à-peu-près dangereux ou prétentieux. Il serait bon, il serait juste de réunir et de mettre à la portée du plus grand nombre des œuvres qui, en demeurant le privilège et l'apanage de quelques spécialistes, risquent de se figer dans une inertie que leurs auteurs ne souhaitaient certainement pas.

C'est avant tout donc, une question de culture et d'abord de culture Nationale. Il est aberrant d'ignorer chez nous l'œuvre de ceux qui ont le plus contribué, qui ont le mieux contribué à la connaissance, à l'investigation de l'âme algérienne.

Si notre ignorance a parfois des excuses, elle ne doit pas nous enfermer, nous emprisonner dans une impuissance désabusée. C'est en réalisant l'énorme malheur dont nous sommes à peine sortis, c'est en mesurant l'infini étendu de la catastrophe coloniale, que nous saurons prendre sur nous l'énergie qui fait qu'on avance. Nous avons cent mille raisons de croire que nous progressons chaque jour, en nous retrem pant à la source. Cette source nous voulons la partager, nous voulons y boire avec ceux qui sont les mieux placés pour y veiller. Nous attendons, traduits, mis à la portée de tous, les livres de ceux-là qui, malgré notre ignorance, demeurent nos maîtres.

Nous allons vers eux dans l'attente de cette leçon qui doit venir jusqu'à nous.

Culture et pages culturelles (03 Juin 1967)

En vérité nous n'avons pas besoin d'encouragements car nous ne sommes pas inquiets. Ils ne sont bien sûr jamais de trop, jamais à dédaigner. Ils nous rassurent moins parce qu'ils nous apportent que par la preuve qu'ils nous donnent chaque fois et toujours d'une permanence et d'une continuité. Je veux parler des jeunes et de la Culture, de l'intérêt qu'ils lui témoignent, de la place qu'elle tient dans leur esprit, dans leurs préoccupations, dans leurs activités. Il n'est pas de jour qui ne nous amène au courrier de (AN NASR) des manuscrits de poèmes, de récits d'essais et même de roman. Je suis persuadé qu'il doit en être de même pour tous les autres organes qu'ils soient quotidiens, hebdomadaires ou mensuels. Cela fait une masse de créations qu'il convient d'étudier, c'est-à-dire de lire attentivement et d'utiliser. Il est évident que le cadre d'une page culturelle, une fois par semaine, ou même de plusieurs pages dans nos <hebdo> ne saurait suffire nous envoyer des textes à publier est nous le répétons l'illustration vivante d'une présence culturelle dans notre jeunesse. On l'a dit, l'a redit un bon sentiment ne fait pas toujours un bon poème et il n'est pas dans mon propos d'aborder ici le problème de la création en matière artistique, le problème des techniques d'expression.

L'ouverture d'une page culturelle hebdomadaire dans un quotidien touche de près la question de l'édition. Evidemment nous serions très heureux de <découvrir> un nouveau talent, (de lui donner sa chance) comme on dit et en tous les cas de l'aider à éclore dans la petite mesure de nos moyens. Nous avons d'ailleurs publié déjà quelques textes qui auraient pu honorer n'importe quel journal littéraire spécialisé nous continuerons à le faire chaque fois qu'un manuscrit nous semblera mériter la récompense et la consécration du <marbre>. Mais il est clair que ce n'est pas là, la destination de notre page culturelle qui ne pourrait assumer, même si tout était publiable, un rôle qui n'est pas le sien. Nous sommes sans cesse

ramenés non seulement au problème de l'Édition mais encore à celui de la création d'organes culturels proprement dits, de publications donc spécialisées, journaux ou revues, dont l'absence se fait terriblement sentir et dont la création soulève des difficultés que le lecteur moyen ne peut imaginer. En Algérie, comme ailleurs, rien n'est simple, rien n'est facile, particulièrement en ce domaine culturel qui est de tous le plus délicat et le plus exigeant. Ce domaine réclame des spécialistes et des spécialistes disponibles : professeurs, journalistes, écrivains, musicologues, peintres.

Néanmoins, malgré nos difficultés, malgré un équipement culturel sommaire, de nos jours et encore peut-être plus ici qu'ailleurs, il est bien rare qu'une œuvre valable <dorme dans un tiroir> et ne puisse voir le jour. Nous sommes trop peu nombreux pour que la compétition et la sélection soient un obstacle ou une cause de retard. Une œuvre valable porte en elle-même sa propre auto-défense et les moyens de sa survie. Il suffit pour cela que la conviction de son auteur soit assez forte, que sa croyance en lui-même soit suffisamment établie et que sa patience soit à la mesure de son humilité. Humilité ne signifie pas effacement mais la juste mesure que le créateur doit savoir prendre de son œuvre il faut également sans cesse se souvenir que le fait d'être publié ne constitue pas forcément un critère qualitatif suffisant. Je parle essentiellement de la littérature écrite, poèmes ou romans car le Cinéma et le Théâtre, de par leurs caractères d'entreprises collectives soulèvent d'autres aspects infiniment plus complexes de la création.

Une page culturelle donc est forcément incomplète, nécessairement insuffisante, et inévitablement inapte à embrasser, à englober toute la vie culturelle d'un pays, ou même d'une région de ce pays. Il ne faut pas oublier également que nous nous devons d'être attentifs à ce qui se fait ailleurs et qui nous concerne directement ou indirectement. Il ne saurait y avoir de <préférence> en matière de culture véritablement humaine il n'y a qu'une seule culture, elle est universelle. Et ce qu'on appelle culture nationale n'est qu'une part de cette universalité. (c'est parce qu'il a su parler de la faim, qu'il a eu faim lui-même, que Mohamed Dib par exemple, n'est pas seulement un écrivain algérien mais un écrivain d'importance mondiale.<la grande maison> restera à tout jamais la tragédie de la faim, cette faim qui devient de nos jours une obsession et qui de <dar-sbitar> de Tlemcen aux cases de l'Inde inquiète ceux qui ont en main les destinées de la terre ou tout simplement les gens de cœur).

Notre page culturelle se voudrait être surtout un point de rencontre, une plate-forme d'échanges et de confrontation avec tous ceux et toutes celles que la chose culturelle préoccupe. Nous pensons plus spécialement à nos intellectuels universitaires, et artistes dont la contribution serait décisive et bienvenue. Leur réflexion, leurs études, leurs recherches ont leur place dans cette page qui est la leur.

La Culture en Algérie pose et soulève des problèmes qui ne laissent indifférents que les imprévoyants. Elle est notre seule façon de <visiter> l'âme de ce pays dont les ressources créatrices nous étonnent et nous émerveillent sans cesse. La tradition orale dispose aujourd'hui dans les moyens audio-visuels d'auxiliaires efficaces. D'autre part des parchemins inestimables sont encore à déchiffrer, à trouver, à restaurer. Des trésors d'architecture sont à classer, recenser, etc. la culture nous introduit au cœur du cœur de notre pays. Du pays véritable, éternel et profond.

Connaitre son pays au travers de sa culture est encore la meilleure façon de le découvrir et d'approcher ce qu'il y a de permanent et d'universel chez l'Homme.

La culture affaire du monde (02 Décembre 1967)

La semaine culturelle Algéro -tunisienne par de-là sa signification maghrébine est un événement hautement exemplaire qui pose d'une manière vivante et concrète le problème des échanges en matière de Culture, elle est l'illustration de ce besoin qu'ont les hommes, comme les pays, de se connaître davantage pour davantage se rapprocher, et il n'est pas meilleure façon de se connaître et de se rapprocher qu'au travers des créations de l'esprit, peinture, littérature, théâtre, cinéma. Tant il est vrai qu'une nation se découvre d'abord à la lumière de son génie, de son patrimoine culturel qui veut le reflet le plus fidèle de son visage profond, de son âme éternelle. Le talent d'un peuple lui délivre en quelque sorte sa carte d'identité nationale et son visa pour <tous pays>.

Qui a lu Cervantès, ou Lorka, ou Blasco Ibânes connaît mieux l'Espagne qu'un touriste ou qu'un vacancier. Qui a lu Dostoïewski ou Pouchkine ou Maïakovski est un peu allé en Russie. Qui a lu Kateb Yacine ou a vu une toile de Bouzid, de Khedda ou de Issiakhem n'ignore plus tout à fait l'Algérie même s'il n'y a jamais mis les pieds.

La culture a cette vertu de résumer un pays, de le résumer bien plus que ne pourraient le faire des géographes, des économistes, des statisticiens ou des sociologues. Elle est un raccourci pour aller au cœur d'un peuple, pour visiter une âme nationale. Et par de-là les peuples, les nations et les pays, elle nous élève, elle nous hisse à ce sommet en haut duquel les particularités ne comptent plus et se confondent avec les préoccupations universelles de l'Homme dans sa démarche vers l'Art. L'Art est un commencement de fraternité. Il demeure le dénominateur commun des hommes. Il pousse l'homme vers l'homme, à l'écoute d'un même appel, d'un même absolu, d'une même inquiétude et d'une même recherche il rejoint déjà une définition de la condition humaine et déjà il en est un témoignage.

Les échanges culturels n'agissent pas seulement comme une confrontation des expériences et de leurs résultats, comme un échantillonnage d'œuvre offertes à la découverte, l'admiration et à la méditation de l'étranger. Autrement dit il ne s'agit pas de satisfaire une simple curiosité, de dresser un bilan, de faire le point sur une somme d'autant plus difficile à évaluer et à apprécier qu'elle est un perpétuel devenir.

Ce qui est aisé dans le domaine politique et économique l'est moins dans celui des choses de l'esprit. On ne peut comparer deux cultures car la culture est indivisible et son authenticité nationale conditionne son universalité. Ce n'est point là un paradoxe.

Dans un monde qui se devance et s'élargit sans cesse, dans un monde qui semble refuser ses limites depuis l'intervention de l'aviation, des techniques audio-visuelles, depuis l'extension de la traduction, le pouvoir des rencontres et des échanges culturels est d'une autre nature et d'une autre portée.

Ils sont la preuve qu'une Culture ne peut vivre repliée sur elle-même, qu'elle a besoin de rayonner pour s'enrichir, pour s'encourager elle-même, pour multiplier à l'infini sa dynamique et sa vitalité. La Culture s'aère, s'oxygène au contact des autres apports. Elle ne

s'exporte pas, ne se transplante pas mais se réalise et s'épanouit dans ces confluences supérieures qui la révèlent à elle-même et aux autres. Elle n'en perd pas pour autant son originalité, son message hérité d'un <leg> vénérable, mais au contraire se prémunit contre une stagnation qui lui serait mortelle, un piétinement qui lui serait fatal. C'est en se mêlant aux autres cultures qu'elle sauvegarde le mieux son authenticité et ses possibilités de renouvellement.

Car elle est un organisme vivant, essentiellement vivant et l'antarcie signifierait pour elle l'asphyxie à brève ou longue échéance. Elle risquerait alors de finir comme un artisanat de la pensée et si l'artisanat offre la plénitude de techniques mises au point, il se condamne lui-même à l'inertie car souvent il ne se repense pas, il ne se renouvelle pas. Le grand musicien hongrois Béla Bartok l'a compris qui a entrepris le recensement systématique et l'étude approfondie des thèmes folkloriques tziganes pour leur redonner une vigueur et une dimension sans lesquelles ils auraient végété au violon monotone d'un exotisme de cabarets pour touristes.

De nos jours le cinéma, de par son incomparable audience et son incomparable mobilité est un des moyens les plus efficaces en matière d'échanges culturels. La musique, la peinture, tous les arts graphiques et chorégraphiques en général, peuvent franchir les frontières sans trop souffrir du <dépaysement>. La littérature demeure la moins favorisée car elle pose d'une manière impérieuse le problème linguistique, c'est-à-dire celui de la traduction. Il est évident qu'une œuvre non traduite est une œuvre limitée dans son rayon d'action spirituelle. Un séminaire d'intellectuels arabes, réunis au début de ce mois à Damas, a à juste titre, déploré le peu d'efforts qui a été déployé pour faire connaître au monde les ouvrages hautement représentatifs de la pensée arabe. Il a étudié le problème de la traduction et de la diffusion du livre arabe, trop peu connu, ou tout simplement méconnu. Cette lacune apparaît plus douloureusement évidente à la lumière tragique des événements du Moyen-Orient. Le livre n'est pas seulement un instrument de culture, une œuvre d'Art, il est aussi un moyen d'information et comme tel rejoint les préoccupations d'une actualité brûlante. Les impérialistes le savent qui ont utilisé la culture à des fins politiques dans une colossale entreprise de propagande et d'intoxication ayant pour but de conditionner l'opinion internationale en faveur de l'agresseur.

De nos jours que jamais la Culture intervient dans la vie des hommes, dans leur destin quotidien. De nos jours plus que jamais elle est l'affaire de tous et ne se résigne plus à la gloire étriquée et malsaine de sa solitude.

Culture et niveau culturel (23 Décembre 1967)

Chaque fois qu'une école s'ouvre en ce pays, qu'une route est construite qui a raison des horizons, chaque fois qu'une nouvelle ligne électrique recule les limites du jour en rétrécissant celles de la nuit, chaque fois qu'un travail d'homme s'achève et qu'un autre commence, qu'un puits est creusé, qu'un arbre est planté, chaque fois qu'une terre est gagnée sur la rocaïlle et sur les ronces, qu'une usine tourne, que l'hygiène d'une ville s'améliore, que la toxicose recule, que le trachome régresse, dans cette Algérie immense où le verbe faire est le plus beau de tous, il y a forcément une victoire de l'esprit et une possibilité renouvelée de vie culturelle.

Cette vie culturelle s'inscrit dans tout un ensemble de sous-développement et de développement. Elle est le reflet de cet ensemble. Elle participe de cet ensemble. Elle se lie et se rattache à toute la vie nationale, à la dynamique d'un pays qui réintègre à peine sa personnalité, qui récupère peu à peu son âme, en s'installant depuis son indépendance dans sa souveraineté. Autrement dit, la vie culturelle n'est qu'un des aspects de la réalité algérienne, un aspect qu'on ne peut dissocier de tout un contexte économique, politique, social. Elle s'explique et s'analyse parfaitement dans ce contexte. Les difficultés qu'elle rencontre sont celles que nous retrouvons dans tous les autres secteurs de l'activité du pays. Son essor se fera,-et se fait-, parallèlement à l'essor qui s'opère dans les autres domaines. Cet essor ne se fera pas en un jour, ne dépend pas d'une décision et ne relève pas d'un miracle. Il exige du temps, beaucoup de temps, une étude sérieuse des problèmes, d'énormes moyens matériels et humains, une mise en condition culturelle.

Cette mise en condition culturelle ne peut être réalisée, ne peut être obtenu, solidement, profondément, efficacement, en premier lieu, que par l'école. Il serait vain, égoïste ou imprévoyant de le nier. La vie culturelle n'aura de signification pleine et entière, n'aura d'avenir fécond chargé de possibilités créatrices que lorsque tous les Algériens et les Algériennes, des villes et des campagnes, sauront lire et écrire. Alors, et alors seulement, on pourra réellement parler de culture en Algérie, alors et alors seulement l'intelligence algérienne sera en mesure de donner, de produire, de créer, d'enfanter les œuvres qui couvent en belle.

Certes, dans toutes les branches de la pensée, en Littérature, en peinture, en musique, au théâtre, au cinéma, l'Algérie s'honore déjà de noms valeureux et prestigieux, porteurs de talents sûrs et signataires d'œuvres éminemment valables.

Mais lorsque nous parlons de Culture, nous entendons le niveau culturel d'un peuple à un moment donné de son existence historique et non pas des individualités isolées dont la rareté ne met pas en cause le génie mais néanmoins fournit la preuve péremptoire, de l'indigence d'une situation héritée d'une Histoire contractée et malmenée.

Parce qu'en vérité la Culture, dans un pays quel qu'il soit, n'est pas la seule affaire des spécialistes, intellectuels, artistes, créateurs, chercheurs, l'affaire de ceux qu'on nomme un peu pompeusement <les gens cultivés>, bref l'affaire de ce qu'on désigne encore plus pompeusement par l'étiquette <d'élite>, non en vérité la culture est l'affaire du plus grand nombre et doit tendre à devenir l'affaire de tous.

La culture concerne, par sa présence comme par son absence, une société dans son ensemble sinon dans sa totalité. Elle en imprègne l'existence quotidienne, le mode de vie, le mode de loisirs et de distraction. Elle donne aux hommes cette coloration particulière et ce style caractéristique qui les distinguent et dont toutes les nuances se fondent au creuset de la Civilisation universelle. La Culture est un état avant de devenir une tendance. Ce n'est qu'ensuite, de la masse, c'est-à-dire du plus grand nombre, que jaillissent les individus qui s'y consacrent dans le monde des Arts et des Lettres, des Sciences et de la technologie.

De quelque façon qu'on l'aborde, le problème de la Culture,- et particulièrement dans un pays comme le nôtre- rejoint celui de l'école, de la scolarisation, l'Alphabétisation et les moyens audio-visuels ne sont là que pour remédier à un certain état de fait, que pour aider, que pour parer au plus pressé, tellement la tâche est innombrable, tellement il est urgent de

ratrapper le temps perdu, le temps laissé inculte, le temps laissé criminellement en friche par l'époque coloniale.

Tout se tient d'ailleurs et dans ce domaine comme dans bien d'autres, il s'agit de la mise en valeur du pays, du développement de ses ressources matérielles et intellectuelles.

La culture aura toujours comme un goût de luxe et de pêché tant qu'elle demeurera le privilège de quelques-uns seulement. L'école est porteuse de justice et d'égalité. Pour que la culture cesse d'être un luxe et tout luxe peut paraître indécent dans un pays sous-développé –il faut qu'elle devienne l'affaire de tous, il faut qu'elle soit à la portée de tous. Car, de par sa nature et de par sa vocation, elle n'est pas un luxe mais un besoin matériel de l'homme. Elle n'est pas d'utilité secondaire. Elle est un droit et un devoir tout à la fois.

La génération qui lève, celle qui vient d'avoir vingt ans dans l'Algérie indépendante, est déjà lourde de promesses et de possibilités. Elle surgit dans un pays aux ressources étonnantes, à la vitalité incomparable, à la sagesse intarissable. Comme la nôtre – mais totalement libérée du colonialisme –elle a des livres à écrire, des tableaux à peindre, des musiques à composer.

La culture algérienne attend beaucoup d'elle. Elle est conviée aux aurores.

Culture et mieux- être (13 Janvier 1968)

C'est aussi être un < artiste engagé > que d'interroger une rose sur le mystère de son talent, que d'admirer sur les hautes-terres les incendies du crépuscule et la gloire des aurores, c'est aussi un <artiste engagé> que de voir dans le vent le vœu profond des flûtes et dans les cheveux d'une femme la caresse d'un rêve.

C'est aussi être un <artiste engagé> que d'échapper au vertige des mots et à la mécanique des jargons pour saluer des phrases simples, des phrases qui racontent une orange, un enfant qui s'étonne, un émoi qui s'éteint, une eau qui court à son destin, une main qui vous sourit...l'Art est partout. C'est en ce sens qu'il est humain. C'est en ce sens qu'il est divin.

Si ardue qu'elle soit, la réalité autorise toujours un rayon de tendresse, un morceau de ciel bleu. L'homme est fait pour le bonheur et par de-là ses croyances, ses options philosophiques et politiques, c'est ce qu'il tient à atteindre, c'est ce qu'il cherche à réaliser. Tout le vocabulaire bergsonnien ne pourrait dire cet <élan vital>, cette envie de vivre, cet <appel> qui animent les Algériens et qui mettent dans le regard de nos enfants les plus déshérités cette tragique espérance, cette flamme, cette aptitude au bonheur, cette soif de sourires.

Le colonialisme nous interdisait l'accès à une existence normale, le seuil des joies supérieures, la réalisation de nos rêves d'enfance. Nous appartenons à une génération qui s'émerveillera toujours de ce drapeau, de cette carte d'identité nationale, de ce passeport algérien. Nous en savons le prix. Cet émerveillement n'est pas un nationalisme étroit et anachronique, du déroulé en vert et blanc. Il est la conscience lucide d'une victoire et la mesure exacte d'une dignité. La liberté est la première mesure de la dignité humaine.

A ceux qui reprochaient aux productions algériennes d'être des œuvres graves, des œuvres de combat, des œuvres <tristes>, il est aisé de répondre par l'impératif des priorités et par le fait que la réalité coloniale n'incitait guère à la joie. Mais cette joie demeure, cette joie existe, latente, inassouvie, intacte, féconde.

Et chacun sait bien que l'espérance est un commencement de joie.

Nous ne sommes pas plus faits pour la tristesse que pour le malheur. Personne n'est fait pour la tristesse ou pour le malheur. L'artiste moins que quiconque qui a le suprême privilège de créer. L'artiste moins que quiconque qui est tout à la fois espoir et espérance.

Nous ne sommes pas plus faits pour la tristesse que pour le malheur, parce nous savons que le premier novembre 1954 était un acte sublime d'optimisme, l'optimisme de tout un peuple, parce nous vivons sur une terre de grande lumière, aux vastes horizons, aux grands espaces du cœur et de la géographie.

Nous ne sommes pas plus faits pour la tristesse que pour le malheur, parce que les damnés de la terre refusent leur damnation, rejettent la malédiction et prennent un peu partout sur la terre leur destin en main.

Par de-là sa signification politique, cette aspiration à une vie normale était la leçon de Bandoeing. Par de là sa signification économique, cette même aspiration se retrouvait à Alger lors de la réunion des <77>. Et le congrès qui vient de s'ouvrir à Cuba, et qui a pour mission d'étudier les formes de lutte contre le sous-développement culturel, rejoint cette obsession des hommes décidés à vivre debout.

Dans ce combat pour le développement et pour une plus juste répartition des richesses, la culture trouve naturellement sa place et son emploi. C'est aussi pour elle que des hommes luttent et parfois meurent, pour elle, parce que sans elle il manquerait une dimension à l'humanité, la plus importante de toutes peut-être.

Un intellectuel digne de ce nom ne peut rester indifférent ou se réfugier dans les altitudes confortables de l'abstraction. La <plus haute branche>, <la plus haute tour>, ou la <tour d'ivoire>, sont des attitudes impensables, odieuses, et qui seraient dans nos pays un véritable blasphème. Le destin de l'intellectuel s'intègre totalement au destin de toute la nation dont il est, qu'il le veuille ou non, un citoyen privilégié. Ce privilège le lie par un véritable contrat moral à sa communauté.

Tous les efforts doivent tendre à combler cet écart, cette marge vertigineuse qui existe dans les pays frappés d'analphabétisme, entre les intellectuels et le reste, et l'ensemble de la nation. C'est d'ailleurs pour la nation une question de vie ou de mort. Dès lors, et toujours, et sans cesse, et inévitablement, nous retrouvons et se pose à nous le problème de la scolarisation, de l'alphabétisation. Dès lors, nous retrouvons, providentielle, irremplaçable, l'école, l'école algérienne, cette école qui, dans un temps plus ou moins long, mais inévitablement, aura raison du sous-développement culturel.

La culture n'est pas un luxe, une manie de raffinés, une simple satisfaction d'esthètes. Elle colore la vie, l'existence de tous les jours, elle imprègne une destinée. Elle élève un niveau de vie tout comme un salaire amélioré augmente un pouvoir d'achat et partant de consommation. Les peuples qui luttent encore pour la liberté en savent le prix.

Tout dernièrement, à l'occasion des fêtes du nouvel an, le président Ho-Chi Minh s'adressa au peuple martyr et héroïque du Viêt-Nam. C'est en vers qu'il le fit.

Culture normale et décentralisation (03 Février 1968).

Décentralisation, déconcentration, ce sont des mots à l'ordre du jour, et pas seulement en Algérie, et pas seulement dans les secteurs économiques et dans le domaine politique. La vie culturelle les actualise à son tour et il apparaît de plus en plus nécessaire de repenser l'équilibre et les rapports capitale-province.

Dans tous les pays, d'une façon générale, la capitale exerce un attrait et une attraction qui regroupent et hypertrophie en elle l'essentiel de l'activité intellectuelle de la nation. Siège du gouvernement et des instances suprêmes, elle est le haut-lieu de l'état et les hommes de culture et de sciences y viennent chercher l'ultime consécration.

En Algérie, la création des Universités d'Oran et de Constantine a pour but, et devrait avoir pour effet, de décharger celle d'Alger, de lui épargner une saturation préjudiciable. Il s'agit en premier lieu d'aboutir à une répartition de la vie universitaire. On pourrait même envisager dans une seconde phase une certaine spécialisation des facultés, et Constantine nous paraît toute indiquée pour l'étude des lettres et plus particulièrement des lettres Arabes. Capitale et province ne s'opposent pas mais se complètent, se prolongent l'une l'autre, s'alimentent, réciproquement et partant se font vivre. Le mot <province> s'épure ainsi de son sens péjoratif et celui de <capitale> de son égocentrisme.

C'est un préjugé fort répandu- et nous semble-t-il directement hérité du fait colonial-, particulièrement chez les intellectuels : la réussite passe inévitablement par la capitale. Il s'établit ainsi toute une table de valeurs, faussée au départ, et qui dénature la réalité de la géographie intellectuelle du pays.

Les pays hautement développés d'Europe et d'Amérique ont d'ailleurs compris la nécessité de cette décentralisation culturelle, tant dans le domaine universitaire qu'artistique, théâtral, cinématographique, scientifique, etc.... la création d'Instituts spécialisés se fait en fonction des caractéristique régionales, des complexes industriels ou des entreprises agricoles. Les théâtres <périphériques> ou de province dégorgent des capitales qui ne peuvent plus assurer leur développement et que menace l'asphyxie. Les créateurs et les chercheurs se réfugient volontiers dans cette province autrefois calomniée et méprisé, autrefois symbole de monotonie et d'ennui. Ils trouvent un calme et une sérénité que ne peuvent plus leur offrir les grandes villes. Ils y trouvent en premier lieu le temps nécessaire à leur création et à leur recherche car ce qui caractérise de plus en plus les énormes métropoles c'est l'incroyable consommation de temps qui s'y fait. En province, le temps est encore disponible. et c'est une matière première avec laquelle il faut compter.

Lorsque la télévision algérienne couvrira l'ensemble ou la quasi-totalité du territoire, - et cela ne saurait tarder- les studios de Constantine, qui vient d'être dotée d'une moderne < maison de la Radio>- deviendront un véritable centre de Production, autrement dit un complexe cinématographie, dont le rôle sera d'alimenter l'ensemble du réseau. Ce sera là un exemple vivant de cette décentralisation salubre, de cette répartition rationnelle des tâches et des activités. Les films tournés et montés ici, les émissions réalisées, seront ensuite

distribués par toute la chaîne nationale. La mise en marche de cette Maison de la Radio suppose, en plus d'un équipement approprié, la présence de techniciens et l'existence de producteurs. Il est bien évident que ces producteurs et ces techniciens ne pourront tous être recrutés sur place. La venue d'éléments étrangers à la ville ou à la région ne pourra qu'enrichir cette ville ou cette région. De même, des étudiants qui ne seraient pas originaires de l'est algérien, et qui suivraient leurs études ici à Constantine, contribueraient beaucoup au développement de cette dernière. Car on ne saurait confondre décentralisation et régionalisation. Il faut au contraire aboutir à des échanges inter-régionaux, à des <mélanges> des brassages, à des apports réciproque qui, sans nuire à la personnalité profonde de chaque ville et de chaque province, viendraient enrichir plus encore leur algérianité.

En matière culturelle comme dans le secteur économique, la mise en branle d'une unité de production déclenche des effets multiplicateurs qui donnent la mesure de la vitalité de cette entreprise. Constantine devenant un centre de production pour la télévision, cela suppose une collaboration accrue avec toutes les sources culturelles dont nous disposons : Université, théâtre, orchestres, tourisme, musée, etc.... cela suppose surtout un souci toujours plus grand de la qualité des productions offertes aux téléspectateurs. Dotée d'un équipement ultramoderne, nous sommes en droit d'attendre des programmes de haute tenue et de haute densité.

Tout se tient en matière culturelle, et il est rare qu'un secteur se développe sans qu'il n'entraîne dans sa dynamique tout un ensemble. Dès lors la décentralisation permet une saine émulation. Il ne s'agit plus seulement d'être présent, de faire face, de parer au plus pressé, de se contenter d'un train-train à la petite semaine. Il ne faut pas hésiter à voir grand pour voir loin. L'audace, en matière de production, donc de création, est une attitude éminemment payante. Cela ne doit pas nous faire oublier, bien ici comme ailleurs, que le succès dépend de l'organisation et que l'organisation ne s'improvise pas. La bonne volonté et le talent ont besoin de cadres soigneusement étudiés, souples et mobiles, et d'un minimum irréductible de planification.

Toute une région du pays, vénérable entre toutes, doit naître et renaître à la culture, à la vie culturelle, à ses joies et à ses enrichissements. Le courrier que nous recevons régulièrement est significatif de l'intérêt que suscite par ici la chose naturelle.

Autour de son journal, de sa radio, de ses théâtres, l'Est algérien est lourd de promesses offertes à la nation toute entière.

Le pays profond (17 Février 1968)

Au cours de son intervention à la conférence des présidents des Assemblées Populaires Communales, Monsieur Mohamed Benyahia, ministre de l'Information, s'est empêché sur du «déracinement culturel». Il déclara entre autre : «Une politique culturelle en Algérie doit donner au peuple la possibilité de retrouver sa tradition artistique et intellectuelle. Il faut à la fois retrouver et

recréer des œuvres passées, les diffuser et susciter des créations modernes dont les sources d'inspiration retrouvent l'authenticité d'une âme nationale».

On ne pouvait mieux définir le drame de la culture algérienne et ses perspectives.

Il s'agit bien en effet d'une politique, c'est-à-dire d'un choix et d'une organisation qui se posent à l'échelle nationale. La culture est aussi un problème d'Etat et de gouvernement. Elle concerne directement, pleinement, en profondeur, dans sa substance s'est penché sur le problème du «déracinement culturelle alimente le patrimoine national et participe au développement d'ensemble. Cette production, si elle a parfois besoin de solitude créatrice, pour sa réalisation, sa conservation et sa diffusion, elle a besoin de tout un appareil aux rouages complexe : Maison d'Editions, librairies, conservations, musées, techniques audio-visuelles, etc.... pour ne citer qu'un exemple, celui de la littérature, jusqu'à présent, nos livres étaient édités à l'étranger par des éditeurs auxquels nous ne rendrons jamais assez hommage, puisqu'ils ont pris la responsabilité de nous publier à une époque où cela comportait des risques certains, où cela équivalait à une prise de position politique en faveur de l'Algérie combattante.

On pourrait, ici, aujourd'hui, envisager l'édition massive de ces œuvres qui appartiennent en premier lieu au patrimoine culturel algérien. De même, en peinture, en musique, en matière de Cinéma, de Théâtre, de Radio et de la Télévision, il est évident que le seul talent ne suffit pas et a besoin de l'appui financier et matériel de l'Etat, pour toucher les plus larges masses. Car c'est là l'objectif premier : la culture doit atteindre, pénétrer, concerner les plus larges masse. Elle doit cesser d'être une exception et un privilège pour imprégner tout un niveau d'ensemble. Trop souvent urbaine et citadine, elle doit comme l'électricité, comme la lumière, s'étaler, rayonner, se fixer, au-delà des grands centres, dans nos campagnes, ces campagnes qui constituent un réservoir inépuisable de poésie, de légende, de chansons. Elle se libère en se retrouvant, en retrouvant cette âme nationale qui est le sceau des œuvres humaines valables. Très paradoxalement, mais cela se vérifie toujours, c'est à force de correspondre une réalité humaine bien précise, qu'une culture atteint à l'universalité. Conservation, production, diffusion, ce sont là des tâches et des objectifs qui nécessitent d'énormes moyens matériels et qui animent une culture en la propageant. Il est bon que les artistes et les intellectuels prennent contact avec le public, procède ainsi à des échanges et des confrontations qui ne peuvent qu'être salutaires à la culture elle-même. Il s'agit en fait d'une double initiation et d'une double découverte, d'un dialogue, la culture cessant d'être l'apport unilatéral, donc incomplet, de ces artistes et de ces intellectuels. Le romancier ne se contente plus d'écrire son roman, le poète son poème, le musicien sa partition, le peintre ne se contente plus de faire sa toile. La publication et l'exposition deviennent des occasions de rencontres, de discussions, d'explication. Ainsi diminuera la distance qui sépare inévitablement l'artiste de son public. Ainsi l'acte culturel devient un rendez-vous.

La création était déjà l'occasion d'un rendez-vous de l'artiste avec lui-même. Elle lui offre désormais la possibilité d'un rendez-vous avec ce peuple dont il est issu, dont il partage les chagrins et les joies au creuset de l'œuvre présentée.

Cette âme nationale qui éclaire une œuvre tout en l'inspirant, venue du fond des temps, chargée d'histoire, façonnée par la longue marche, le long itinéraire d'un peuple vers son indépendance, façonnée par son combat pour sa vie et sa survie, cette âme nationale qui

nous distingue et nous valorise, nous la retrouverons et nous la trouverons dans nos valeurs premières, dans nos valeurs fondamentales. Jaillies et secrétées par l'arabo-islamisme.

Cette âme nationale, cette âme qui se retrouve, cette âme qui se réintègre, aura raison de ce déracinement culturel directement lié à la parenthèse pathologique coloniale.

Le peuple algérien, comme tous les autres peuples, plus qu'un autre peut-être, tellement il en a été privé, voue un véritable culte aux choses de l'esprit. Vieux peuple rescapé du délire impérial, attaqué, saigné, livré, sciemment et scientifiquement à la cécité de l'analphabétisme, dérouté un long moment de son chemin originel, amputé de ses horizons, contrarié dans sa religion même, mais vieux peuple incassable, indomptable et finalement intacte, se réfugiant dans son livre sacré et faisant de ses nostalgies des espérances, se refusent à tout ce qui lui est étranger pour mieux vivre à l'unisson du monde, avoir du talent et le lui délier est une autre façon de le servir, une autre façon de le mériter.

La fidélité à nos valeurs ne procède pas d'une décision, ne découle pas d'une option. Nous n'avons pas choisi d'être arabes et musulmans. Nous sommes arabes et musulmans. Cette culture, qui tout à la fois est en train de naître et renaître, cette culture authentiquement algérienne est plus qu'un accomplissement. Elle témoigne de la merveilleuse vitalité d'une terre douloureuse, courageuse et féconde.

Le retour des cigognes (24 février 1968)

Les premières cigognes sont revenues. Ce n'est pas là direz-vous, à proprement parler un événement culturel. Qui sait? Il suffit pour cela du regard d'un poète et tous les algériens sont plus ou moins poètes. Cette prédisposition est la caractéristique des peuples qui ont appris, au cours d'une histoire douloureuse, à se rassurer à la permanence des choses. Le miracle est que cette sensibilité soit demeurée intacte, nullement émoussée par une vieille expérience du malheur, toute prête à s'émouvoir, toute prête à vibrer, preuve d'une santé morale qui pourrait faire bien des jaloux de par le monde.

L'Art, comme la recherche scientifique, serait un simple jeu de l'esprit, s'il n'avait pour destination essentielle le mieux-être des hommes, leur dépassement jusqu'aux contrées supérieures et privilégiées où ils se retrouvent véritablement, où ils sont véritablement eux-mêmes. L'Art, comme la recherche scientifique, lorsqu'il n'est qu'un simple jeu de l'esprit, lorsqu'il échappe à l'attraction humaine, tout comme ces météores perdus, se noie dans l'aventure sans fin et sans but des déserts glacés de la pensée malade. Il naît de l'humanité pour retourner à l'humanité, du peuple pour retourner au peuple. Lorsqu'on croit créer on ne fait que retrouver et qu'explicitier ce qui préexistait à l'état latent dans la sensibilité et dans l'intelligence du peuple. Et c'est à cela d'abord qu'un artiste doit sa représentativité et son authenticité.

Dernièrement un lecteur de «Révolution Africaine» s'étonnait d'un prétendu silence des écrivains algériens et se demandait si la réalité, depuis l'indépendance ne nous inspirait pas. Il n'y a pas eu un silence des écrivains depuis l'indépendance et il suffit pour s'en convaincre de consulter une bibliographie récente, de lire notre presse ou d'écouter notre radio. Dans les autres secteurs de l'activité culturelle, Peinture, Cinéma, art graphique, la qualité de la production n'est plus à démontrer et s'impose d'ores et déjà à l'étranger, comme elle s'est

imposée chez nous en Algérie. C'est d'ailleurs moins le problème de la production, de la création culturelle qui nous préoccupe que celui de l'organisation de la vie culturelle elle-même. Il ne s'agit pas simplement d'écrire mais de publier, de peindre mais d'exposer, de rédiger un scénario mais de le réaliser, de composer une partition musicale mais de l'exécuter. Nous sommes sans cesse confrontés aux mêmes nécessités. La diffusion de la culture suppose et exige un appareil approprié et des structures adéquates si l'on ne veut pas que la culture demeure le privilège d'une minorité et de ce fait même ne bénéficie pas du souffle vivifiant et tonique des plus larges masses. Parallèlement à la scolarisation et à l'alphabétisation, dans un pays comme le nôtre, les techniques audio-visuelles sont d'un apport incomparable, d'une contribution inestimable dans cette entreprise d'initiation culturelle, au rendez-vous des valeurs retrouvées.

Pour l'instant, si tout le monde hélas, ne peut lire un roman ou une pièce de théâtre, tout le monde peut voir sur scène cette pièce ou à l'écran ce roman adapté. Des causeries, des entretiens, des conférences, des tables rondes, télévisés ou non, contribueront efficacement sur tout le territoire, à la connaissance et à la diffusion de cette culture.

Organisation et décentralisation apparaissent, dans l'immédiat, comme deux solutions urgentes à apporter à ces problèmes qui sont loin d'être des problèmes secondaires. Chacun sait que la culture d'un pays participe directement à l'édification de ce pays. Elle le concerne dans son âme et dans son esprit, dans ses réflexes et dans ses réflexions, dans son comportement intellectuel, moral et spirituel. Elle procède intimement de son développement au même titre que sa mise en valeur agricole ou industrielle. Son développement agricole et industriel lui donne ses titres. Son développement culturel lui octroie sa qualité.

La tenue prochaine d'une semaine culturelle nationale à Constantine témoigne de ce souci et l'inscrit dans cette perspective. Elle est aussi importante sur le plan culturel que l'est sur le plan politique la réunion du conseil des ministres à Batna.

L'intérieur du pays, c'est là une formule qui doit bien ce qu'elle veut dire et que l'on pourrait aisément inverser : le pays de l'intérieur, le pays profond, le pays vrai, vrai parce que appréhendé dans sa totalité, dans sa permanence qui est loin d'être figée, dans cette permanence rassurante qui le secrète et l'éternise...

L'intérieur du pays, le pays de l'intérieur, c'est là qu'il faut chercher et trouver la substance de l'œuvre à présenter et à offrir. Le pays est grand, grand géographiquement, grand humainement. Il est tout de nuances et de multiplicité dans son unité. Il propose à qui sait l'écouter et le comprendre des ressources inépuisables d'inspiration, littéraire, picturale, musicale, cinématographique. Dans son passé lointain, dans son histoire récente, dans son actualité présente, les sujets et les thèmes ne manquent pas qui tissent la trame d'une nation à la vitalité étonnante.

Les premières cigognes sont revenues, au rythme prodigieusement serein des mécanismes qui nous échappent. Le symbole est facile mais il se vérifie toujours, c'est sur les vieilles maisons de la ville- dans ce qu'autrefois les colonialistes appelaient avec mépris «la ville arabe»- que les cigognes font leur nid.

Aujourd'hui toute la ville est arabe, dans les retrouvailles sacrées de son passé fabuleux et dans l'attente d'un avenir qu'il nous appartient de préparer.

La culture Problème National (16 Mars 1968)

A parler de culture on finit forcément par se répéter. N'importe! La vie elle aussi se répète et la culture n'est rien d'autre que la vie. Comme elle, elle commence et recommence indéfiniment. Comme elle, elle se transmet au relais des générations et s'enrichit de l'apport de chacune d'entre elles. La culture est ce qui caractérise le mieux un homme et une société. Elle en est en quelque sorte l'accomplissement.

La culture n'est plus comme elle le fut trop longtemps - ou tout au moins ne veut plus d'être- l'apanage d'une «élite» privilégiée. Cette volonté de la répandre, de la diffuser, de la populariser, cette volonté de la mettre à la portée de plus grand nombre sinon ce tous, constitue en soi un fait nouveau éminemment remarquable, une véritable révolution. Cette démocratisation des moyens culturels procède à la fois d'un sentiment profond d'équité, de l'énorme progrès des techniques audio-visuelles et de l'Édition, et enfin de la conviction qui s'est imposée qu'une culture qui ne rayonne pas est une culture qui s'éteint.

Un sentiment profond d'équité car tout le monde a droit à la culture, car nous savons qu'elles aussi indispensable que le pain, que le travail, que la santé. S'identifiant à la vie, la vie sans elle est incomplète, privée d'une de ses données et d'une de ses dimensions.

Un sentiment profond d'équité parce que tout le monde a également besoin de culture et qu'une égalité véritable suppose aussi des possibilités culturelles offertes à tous. La création de centres culturels s'avère d'ores et déjà comme aussi importante que la création d'écoles.

Les uns ne vont pas sans les autres pour se réalisent la jonction du livre et de sa leçon, de l'instruction et du savoir, la synthèse de la science et de l'art.

Le développement sans cesse croissant de l'audience et la qualité toujours plus grande des techniques audio-visuelles, révolutionnent littéralement les données de la vie culturelle. La radio, le disque et surtout la télévision sont désormais des auxiliaires incomparables de pénétration, d'explication et de vulgarisation. Ce développement des techniques audio-visuelles, particulièrement dans un pays que caractérisent les méfaits de l'analphabétisme et les grandes distances modifiera sans cesse et dans le sens du progrès le niveau culturel d'ensemble. Cette modification se fait en profondeur, presque à notre insu. Parallèlement à la radio, à la télévision, au disque et au cinéma, les possibilités de l'Édition sont infinies et les efforts doivent porter sur le prix du livre, sur la multiplication des librairies et des bibliothèques.

Une culture est malade qui se contente du cercle étroit d'initiés rares et privilégiés. Elle a besoin pour son essor et pour son épanouissement de l'oxygène des masses, de l'ample respiration du peuple. Elle se renouvelle dans les préoccupations et dans les espérances de ce peuple qui la secrète et la transmet, de ce peuple qui la reçoit et qui la donne. Ainsi, dans cet échange permanent, la culture se crée et se recrée à l'infini, tout à la fois inspiration et aspiration. Les conférences, les expositions, les tables rondes, les débats, n'ont d'autre but et d'autre intérêt que cet échange, ce dialogue et en fin de compte, cette confrontation du pays avec lui-même.

Par sa présence comme par son absence, la place que tient la culture dans les préoccupations des algériens et particulièrement de nos jeunes, suffit amplement à démontrer à quel point une vie serait terne que n'ensoleilleraient pas les forces de l'esprit.

La culture est le souci de tous. Cela demeure très réconfortant et témoigne d'une profonde vitalité et d'une merveilleuse santé. Notre peuple a faim, a soif de culture. Cet appétit et cette soif affirment et réaffirment sa prédisposition aux choses de l'Art, ses vieilles traditions d'humanisme, son goût inné pour la poésie et la science. Il sait, il sait parfaitement le prix et le poids de la culture.

La semaine Culturelle Nationale, organisée Par le Ministère de l'information sera précédée ici par une semaine plus spécialement constantinoise qui sera le prélude en quelque sorte de la semaine Nationale. C'est dire l'importance que l'on accorde partout aux manifestations de ce genre, c'est dire enfin que cette culture, latente dans les esprits, et présente dans nos œuvres a besoin aussi de décentralisation, d'organisation et d'animation. Nous insistons sur l'animation parce que la culture ne doit plus être figée, prisonnière d'une bibliothèque, d'un musée ou d'un conservatoire. Vivante par nature et par destination, c'est dans son rayonnement que la culture atteint son but et par-là même se recharge en possibilités nouvelles. Elle est le lien du passé et du présent, l'affirmation d'une permanence.

Des manifestations du genre de celles qui se dérouleront bientôt dans nos murs, doivent se multiplier tant dans notre ville que partout sur l'ensemble du territoire. L'élévation du niveau culturel doit concerner le pays tout entier et avoir raison des douloureuses disparités qu'il y a encore entre nos campagnes et nos centres urbains. Il est évident que dans ce domaine, une décentralisation rationnelle poussée et la couverture toujours plus ample du réseau de Radio et de télévision, réduiront considérablement les obstacles que posent chez nous les grandes distances.

Chacune de nos villes, chacun de nos villages, chacune de nos régions, offrent des ressources et des possibilités culturelles dont la somme se reflète au génie de tout un peuple et tisse la trame profonde d'une âme nationale. C'est en ce sens que la culture s'identifie à l'éternité dynamique de l'Algérie. C'est en ce sens qu'elle est l'affaire de l'État et du citoyen.

Marhaba (3 Septembre 1965)

Les mains sont des oiseaux...je sais des pays que l'on aborde avec des souvenirs.

L'Algérie a tellement fait parler d'elle qu'elle ne se découvre pas. Elle se visite. Elle confirme cette impression du déjà-vu. Nous la retrouvons. On n'arrive jamais pas la première fois en Algérie. Et lorsqu'on s'en va, on ne le quitte pas pour toujours. Cet avion est venu comme on frappe à la porte `entrez...je vous attendais`.

Je ne savais pas ce que le mot ``trésor`` dont j'aimerais faire un prénom voulait dire. Alger...c'est un mot qui fait de la musique. Un mot qui veut des majuscules. C'est un brin de lyrisme. Une goutte de chimère. la ville se rassure au soleil et s'éparpille dans sa pudeur.

Ce drapeau, mon dieu, tout ce qu'il a fallu.

Ils sont de la dentelle...

Ce ciel a du talent.

Par un air de musique, on fait des promenades et j'emprunte une route. je ne sais plus choisir quand j'ai le choix.

La route qui se débranche, qui déambule, la montagne, la mer, une espèce d'abondons, une sorte d'exposition en couleurs naturelle. Les regards ne se refusent rien. Les pays kabyles...bougie...

La Kabylie, c'est la préface de Constantine c'est un point d'exclamation. il y a comme un défi dans ce chef d'œuvre. Un socle, un piedestal. la nostalgie nous contemple. Tout en bas la plaine s'étale, sultane au pied de son gardien. et le Rhumel la rejoint. Le Rhumel se libère de sa longue patience.

Ces baigneuses se confondent avec la vie...la vie des éclabousses...par chez moi la vie s'appelle de l'eau. la vie s'appelle aussi, de la musique...ma belle a sa banlieue qui va j'jusqu'au Aurés...`je rentrerai dans Timgad endormie par la porte de Trajan`

A l'ombre du Chelia, Timgad monte la garde sur la fragilité des civilisations.

Je viens de réaliser que le mot ``ruine`` ne voulait rien dire...nous savons que les cimetières ne meurent jamais. Le bonheur se réchauffe au soleil.

Ils viennent de l'horizon, ils vont dans la légende, ils sont la légende et l'horizon. Ils soulèvent le sable et l'épopée. Moins un pèlerinage qu'un rendez-vous.

Tlemcen s'est installée dans sa noblesse. Elle en a conscience. et son excuse est sa beauté. Elle a figolé son berceau. Elle a jalousement conservé un grand moment d'humanité elle témoigne.

Et ses escadres, en chevelures, je sais qu'elles sont le monologue d'un passé qui raconte. Elles ne coulent pas. Elles s'écoulent...elles ont la grâce simple de l'authenticité. lorsque l'histoire bavarde, elle fait toujours des chansons.

Et ses cascades, Tlemcen sans Bou-Medine serait une mouette dans son vol. Ce minaret demeure comme un fabuleux mât de cocagne. Il soutient le ciel comme prête serment. la porte s'ouvre...un cœur à deux battants, un livre d'art. L'islam a dédicacé son message. la musique des mots retrouve sa cadence.

Le m'Zab, une syllabe encore rêve quelque part eu bout de cette phrase qui n'en finit plus...la voilà, toute ramassée toute chaude, toute a du cœur. il en a même dieu et des hommes, Ghardaïa.

La danse ici est une façon de parler...danger, le sable.

Les gazelles nous conduisent, la piste nous attend. Le Sahara qui se souvient de sa réputation, ce seigneur calomnié, s'évertue à déployer ses fastes. il ne sait être que grand. C'est sa manière de nous rassurer. il se réhabilite par son génie. il se venge dans son opulence. Cet artiste a du cœur. il en a même plusieurs. El Goléa : en prononçant ce mot a l'impression d'effaroucher un vol de tourterelle. L'ombre est toute bleu. Les rues s'amuse à se perdre. Les jardins font des merveilles.

Est un effet d'humour ou d'hospitalité, ce lac, que le désert invente pour nous?

Ce lac n'est pas un miracle, c'est peut être un miroir pour ce grand élégant. C'est peut être un regard qu'il renvoie vers le ciel. Ils sont survécus à quelque fin de monde, les chameaux.

L'avion est venu. Le camion est venu. et les chameaux sont les orphelins des prouesses d'antan. de beaux navires à la retraite. et qui s'ennuient sur la grève. Ils ont fait leur temps.

Charles de Foucauld à signer le livre d'or du sable. Un oiseau dans les arbres. je suis sûr que cela n'est qu'un au revoir...

La vie qui veut vivre, que la vie reprenne ses droits. Nous visitons l'alégrésses. et comme partout dans le monde, la vie commence par un mariage.

Ce ne sont pas des coups de fusils, ce sont des cris de joie une manière de ponctuer l'enthousiasme.

Il s'avance un plénipotentiaire du bonheur. Mais il faudra mériter la source. Cette eau que je vais boire je la bois à la source. et la source se défend, fait mine de se défendre alors qu'elle veut me rafraîchir...

La poésie rentre chez elle...une comédie charmante va alors se jouer. la tradition du sud veut que la famille de la fiancée, se considérant lésée, accueille avec hospitalité le futur seigneur et maître.

Elle le punit de l'audace qu'il a de prendre femme. à son tour le soleil rentre chez lui...l'horizon s'ouvre comme deux bras...

Je sais des pays que l'on aborde avec des souvenirs...

Je sais des pays où l'on ne quitte jamais tout à fait...

Pour des vacances en Algérie (27Mai1967)

CE pays qui est grand ; et qui nous vient du bout des temps, rescapé de toutes les crues historiques qui voulaient l'emporter, et qui s'en va au bout du sable, et qui s'en va au bout des cimes, qui nous revient comme une merveilleuse idée fixe, comme une saine obsession, le connaître, le bien connaître, le connaître par cœur, c'est aussi faire œuvre de culture.

On peut dès lors mieux y croire, d'avantage l'aimer encore plus espérer. Ne pas le visiter, quand l'occasion nous en est offerte, C'EST SE PRIVER DE CES JOIES QUE L'ON S'OBSTINE A CHERCHER AILLEURS. Il est si triste le livre qu'on n'a pas lu, dont on n'a pas même découpé les pages ! Ce livre qui ne demande qu'à vous prendre par les yeux, qu'à vous prendre par la main. Il est aussi important de bien connaître son pays que de se connaître soi-même. Pour l'artiste en général, et l'écrivain en particulier c'est là la condition même de son authenticité et de sa représentativité. L'Algérie n'est pas une partie abstraite. Elle est tout à la fois une âme et comparable, vivante, surtout vivante.

POUR avoir beaucoup voyagé je sais combien les voyages élargissent et multiplient les horizons, combien les regards s'équilibrent dans une objectivité plus efficace, combien les appréciations deviennent plus prudents, plus sereines, combien les préjugés ne résistent pas à l'épreuve des contacts, des échanges, des découvertes. Mais je sais aussi que les voyages n'ont pas toutes les vertus et qu'ils ne forment pas forcément la jeunesse, qu'ils la déforment souvent. J'aime beaucoup l'expression : «On en revient vite» parce qu'elle implique une idée de retour. De retour à la source. Chez soi. Chez nous. «On revient vite», cela respire moins la déception que la sagesse.

Le colonialisme nous avait imposé une certaine forme d'Absurde. Notre pays n'était qu'une revendication. Nous n'en disposions pas. Les paradoxes tragiques, inhumains, les non-sens stupides, grotesque, faisaient la loi. Il est impossible d'apprécier un coucher de soleil à l'ombre d'un chapeau qui n'est pas le nôtre. Le colonialisme n'était pas seulement une épouvantable contrainte, une abominable coercition il était une injure permanente aux choses de l'esprit, un blasphème intolérable.

A l'heure de l'agression coloniale – et cette agression dura de 1830 à 1962 – il est évident, que pour les Algériens, l'Algérie incitait peu au voyage, se prêtait mal pour nous au tourisme joyeux, aux vacances détendues. Nous n'étions pas chez nous. Nous étions à la porte de notre logis, à la rue de l'Histoire.

NOUS sommes chez nous aujourd'hui. Ce chez-nous, comme on retrouve une maison longtemps occupée par des intrus, il nous appartient désormais de le visiter, d'en reprendre possession, d'en faire l'inventaire, d'y veiller, d'en faire le tour du propriétaire, de lui insuffler notre âme et notre esprit, de l'équiper. Ce chez-nous a bien sûr ses fenêtres ouvertes sur le monde. Son indépendance ne fait pas sa solitude. Elle permet sa personnalité. Jamais l'Algérie ne fut plus présente sur la terre que depuis qu'elle est libre. A la rue de l'Histoire elle s'installe à nouveau dans le Destin des Hommes.

Cet Absurde qui faisait que nous pouvions connaître Nevers ou Genève et n'avoir jamais mis les pieds à Alger ou Tlemcen – il faut dire que nos pères étaient alors Gaulois et qu'on nous parlait davantage de Guillaume Tell que de Mokrani, -- ces paradoxes qui nous faisaient rêver des neiges de Morzine alors que les neiges du Chélia ont la même éblouissante pudeur, c'est déjà du temps passé, du mauvais temps d'avant juillet, ce juillet qui en fit oublier un autre, un matin de 1962...

C'EST une attitude de colonisé que de ne concevoir des voyages, des vacances, un tourisme culturel ou de loisir, qu'ailleurs qu'en Algérie. Et c'est trop facile. Bien sûr la Savoie, bien sûr Paris, bien sûr Lausanne, bien sûr le confort, tout le confort, le téléphérique, le garagiste, bien sûr le dépaysement... mais jusqu'à quand ! Nous savons évidemment tout ce qu'il y a de reposant pour l'esprit à s'oublier dans des pays qui paraissent poser moins de problèmes et qui nous épargnent en premier lieu le spectacle de la misère. Mais n'y a-t-il pas aussi dans cette fuite quelque chose qui rappelle l'autruche et une certaine paresse, et une certaine lâcheté? Après tout nous sommes ce que nous sommes et il nous appartient de faire sorte de devenir ce que nous voulons être. Il dépend de nous faire en sorte que ce pays merveilleux devienne une terre d'élection de vacances, de tourisme intérieur. Il en a toutes les possibilités et offre des ressources qu'on pourrait ailleurs nous envier. Je demeure persuadé qu'on peut aussi bien guérir d'une primo-infection à Chréa qu'à Comblouse...

Et si cette montagne me plaît je n'affirme nullement sa beauté en disant : «Tiens ! On se croirait en...». Djedjelli-Bougie, les genêts descendent jusqu'à la mer, la mer amoureuse est bleue qui s'amuse à grignoter son rêve : «On se croirait sur la Côte D'azur». Les cèdres de Bou-Hamama qui soutiennent le plus beau ciel du monde : «On se croirait dans les Alpes». Bougie fait penser à Super -Cagne. La rade d'Alger évoque la «Baie des Anges». La Mitidja rappelle la Provence et Tipaza le Lavandou. Quelle dérision ! On se croirait ailleurs. Partout ailleurs, sauf ici, sauf chez nous. Sauf chez nous dans cette Algérie si modeste, si méconnue et qui est si grande dame et belle en ses atours. Cette Algérie qui enchante tant d'étrangers et qui indiffère ceux-là qui ne savent même pas qu'ils vivent près d'un livre fermé qui contient les plus splendides des images.

Le crépuscule que j'ai vu tout à l'heure se défroisser sur la ville, croyez-moi, on ne peut le voir que par chez-nous. Et les cigognes de Sidi-Rached ne l'ignorent pas qui sont toujours attentives à ce miracle de tous les soirs.

Présence algérienne (22/07/1967)

En délivrant sa carte d'identité nationale des lettres Algérienne à Isabelle Eberhardt, Mohammed Salah Débris m'a refait penser à la polémique qui nous agita y a trois ans à propos de la parution de «l'anthologie Maghrébine des écrivains d'expression Française».

Présenté par Albert Mimi, cet ouvrage nous avait pour notre part amené à une définition de l'Algérianité d'un auteur. Il n'est point dans mon propos d'y revenir pas plus qu'il entre dans mes intentions de présenter Isabelle Erberhardt. Mais outre son talent ensoleillé, ce qui m'avait frappé et conquis dans l'œuvre de cette femme c'était, et cela reste, sa générosité. J'ajouterai : Sa générosité Algérienne.

Car il existe une générosité Algérienne (on ne retrouve pas cette générosité chez Camus par exemple). Isabelle Eberhardt lia son destin au destin même de l'Algérie. Il n'est pas jusqu'à la façon dont elle mourut qui ne l'enracine encore à cette terre violente et douce. Elle aima ce pays d'un amour sans partage. Elle l'aima naturellement, spontanément, filialement. Elle se retrouvait totalement en lui.

Certes bien des autres -et des plus fameux- ont vibré à la découverte de l'Algérie. Daudet, Maupassant, Gide, on l'a dit, furent littéralement et littérairement éblouis par cette Algérie de contrastes et de démesure, par ce lyrisme de la plaine, l'audace frémissante de nos montagnes, l'indolence vertigineuse du sable, le monologue confidentiel d'une mer inoubliable, et ces rues de nos vieilles villes qui semble un pèlerinage et une introspection. Il faudrait être frappé d'une insensibilité totale et d'un manque d'imagination affligeant -ou alors être d'une mauvaise foi systématique- pour demeurer indifférent devant tant de talent offert, des apothéoses matinales aux gloires crépusculaires des dunes dessinées par un cosmos surréaliste au flots bouclés d'une méditerranée amoureuse.

Il était donc normal que l'Algérie inspire, ravitalle en émotion des artistes, écrivains, peintres, musiciens, lassé de paysages conventionnels blasés par leurs propres horizons. Il existe chez nous une rencontre des lignes et des couleurs, une densité de lumière et une qualité de luminosité, qu'on ne rencontre nulle part ailleurs. L'idée de «grand» jaillit de nos espaces, la notion d'infini nous saisit aux ultimes frontières du temps et de l'espace à l'orée d'un Sahara qui ne cesse de nous appeler. Et que dire du silence bleu et mauve qui se glisse dans les replis de la plaine ou qui s'argente d'un clair de lune! Silence des hautes terres, amples recueillement, rendez-vous de l'artiste avec son impuissance à mériter tant de richesse, méditation de chaque mètre et chaque seconde, sur une piste qui soudain nous enlève à l'instant...

De la part de ceux qui ont la chance et l'honneur de le chanter notre pays mérite infiniment plus que l'admiration, qu'une simple émotion d'esthète, qu'un fugitif enthousiasme de touriste à l'escale.

L'Algérie commande le respect et appelle la tendresse. Non pas un respect de principe et cet attendrissement inévitable et vaguement vexant que provoque le respect de la misère. Il s'agit tout à la fois d'une gratitude, d'une reconnaissance filiale, et d'une compréhension attentive de son âme, de sa très haute spiritualité, de sa façon d'être.

Dans le cadre de la «connaissance de l'Algérie» par les Algériens eux-mêmes, un voyage d'études et d'informations viens d'être organisé à Tlemcen. C'est là une initiative heureuse

qu'il convient de sans cesse multiplier. L'Algérie est encore trop peu connue de ses propres habitants. Il est évident que les longues distances ne facilitent pas les déplacements mais ces distances ne sauraient être un obstacle ou une excuse lorsque l'on songe que certains n'hésitent pas à chercher très loin à l'étranger un dépaysement de vacanciers que leur pays leur offre.

C'est mal connaître l'Algérie que d'en limiter sa connaissance aux grandes villes qui n'en sont qu'une image et parfois infidèle. L'attrait qu'exerce Alger en particulier, l'attrait légitime, ne saurait reléguer dans je ne sais quelle pénombre provinciale le reste du pays et pas seulement sur le plan d'une villégiature. Intellectuellement, culturellement la respiration nationale doit s'opérer sur l'ensemble du territoire. Je pense en tout premier lieu à notre université, à sa décentralisation rationnelle et salubre qui, tout en dégorgeant la capitale, équilibrerait en la répartissant la vie scolaire du pays. Il en résulterait un étalement équitable des activités de l'esprit : conférences, concert, expositions, etc...

Toujours dans le cadre de cette décentralisation il serait souhaitable et profitable à tous que des artistes se fixent à l'intérieur du pays qui ne se sent aucune vocation à être un parent pauvre. Notre jeunesse y trouverait un encouragement et l'artiste l'occasion de se confronter à des réalités qu'il n'imagine pas toujours ou qu'il conçoit mal en vivant loin d'elles.

Indépendamment de toute autre considération ne pas bien connaître l'Algérie c'est se priver de bien des joies.

Ces joies qui justement renouvellent un enthousiasme.

Tourisme et culture (09/03/1968)

Sous la neige, sous le soleil, sous les siècles qui ont la vie si longue, Timgad, capitale d'éternité, se raccroche aux temps modernes par le miracle de la culture et la magie du tourisme. Désespérément présente et comme voulant survivre à son passé, la Porte de Trajan s'ouvre sur les prestigieux horizons des hautes-terres, et le Chelia qui veille à côté prend le relais d'une autre histoire en affirmant la massive et rassurante pérennité de l'Algérie. Le silence par ici a des mots qu'on voudrait lui emprunter, et le vent qui descend des Aurès a le talent des flûtes qui savent si bien raconter. De son aurore à son crépuscule, le jour n'est qu'une intarissable confidence, un monologue biographique. Le temps et la durée se confondent. Le verbe a trouvé son maître et le paysage devient un recueillement. Cette tombe là-bas est comme la borne des chemins qui montent. Ce fellah qui s'en va répète une espérance...

De Saida à Tébessa et du Hoggar au Djurdjura, l'Algérie est parsemée de ces lieux vénérables ou séduisants, épiques ou reposants, ces lieux privilégiés autour desquels l'Histoire et la Géographie s'évertuent à nous émouvoir et à nous émerveiller, et qui sont une invitation permanente au tourisme et à la culture.

Si l'on exclut le vacancier qui généralement demande à ses vacances de lui offrir repos et distractions, sollicité en premier lieu par le besoin de «récupérer», de «changer d'air», de se distraire, bref de rompre d'une façon ou d'une autre le rythme habituel de sa vie, l'idée de

tourisme s'associe de plus en plus étroitement à la notion de visite, de découverte, de connaissance d'un pays donné ou d'une région particulière. Dès lors le tourisme est un acte culturel et la notion de loisir s'imprègne de préoccupations intellectuelle et artistique qui tendent à la modifier. De ce fait encore le tourisme ne suppose pas seulement des structures d'accueil et une infrastructure routière et matérielle, il suppose aussi l'organisation de circuits pittoresques et historiques que, sans reléguer au second plan les soucis de confort, lui impose une autre motivation. Le touriste n'est pas seulement un vacancier qui se propose une villégiature et le vacancier lui-même s'offrira des excursions, des découvertes.

L'idée et la décision de donner des dimensions nouvelles au Festival de Timgad, la légitime ambition d'en faire une manifestation culturelle de portée et de classe internationales s'inscrivent dans cet esprit de procéder de ce but. Aucun endroit en Algérie peut-être, n'est mieux placé, entre l'hier et l'aujourd'hui, entre la plaine et le sable, sur les pans solennels et héroïques des Aurès. Il est de par le monde des pays, moins riches en «décors naturels» que le nôtre et qui pourraient nous envier nos trésors. L'Algérie n'a pas seulement du soleil à offrir, elle a un passé à présenter, un présent à expliquer, une âme et un génie qui l'honorent. Entre la Méditerranée et le cœur de l'Afrique, au centre du Maghreb et au plus profond du monde arabe, elle est par vocation un pays touristique.

Frenda, dans le Serou et les grottes des «Prolégomènes», Tlemcen, à l'ombre de Sidi-Boumedien aux ruelles mesurées et émouvantes comme une phrase de Mohamed Dib, Djurdjura qui médite avec Si Mohand et chante avec Amrouche, printemps de Guelma et de Sétif avec ce lycéen qui devait devenir Kateb Yacine, l'arc-en-ciel de Dinet dans l'oasis de Bou-Saâda, la Passion d'Isabelle Eberhard dans les soleils enchantés d'Ain Sefra, les regards de lumière de Ben Badis à Constantine, la gloire silencieuse du Cheikh El-Aid sous les palmes de Biskra, M'Sila et la caméra visionnaire de Lakhdar Hamina, le talent d'un pays s'est transmis à ses enfants de l'Algérie n'est plus qu'une anthologie qui ne demande qu'à s'ouvrir...

«Tourisme passeport pour la paix». Cette phrase magique, imprimée en lettres minuscules peut se lire les enveloppes et nos timbres oblitérés par nos P et T. une simple petite phrases que peu de gens remarquent et qui est pourtant tout un programme, et qui est pourtant tout un message. Une simple petite phrase qui résume et définit la finalité ultime du tourisme : connaître et reconnaître les hommes, se retrouver en eux sur cette terre qui est notre patrie suprême. Tourisme, passeport pour la paix, au visa spontanément accordé de l'amitié et de l'estime, sur une carte de géographie qui doit de plus en plus ressembler à une carte d'identité : celle de l'homme enfin cultivé et enfin fraternel...

Débouchant naturellement sur la Culture, le tourisme rapproche les hommes et nous permet ce regard attentif et déférent sur un autre qui nous ressemble plus qu'on ne le croit. Il peut et doit s'élargir jusqu'aux dimensions d'un véritable humanisme, avoir raison de préjugés et de pré-jugements qui faussent tellement souvent les données réelles de la connaissance objective.

Enfin, dans un pays comme le nôtre, un pays qui a tellement souffert qu'il n'est pas un seul lieu qui ne soit historique, qu'il n'est pas un seul endroit qui ne soit légendaire, le tourisme, par la magie du souvenir et la vertu de la fidélité, devient comme une belle page que l'on relit, comme un pèlerinage serein qu'on entreprend...

Littérature et activités paralittéraires

Les techniques audio-visuelles (22/Avril/1967)

NOUS avons vu depuis ces dernières années, la première moitié du vingtième siècle approximativement, l'écrivain se tourner volontiers et naturellement vers l'enseignement le Journalisme pour pouvoir matériellement se consacrer à son art. Nous avons dit que ce faisant, ce deuxième métier n'était pas un, pis-aller accepté avec plus ou moins de gaité de cœur et exercée avec plus ou moins de réussite. Il est évident que tous les écrivains ne font pas profession de journalistes ou de professeurs, qu'ils exercent par fois les métiers les plus variés et que certains peuvent de par la rentabilité de leurs tirages se consacrent exclusivement à leurs travaux littéraires. Ils sont rares.

Il est apparu, depuis relativement peu de temps, dans les possibilités d'action de l'homme de lettres, un élément nouveau : les techniques audio-visuelles. Ce monde tout neuf encore sollicite de plus en plus l'écrivain et lui offre l'occasion d'exercer un deuxième métier qui est en quelque sorte le prolongement direct de son art, une application concrète de cet art : Radio, cinéma, disque, adaptation théâtrale, émission télévisées. En jargon de métier on appelle cela avec un injuste mépris : « faire de l'alimentaire ». (L'Art, lui, n'étant pas censé se salir dans de prosaïques contingences).

S'il n'existe pas à proprement parler de différence de nature entre la Littérature et le Journalisme, si l'enseignement – principalement celui des Lettres – ne dépayse pas trop le poète et le romancier, ils exigent néanmoins de ce dernier un effort, une adaptation, qui ne coïncident pas toujours avec ses véritables et profondes tendances, son tempérament et sa vocation. Par contre, les techniques audio-visuelles, outre qu'elles font découvrir à l'écrivain l'Univers sensible de l'image et du son, ne contrarient pas – généralement – ses efforts d'expression. Bien au contraire, elles les élargissent, les renouvellent – et sans tomber dans le goût du jour qui serait une trahison et une lâcheté – elles peuvent donner à une œuvre une portée vivante que la chose écrite recèle mais que tout le monde, hélas, ne peut découvrir. Dans un pays frappé par l'analphabétisme, la littérature, par le truchement de l'image et du son, trouve là de puissants et efficaces moyens de rayonnement, de vulgarisation respectueuse et respectable, de diffusion à l'échelle des masses. Le livre porte en lui sa gloire et sa malédiction. Même très largement diffusé, lu et enseigné il est prisonnier d'une sorte de solitude. Rien ne peut bien sûr remplacer – et rien ne le remplacera jamais – mais il se multiplie à l'infini lorsque le lecteur devient auditeur ou spectateur.

LES techniques audio-visuelles sont par définition et par vocation des techniques appelée à toucher le plus grand nombre, à pénétrer le plus larges masses. Elles rayonnent au plein sens du mot. Il n'est pas un coin d'un pays, si grand soit-il qui ne sert à la portée de la radio – du transistor surtout –, il n'est pas un village si éloigné soit-il qui n'ait pas une fois par semaine sa projection de film. Dans beaucoup de pays – et dans le nôtre la chose se fera – la télévision quadrille littéralement le territoire. Sociologiquement parlant on ne peut encore mesurer toutes les conséquences de cet événement et de cet avènement. Dans le domaine strictement culturel, la télévision et le disque bouleversent toutes les données établies et donnent à repenser les dimensions des œuvres de l'esprit. Il n'est pas jusqu'à

l'Enseignement lui-même qui n'échappe à l'emprise des ondes et du micro-sillon. Déjà l'école peut venir à nous, déjà des cours magistraux d'Université sont dispensés et diffusés par le truchement quasiment magique de l'électronique. Le théâtre télévisé multiplie à l'infini le nombre des spectateurs et l'audience d'une œuvre. On peut désormais parler d'une culture de masses.

Nous assistons semble-t-il à un juste et merveilleux retour des choses.

PRENONS la poésie par exemple. A l'aube des temps et dans tous les pays, la poésie fut essentiellement orale. Le verbe alors régnait en maître. Des troubadours et des trouvères de langue d'oc et d'oïl, aux poètes arabes et berbères des villes et des villages, la poésie était à elle seule un spectacle dont le poète était la vedette. De nos jours encore, chez nous en Algérie, -- et particulièrement dans le Sud -- on peut voir ces « inspirés » improviser leurs œuvres en s'accompagnant d'un violon monocorde dont les déchirements dont penser au « langoureux vertige » dont parlait Baudelaire.

Dans le Hoggar le magnétophone permet de fixer des chants touaregs qu'il est juste de recueillir. On connaît les dangers de la tradition orale et de la chose parlée, leur grande fragilité, leur grande précarité. Qu'il s'agisse de musique andalouse ou de poèmes sortis, jaillis des entrailles du terroir, la plume, et aujourd'hui la bande magnétique, sont là pour les préserver de leur seul ennemi véritable : le Temps. Le temps, à la longue, n'a pas de mémoire ; l'écriture et l'enregistrement nous en mettent désormais à l'abri. On ne rendra jamais assez hommage à Jean Amrouche d'avoir pieusement recueilli et édité les poèmes et les chants berbères de Kabylie, à sa sœur de les chanter et de les avoir récemment fait graver dans la cire. Un merveilleux disque en effet de Taos Amrouche est sorti l'an dernier, un 33 tour qui est tout à la fois une œuvre d'art poignante et un document culturel inestimable, aux « Editions de la Boite à Musique » à Paris.

NOUS disons plus haut que nous assistions à un juste retour des choses. En effet, à propos de poésie justement, l'invention de l'imprimerie, malgré ses incalculables, ses innombrables bienfaits, avait enfermé cette poésie dans le carreau étroit, inerte et figé de l'écriture. Un poème se lit certes, mais il se dit d'abord. Il est fait pour être dit pour être chanté, pour être entendu, écouté. Les Editions Pierre Seghers, éditions spécialisées dans la publication de poésie, l'ont compris qui conjointement au livre éditeur le disque. Ces poèmes de grandes poètes, dits par de grands comédiens, se lisent et s'écoutent, ce qui est d'un apport décisif dans la connaissance et de la compréhension d'une œuvre. La chose écrite se libère de son inertie et s'anime jusqu'à nous.

Il est évident que les moyens audio-visuels ne concernent pas la simple littérature. Ils embrassent toutes les formes de l'activité culturelle en leur donnant une dimension nouvelle, une vie en quelque sorte ressuscitée, une présence inattendue.

Plaidoyer pour la radio (16Septembre1967)

La télévision connaît chez nous, en Algérie, comme d'ailleurs un peu partout dans le monde, un succès qui tend à éclipser celui de la radio. Ce prestige et cet engouement s'expliquent aisément. L'image livrée à domicile est un spectacle quotidien, bien vivant, bien

concret qui ne demande pas l'effort d'idéation et d'imagination que sollicite une émission radiophonique. On peut le regretter.

On peut le regretter et il ne s'agit pas d'opposer d'une part la Radio à la Télévision. Ce sont là deux univers et deux techniques qui ont leurs dimensions propres, leurs moyens et leurs procédés spécifiques et qui cependant sont déterminés par la même destination : distraire, informer, instruire et éduquer. Autrement dit, ce ne sont pas leurs buts qui distinguent et différencient la Radio et la Télévision.

Il est incontestable, indéniable, que la retransmission en direct ou même en différé d'un match de football à l'écran a une valeur documentaire, une valeur vécue en quelque sorte, infiniment plus convaincante qu'un reportage au micro seulement. Il en est de même pour une émission de variétés, une émission théâtrale et quand il est assorti d'illustration, d'un bulletin de nouvelles. lorsqu'on écoute une chanson à la Radio et lorsqu'en l'entend et la « voit » à la Télévision, la même chanson, interprétée par le même artiste, revêt néanmoins une présence plus dense, un pouvoir de communication plus intense. Elle fait vibrer davantage notre sensibilité et notre affectivité.

Néanmoins, il serait faux de présenter la Radio et la Télévision comme deux activités audiovisuelles concurrentes. Dans les faits c'est pourtant ce qui se passe et la même famille qui possède à la fois un récepteur télé et un poste de T.S.F. se regroupe exclusivement le soir autour du premier. Il ne lui vient même plus l'idée de consulter les programmes qui alimentent le second. On peut dire que dans l'ensemble, la Radio n'est plus écoutée et suivie que là où la Télévision ne parvient pas encore. Nous insistons sur le fait que ce phénomène ne se constate pas seulement en Algérie mais qu'il affecte à des degrés divers, les pays équipés pour donner et recevoir l'image. Et c'est à ce titre qu'il est intéressant de l'aborder.

En Europe, par exemple, des postes émetteurs de Radio, dits périphériques, ne réussissent à conserver leur audience qu'en systématisant l'emploi de la publicité, en multipliant les émissions en direct, les enquêtes, en donnant toutes les heures des bulletins d'informations, en organisant des émissions qui durent toute la nuit ou qui exploitent ce qu'il y a de sensationnel dans un fait marquant de l'actualité. Mais l'audience de ces postes ne résiste pas à l'annonce d'un beau programme télévisé et certains d'entre eux l'ont compris qui ont leurs propres émissions en images.

Est-ce à dire que la Radio est sérieusement menacée par la Télévision ? nous ne le pensons pas. Comme nous ne pensons pas que le cinéma soit en déclin, à cause du succès du petit écran. S'il y a certes, crise dans le cinéma, les causes en sont ailleurs. La télévision est encore à la recherche d'une écriture qui lui soit propre et le cinéma, quant à lui, a été amené à repenser ses méthodes et son style.

Il faut d'autre part, compter avec l'engouement du public pour les techniques nouvelles. Sans devenir blasé, le public en arrive un jour ou l'autre à modérer son enthousiasme, et, très exigeant par nature, à regretter et à retrouver des modes d'expression qu'il croyait dépassés.

Par définition, la Télévision est une entreprise lourde, hautement équipée et en quelque sorte tributaire et prisonnière de sa propre technicité. Pour enregistrer et diffuser, pour conjuguer simultanément la parole, l'image, le son et la musique, elle dispose d'un matériel qui la limite dans sa mobilité. Quant aux émissions en directs, elles ne tolèrent pas le

moindre trou, la moindre défaillance. Le travail de studio, lui, est minutieux, méticuleux. Car il est évident que la Télévision ne conteste pas seulement à filmer du théâtre, à repasser des films que le grand écran a déjà présentés, à saisir au vol et à reproduire l'événement dans son actualité fugitive. La Télévision consiste d'abord à donner une production qui lui soit spécifique, originalement appropriée. Elle suppose un travail de conception et de réalisation exécuté tout spécialement le petit écran. on ne manie pas une caméra en vue de faire un film pour la télévision comme on la manie pour réaliser un film pour les salles de cinéma. Les scénarios, les textes, les commentaires, les dialogues, la musique, la durée elle-même, le montage, tout se fait et doit se faire en fonction du petit écran.

Une pièce radiophonique par exemple ne se monte pas comme se monte une pièce télévisée. Le micro permet des mystères savoureux, des images subjectives, des silences que l'auditeur remplit, complète et finalement interprète lui-même. La mise en onde est en fait une véritable mise en scène inférieure et c'est là le tour de force et presque la magie. La pensée communique directement avec la pensée, libérée de l'image qui se reconstitue en nous, infiniment plus présente que l'image à l'écran, chargée et lumineuse de tous les points de suspension dont notre réflexion l'accompagne.

Les ondes ont leur propre éloquence et leur propre sortilège. Je crois personnellement que l'image n'ajoute rien à leur pouvoir. Le mélomane le sait bien qui écoute les yeux fermés la symphonie qui le transporte, qui le prend par les yeux et le conduit au-delà de l'univers sensible, dans ces régions de haute altitude où la pensée s'épure de tout ce qui l'encombre. Il n'est pas besoin de voir une flûte pour suivre sa plainte et son gémissement dans les contrées de sables enchantés, de mélancolie sereine, à l'appel nostalgique d'une âme, d'un vent sous les étoiles, d'une émotion au clair de lune. Le poème qui s'écoute à l'instant du grand rendez-vous avec soi-même, s'écoute lui aussi, les yeux fermés, dans ce monde merveilleux qui s'intériorise, un monde de communion totale, de recueillement et de frémissement.

Le micro, le simple micro, permet une participation directe de l'auditeur, une collaboration à l'écoute d'un univers qu'il reconstitue. Et cette reconstitution qui dépend d'un état d'âme et d'un état d'esprit, fait déjà de lui un metteur en scène. Le micro est discret et s'efface devant notre compréhension, il laisse jouer notre imagination. La télévision elle intervient directement, nous impose ses images et fait plus appel à notre attention qu'à notre rêverie. Elle est précise, concrète, elle présente un visage, un paysage, une scène, et lorsque l'écran s'éteint, le mot FIN met véritablement un ferme au spectacle.

La Radio ne se meurt pas. Ses possibilités deviennent énormes et étonnantes. Elle a lié son destin à ce qui caractérise le mieux un homme : le Verbe et la Musique.

Son et lumière (07 Octobre 1967)

Parmi les techniques audio-visuelles qui sont venues donner ses dimensions sensibles à la Culture, qui la fixent et la multiplient et, de ce fait, participer grandement et activement à sa conservation, à son développement et à son rayonnement, il en est une, relativement récente, et qui n'a peut-être pas encore révélé toutes ses ressources et toutes ses possibilités originales : le spectacle **Son et Lumière**.

« Inventé » dit-on, une nuit d'orage par un châtelain qui à lueur des éclairs et dans les déchaînements du tonnerre et de la tornade, découvrit les beautés de son château, sa « présence » tragique et sa **vie mouvementée** le Son et Lumière repose sur une des magies les plus spectaculaire du monde : **la Nuit**.

La nuit a du talent et, chez nous, en Algérie, elle a du génie. Elle simplifie les univers en même temps qu'elle leur confère un mouvement profond, souterrain, mystérieux. Elle est d'abord mystère, donc théâtre. Elle semble se suffire à elle-même et réveille en nous une faculté que le jour sollicite peu : l'imagination. De l'imagination au rêve, il n'y a qu'un pas, un seuil que l'on franchit au crépuscule. La nuit est une invitation aux grands voyages dans le temps et dans l'espace, aux grandes évocations, aux grandes reconstitutions historiques.

Un lieu, un haut-lieu, un décor, de la lumière, un commentaire, de la musique... La technique est relativement simple, élémentaire. L'éclairage agit ici comme la mémoire qui fait sortir de l'oubli le souvenir ressuscité, il actualise un événement dans son cadre. Le projecteur explore la nuit, explore le passé. Le micro commente, la musique crée et recrée l'atmosphère ; des bruitages, dans un souci de réalisme, donnent à l'ambiance sonore une saveur du document et de témoignage. Le spectacle est arraché à la nuit, il devient une victoire sur la nuit du ciel et sur la nuit de l'oubli.

Logiquement, naturellement, le son et Lumière est appelé à jouer un grand rôle en Algérie, pays où la nuit est d'une qualité rare, pays de haute densité historique, de légende et d'épopée ; on y trouve partout des vestiges des civilisations révolues, des ruines, des monuments, de ces lieux et de ces haut-lieux dont nous parlions tout à l'heure, villes fameuses, champs de batailles, palais des âges et de la gloire, citadelles, places-fortes, vieilles rues qui s'enfoncent au creux d'une âme.

Il est des pays où chaque ville historique possède son spectacle « Son et Lumière » pour peu qu'elle ait vieux manoir, une tour en ruines, un pan de fortifications ou des lambeaux d'arènes, tant il est vrai que tout passé est vénérable. Les pierres ont leur sortilège. La Grèce, refait parler son Acropole, la Loire, en France est une monographie éloquente, et le Sphinx raconte au Nil l'histoire des premiers temps.

Spectacle de la nuit et de la belle saison par excellence, le Son et Lumière a son essor directement lié à celui du tourisme. Il doit, soit s'inscrire dans le cadre de circuits de visites, soit être programmé dans un ensemble de festivités, il est évident qu'on peut le régler une fois pour toutes, l'enregistrer, pour ainsi le reproduire autant de fois qu'on le désire. Il peut être construit sur un thème précis ou sur une large évocation d'un panorama historique, il peut être la simple présentation éclairée et commenté d'un site ou nécessite l'emploi de voix illustres ou anonymes, de chœurs au rythme de plans sonores appropriés.

Dans tous les cas, le Son et Lumière permet à la voix Humaine de prendre possession, véritablement possession des univers. Il affirme sa royale suprématie, son impériale éternité. Alors qu'au théâtre ou qu'au Cinéma, la mise en scène, le jeu des comédiens – leur présence physique –, les costumes, l'action elle-même, alors qu'à Théâtre et au Cinéma tout cet ensemble s'impose à nos regards et ne fait de nous que de simples spectateurs, au contraire, le Son et Lumière, nous entraîne au-delà de la simple image, dans le Temps, dans le Temps retrouvé. En prenant possession des univers, des êtres et des choses, la voix humaine donne

leur ultime signification aux êtres et aux choses. Elle parle pour eux, en leur place, en leur âme.

Et l'Histoire se réveille et sort des livres, et sort des musées, et sort des journaux, et sort des confidences de la nuit | Ce ravin qui revit nous dira le printemps assassiné de 1945, et ce drapeau dans l'ombre, et cet espoir dans la pénombre. Ah | Si le Rhummel pouvait parler | mais il sait parler | la pierre est toute chaude d'impatience, de lyrisme-potentiel, le rocher, ce monument monumental qui se comptait dans le pléonasme et se plait dans sa légende, le clair-de-lune lui redonne ses dimensions premières, et qu'il raconte un peu sa vie, mille et une nuits ne pourraient lui suffire... L'imagination déborde de toute part, comme un torrent en crue, éclairer le Mont Chélia d'une lumière plus forte que tous les feux de Bengale du monde, rendre jalouses les étoiles, aller jusqu'à la Casbah lui demander de nous parler d'Alger, aller jusqu'aux déserts leur demander de nous parler des gazelles, cette ombre dans la rue c'est peut être Ben Badis, cette silhouette au bord de l'eau c'est peut-être Ben M'hidi.

La voix de l'homme a le pouvoir de rejoindre l'éternité, qu'elle soit prière, colère, invocation, évocation. Elle se confronte à la mort. Voix d'outre-tombe, voix d'outre-siècle, par la seule magie de sa présence et de sa conviction, elle peuple les forêts encore mieux que les oiseaux, elle s'interroge dans la plaine encore mieux que le vent, elle se grave dans la pierre encore mieux qu'une inscription.

Les spectacles Son et Lumière ont d'ores et déjà droit de cité dans le monde de la Culture. Cette technique nouvelle est en vérité vieille comme le monde, vieille comme les hommes. Il suffit pour s'en convaincre de voir au clair-de-lune le Passé se rapprocher de nous dans les coulisses fabuleuses de la nuit.

Présence et mission du cinéma Algérien (Samedi 09/12/1967)

Le Cinéma Algérien a déjà fait ses preuves. Il les avait déjà données avec Yasmina et Les fusils de la liberté, à la lumière des armes, alors que l'Algérie portait un dernier coup au colonialisme. Depuis l'Indépendance une série de courts-métrages avait prélué à la réalisation de films que chacun connaît désormais depuis « La Bataille d'Alger » au « Vent des Aurès » en passant par « L'aube des damnés », « La Nuit a peur du Soleil » et « Une si jeune paix ». Nous apprenons tout récemment que mohamed-Lakhdar Hamina vient de commencer avec Rouiched le tournage de « Hassen Terro ». D'autre part, les projets sont nombreux que caressent des réalisateurs impatients de s'affirmer dans une œuvre. Le grand écran et la télévision ont leurs adeptes et leurs servants et il est certain qu'ils nous réservent encore de bonnes surprises. Enfin l'engouement du public pour le film donne ici la mesure de l'intérêt que tout le monde porte pour ce qui est à la fois une industrie et un art.

Le Cinéma Algérien est né de la guerre et n'a été possible que par notre Indépendance. De par sa nature même il ne pouvait, comme la littérature ou la peinture, s'imposer au système colonial, se faire malgré lui.

Entièrement dans les mains de la puissance occupante, exigeant d'énormes moyens matériels et une liberté d'expression alors impossible et impensable, le cinéma de l'époque coloniale était et rejoignait la même forme d'oppression et d'aliénation caractéristiques de l'emprise impérialiste. Il transposait à l'écran des thèmes exploités dans l'optique de la

légitimation du colonialisme, de son apologie systématique, au mépris de toute vérité historique, de toute authenticité sociologique et de tout respect de valeurs cependant hautement vénérables. Il était le cinéma de la conquête cynique et de l'exotisme suspect. Son grand succès commercial était très significatif et montrait à quel point le colonialisme était entré dans les mœurs occidentales, comme une évidence qu'on ne discutait plus, qui ne choquait nullement. On retrouve d'ailleurs la même bonne conscience et la même ignorance dans toute une littérature qui nous fut imposée et qui demeure comme le plus monstrueux hommage édifié à la gloire du racisme avoué ou non, de l'exploitation des hommes dans un paradis d'oisifs et d'aventuriers désespérés. De grands écrivains comme Gide et un immense poète solitaire comme Saint-Exupéry n'échappent pas à cette mauvaise tentation.

Il y aurait beaucoup à dire sur cette littérature qui découvrit les pays chauds en général et l'Algérie en particulier. Son même pêché se retrouve dans le cinéma d'alors. Un cinéma qui découvrait les hommes bleus, la Croix du Sud, les pistes oubliées, les Sidi-Brahim, le sable chaud et le Képi du légionnaire.

les grenades du jardin d'Allah au corsage d'une prostituée, la virilité douteuse d'un Pépé le Moko, les vents de sable, l'escadron blanc et le Bled aux sortilèges d'un Orient de contre-plaqué... Le cynisme et la muflerie n'étaient pas que ces films fussent tournés mais qu'on nous les imposât alors sur nos écrans. Il est vrai que le colonialisme ne reculait pas devant les fautes de goût.

Il fallut donc attendre notre guerre de libération et notre indépendance pour que l'Algérie, prenant en main ses destinées se donne enfin, le cinéma qu'elle mérite, un cinéma qui la re-situe dans son véritable cadre, dans la merveilleuse complexité de sa pensée profondément original, bref dans son authenticité.

Ce n'est pas être tenté par je ne sais quelle malsaine autarcie intellectuelle, par je ne sais quel chauvinisme étroit et stérilisant, par un absurde narcissisme national, que d'affirmer et d'admettre que seuls des Algériens peuvent bien parler de l'Algérie, peuvent la chanter, la sentir, la ressentir. Pour savoir un pays, il faut être de ce pays, lui appartenir de toute son âme, de toutes ses fibres, être lié à lui par des racines qui plongent au plus loin d'un passé et d'un instinct. Si Aragon chante si bien son Paris c'est qu'il en est le produit historique et la somme littéraire. Si Kateb Yacine comprend le Rhummel c'est qu'il en a les accents terribles. Si Choukri est né du Don c'est qu'il a vécu son fleuve. Federico Garcia Lorca ne pouvait qu'être Espagnol et Césaire de son île. Ramuz ressemble au Valais et Pablo Neruda à la Cordillère des Andes. C'est là une vérité première et qui se vérifie sans cesse. La Turquie de Pierre Loti n'est pas celle de Nazim Hikmet. Et le talent n'y est pour rien le plus souvent... Au niveau supérieur des préoccupations de l'homme les œuvres se rejoignent. Les montagnes se rencontrent et la géographie s'avoue vaincue, c'est déjà le miracle de la Culture universelle et ce chant général qui a besoin, pour cette universalité d'être secrétée et fécondée par la « terre charnelle ».

Le Cinéma Algérien a le redoutable honneur et l'énorme privilège de faire connaître l'Algérie à elle-même et de la révéler au monde. Plus rapidement et plus largement que la littérature, la peinture ou la musique -- et c'est sa propre nature qui l'y prédispose -- le film touche les plus larges masses. Sa surface nationale et internationale fait naturellement de lui un témoin et un ambassadeur. N'oublions pas qu'il demeure avec la télévision la seule

expression culturelle à avoir une telle audience, à l'intérieur, comme à l'extérieur de nos frontières.

Il n'est pas un art mineur, un art facile. Il est un art véritable, majeur, adulte, en possession de ses méthodes, de ses procédés et de son écriture.

L'Histoire dira même, s'il n'est pas le plus complet de tous les Arts...

Pouvoir et sortilège de l'image (02/03/1968)

Le cinéma n'est plus la distraction des dimanches.. Une nouvelle culture est en train de naître, qui inquiète l'honnête homme d'hier, attaché aux formes traditionnelles, qui ont fait leurs preuves, de l'enrichissement et de l'exaltation : littérature, peinture, musique, etc. le cinéma, pour un nombre toujours plus grand de jeunes, tient lieu de tout cela. On peut le déplorer, mais c'est une fait : une nouvelle civilisation, celle de l'image, est née.

Ce phénomène nouveau, ce phénomène inédit de la deuxième moitié du vingtième siècle, dont Claud Mouriac prend acte, ne concerne pas seulement la France ou l'Occident en général ou les pays nantis, il se retrouve partout, dans le monde, à des degrés divers, et l'on peut en effet désormais parler d'une **civilisation de l'image**. Une image vivante, une image sonore et soutenue musicalement, une image parlante, qui risque de reléguer au deuxième plan de l'écriture et le livre, offrant au spectateur la jouissance spontanée et fugace de la vision, au détriment peut-être de la réflexion, de l'incomparable réflexion solitaire.

Le règne et la souveraineté de l'image ne s'affirment pas seulement à l'écran mais gagnent la presse : photographies, bandes dessinées, ciné-feuilleton. En matière de publicité même, l'image tend à compléter puis insensiblement à remplacer le slogan. La littérature enfantine la plus sérieuse est de plus en plus illustrée. La poésie elle-même demande souvent à la peinture et aux arts graphiques le coup de crayon qui la commente pour les yeux.

Pour beaucoup, pour la grande majorité des spectateurs, nous pensons, quant à nous, que le cinéma est la distraction du dimanche. Que sa qualité en fasse une manifestation culturelle prouve simplement que la culture peut être attractive, séduisante, s'apparenter à une forme supérieure du loisir.

En simplifiant les choses à l'extrême on pourrait dire que l'on ne va pas au cinéma pour s'instruire, pour se cultiver, mais que l'on s'instruit et se cultive en y allant. C'est là d'ailleurs le résultat sinon le but des techniques audio-visuelles.

Le cinéma est un Art, un Art à part entière qui du septième rang a pris la première place si l'on en juge par son audience. S'il ne veut pas tourner en rond, devenir un exercice de style ou la recherche spectaculaire de l'effet à grande et somptueuse mis en scène, s'il veut devenir autre chose qu'un passe-temps et qu'un plaisir fugitif des yeux et de l'esprit, il ne doit pas craindre d'être ambitieux, à savoir devenir **l'Art Suprême**, celui qui réunit et continue en lui tous les autres, littérature, peinture, musique, chorégraphie, etc... Cela ne signifie nullement que le film n'a pas, artistiquement parlant, sa personnalité propre, bien au contraire. Sa réalisation a ses lois particulières, ses impératifs d'optique, de durée et de

montage qui en font une création originale. Le metteur en scène signe une œuvre comme le romancier signe un roman ou le peintre une toile, il lui apporte sa marque incomparable. Mais alors que le romancier, le peintre ou le musicien font œuvre solitaire, au cinéma, le réalisateur préside à un travail de groupe, un travail d'équipe, tour à tour artisanal et tour à tour industriel, travail, qu'il a mission de coordonner et d'inspirer.

Dans un pays comme le nôtre, le cinéma n'est pas appelé à jouer son rôle, il le joue déjà, et depuis longtemps, et pas toujours dans le sens qu'on pourrait souhaiter. En effet, l'on va trop souvent au cinéma parce qu'on s'ennuie, parce qu'il faut tuer un après-midi qui prend les proportions de l'immortalité, ou parce qu'il n'y a rien d'autre à faire. Et trop souvent on offre aux spectateurs, à nos jeunes surtout, des thèmes de violence, les horizons malades d'une sensualité morbide et d'un érotisme malsain. La création et la multiplication des ciné-clubs – de ciné-clubs largement ouverts –, sont d'une utilité qu'il n'est plus à démontrer. Et pas seulement à l'usage des initiés, des mordus comme on dit. Car le danger qui guette un ciné-club est qu'il devienne une sorte de chapelle, une sorte de loge, dans laquelle on retrouverait toujours les mêmes adeptes. Ceci serait contraire à la nature, même du cinéma qui est par définition un art de masse.

Pour qu'un film valable atteigne son véritable but, c'est-à-dire pour qu'il soit porteur de culture et que cette culture soit reçue, il ne faut pas que le spectateur assiste passivement au spectacle qui s'offre à l'écran. Ce qui revient également à dire qu'il ne suffit pas de projeter un film mais qu'il convient de le présenter d'abord et de le discuter ensuite. De ce fait la création de ciné-club doit elle aussi obéir à la grande loi salutaire de la décentralisation et de la répartition de la culture à l'intérieur du pays. On peut même envisager des équipes mobiles qui iraient dans nos campagnes les plus reculées pour participer à la diffusion et à la compréhension de cet Art.

Lorsque nous parlons de cinéma, nous n'en dissociions pas la télévision qui est son expression la plus mobile et la plus renouvelée. Dès que la RTA sera en mesure de couvrir – et cela, en grosse partie ne saurait tarder – l'ensemble du territoire national, un grand pas, un très grand pas sera franchi, tant dans le domaine de l'information vivante que dans celui de la culture et des loisirs. Il faut dire que la Télévision réalise le vieux rêve pédagogique de tous les Educateurs : instruire d'une façon attrayante. Car c'est là le tour de force de l'écran – qu'il soit petit ou grand – il permet d'amasser, à notre insu presque, une somme considérable de connaissances pas le truchement du divertissement.

Nous pensons particulièrement à nos campagnes qui la nuit venue se referment sur elles-mêmes et que la fin du jour replonge soudain au fond des siècles. Comme la route, comme la radio, comme le téléphone, l'image est un moyen lumineux de communication. Elle a le grand pouvoir et le grand sortilège de les raccorder aux temps modernes.

الفهرس

قائمة المصادر:

- Journal ANNASR, (1965-1968) :
 - La signification d'un drapeau / 5 Octobre 1965 (n°121).
 - La présence de novembre / 28 Octobre 1967 (n°758).
 - Cela s'appelle colonialisme/ 26 Janvier 1966 (n°218).
 - Les yeux et la mémoire/ samedi 18 Mars 1967.
 - La fin d'un mythe/ Samedi 24 Juin 1967 (n°650).
 - La mémoire d'un peuple/ 26 Aout 1967 (n°704).
 - Le racisme cette occasion perdue/ 20 Janvier 1968 (n°829).
 - La Rentrée des Espérances 1er Octobre 1965 (n°118).
 - Le chemin de l'école 9 Septembre 1967 (n°716).
 - L'école et le puits 23 Septembre 1967 (n°728).
 - Ecole primaire et culture 30 Décembre 1967 (n°812).
 - Des instituteurs par milliers 6 Mai 1967 (n°606).
 - La leçon de Boulhilet 20 Mai 1967 (n°618).
 - La repossession d'une pensée 6 Janvier 1968 (n°817).
 - Grandeur et misère de la littérature algérienne
- Problème culturel en Algérie 3/4/5/7/8 Février 1966 (n°225-229).
- Le seul respect que je dois à Camus 18 Février 1967.
 - Les générations se continuent vingt ans et plus 25 Février 1967.
 - De l'écrivain et du lecteur citoyen et sujet 1^{er} Avril 1967(n°577).

- En marge du poème et du roman, Littérature et journalisme 8 Avril 1967(n°583).
- Rencontre avec Mohamed el Aïd, 13 Mai 1967(612).
- Au fil des lettres 15 Juillet 1967(n°668).
- Fixer l'éternité 30 Septembre 1967(n°735).
- L'Art dans la cité, 8 Mars 1966(n°253).
- Autant qu'un champ de blé, 11 Mars 1966(n°256).
- Produire, 11 Février 1967 (n°533).
- à propos de la dernière semaine culturelle : Un grand absent : Ben Badis, 29 Avril 1967 (n°601).
- Culture et pages culturelles, 3 Juin 1967 (n°630).
- La culture affaire du monde, 2 Décembre 1967(n°788).
- Culture et niveau culturel, 23 Décembre 1967 (806).
- Culture et mieux être, 13 Janvier 1968 (n°823).
- Culture normale et décentralisation, 3 Février 1968 (n°841).
- Le pays profond, 17 février 1968 (n°853).
- Le retour des cigognes, 24 Février 1968 (n°859).
- La culture problème national, 16 Mars 1968 (n°877).
- MARHABA. 03 Sep 1965 (n°94).
- Pour des vacances en Algérie 27 Mai 1967 (n°624).
- Présence Algérienne 22 Juillet 1967 (n°674).
- Tourisme et culture 09 Mars 1968 (n°871).

- En marge du poème et du roman : Littérature et activités paralittéraire (les techniques audio-visuelles) 22 Avril 1967 (n°595).
- Plaidoyer pour la radio, 16 septembre 1967 (n°722).
- Son et lumière, 7 octobre 1967 (n°740).
- Présence et mission du cinéma Algérien, 9 Décembre 1967 (n°794).
- Pouvoir et sortilège de l'image, 2 Mars 1968 (n°865).

قائمة المراجع:

- محمد قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1966، عن مجلة الوطن العربي، العدد 354.
- د شرف عبد العزيز، اللغة الإعلامية، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1991.
- Bakri Tahar, Malek Haddad l'œuvre romanesque, pour une poétique de la littérature maghrébine de langue française, l'Harmattan, Paris, 1986.
- Bonn Charles, La Littérature algérienne de langue française et ses lecteurs, imaginaire et discours d'idées, Ottawa, éditions Naamane, 1974.
- Malek Haddad, l'Elève et la leçon ,
- Sonia Branca- Rossoff, L'Institution des langues autour de René Balibar, édition de la maison des sciences de l'homme, Paris, France, 2001.

قواميس:

- Jean M. Jabbour, Le grand Mounge Français-Arabe, Librairie Oriental, première édition 2008, Beyrouth, Liban.

رسائل جامعية:

-Hariza Hadda, Enjeux et finalités du discours argumentatif dans l'œuvre journalistique de Malek Haddad, mémoire présentée en vue de l'obtention du diplôme de magister, Constantine 2008-2009.

الدوريات:

- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد الخامس، جوان 2009.
- Confluent, revue mensuelle (Janv-Fev-Mars), 1965 n°47.
- Expression, Revue de l'institut des langues étrangères, spécial colloque Malek Haddad, Janvier 1994, université de Aïn-el-Bey, Constantine, Algérie.
- El Watan, 30 /11/2010.

المقالات:

- Malek Haddad, « Les zéros tournent en rond », François Maspero, Paris, 1961.
- Noriyuki Nishiyama, « Assimiler ou non les indigènes dans l'empire colonial français-les indigènes devaient-ils apprendre le français », Université de Tokyo, Japon.
 - Linda Lehmil, L'édification d'un enseignement pour les indigènes : Madagascar et l'Algérie dans l'empire français,

labyrinthe (en ligne), 24 /2006 (2).mis en ligne le 25 Juillet
2008, consulté le 31 mai 2013, labyrinthe.revues.org/1552

مواقع إلكترونية:

- labyrinthe.revues.org/1552

-www.cijoint.fr

الفهرس:

المقدمة:.....(5-1)

التمهيد:.....(7-6)

الفصل الأول:

- مدلول علم (9-8) .

- حضور نوفمبر..... (11-10) .

- دخول الآمال..... (13-12) .

- طريق المدرسة..... (16-14) .

- أدب وصحافة..... (19 -17) .

- عظمة الأدب الجزائري وشقاؤه..... (33-20) .

- الفن في المدينة..... (35-34) .

- ثقافة ورفاهية..... (37-36) .

- من أجل عطلة في الجزائر..... (40-38) .

- مرحبا..... (42-40) .

- حضور السينما الجزائرية ومهمتها..... (44-43) .

- صوت وضوء..... (47-45) .

الفصل الثاني:

1- الاستعمار:.....(48)

1-1 النزعة العنصرية للمستعمر..... (50-49) .

- 2-1 الذاكرة الحية (52-51).
- 3-1 امتداد فكرة الاستعمار (53).
- 4-1 البعد الإنساني للثورة (54).
- 5-1 ذهنية التبعية (56-55).
- 2- المدرسة: (57).
- 1-2 المدرسة الإستعمارية (61-57).
- 2-2 الدور الحيوي للمدرسة في حياة الفرد (63-61).
- 3-2 المشاكل التي واجهها التعليم غداة الاستقلال (64).
- 4-2 إشكالية التعريب (68-65).
- 3- الأدب: (69).
- 1-3 الأدب الجزائري بالتعبير الفرنسي قبل الاستقلال (71-70).
- 2-3 أثر الثورة في أدب ما قبل الاستقلال (73-72).
- 3-3 الموقف من الكتابة بالفرنسية (75-74).
- 4-3 مأساة التعبير لدى الكاتب (78-76).
- 5-3 موقف الكاتب من اللغة الفرنسية (80-79).
- 6-3 الدور الإيجابي للغة الفرنسية (81).
- 7-3 حقيقة صمت الكتّاب الجزائريين بعد الاستقلال (84-82).
- 8-3 فعل الكتابة والإبداع (87-85).
- 9-3 من هم الكتّاب الجزائريون؟ (90-88).

10-3 علاقة الأدب بالصحافة (94-91).

الفصل الثالث:

1- الثقافة: (95).

1-1 مفهوم الثقافة (96).

2-1 تأخر التعليم والحياة الثقافية (97).

3-1 دور المثقف غداة الاستقلال (98).

4-1 مشكلة الأمية (100-99).

5-1 الحق في الثقافة (101).

6-1 لا مركزية الثقافة (102).

7-1 عالمية الثقافة (105-103).

2- السياحة: (106).

1-2 سياحة لاكتشاف الذات (107).

2-2 الغربة السياحة (109-108).

3-2 السياحة الثقافية (110).

4-2 جولة في الجزائر (113-111).

3- الوسائل السمعية البصرية (114).

1-3 الأدب في ظل الوسائل السمعية البصرية (115).

2-3 حضور الصورة يعوض سحر الاستماع (117-116).

3-3 استقلال السينما الجزائرية (119-118).

3-4 دور التقنيات الحديثة في تفعيل السياحة.....(120-121).

الخاتمة.....(122-124).

ملخص اللغة الأجنبية.....(125-126).

- السيرة الذاتية لمالك حداد.....(127).

- مؤلفات مالك حداد.....(127).

- جريدة النصر في سطور.....(128).

قائمة المصادر والمراجع.....(216-220).

الفهرس.....(221-224).

فهرس المقالات باللغة الأجنبية:

- La signification d'un drapeau.....(129).

- Cela s'appelle colonialisme.....(130).

- Les yeux et la mémoire.....(132).

- La fin d'un mythe.....(135).

- La mémoire du peuple.....(137).

Présence de Novembre.....(139).

- Le racisme cette occasion perdu.....(141).

- La rentrée des espérances.....(142).

- L'école des souvenirs.....(144).

- Le chemin de l'école.....(145).

- L'école et le puits.....	(147).
- Ecole primaire et culture.....	(149).
- Des instituteurs par milliers.....	(151).
- La leçon de Boulhilet.....	(153).
- La repossession d'une pensée.....	(155).
- Grandeur et misère de la littérature algérienne.....	(156).
- Le seul respect que je dois à Camus.....	(164).
- Les générations se continuent vingt ans et plus.....	(166).
- Citoyen et sujet.....	(167).
- Littérature et journalisme.....	(196).
- Au fil des lettres.....	(171).
- Fixer l'éternité.....	(174).
- L'art dans la cité	(175).
- Autant qu'un champ de blé.....	(177).
- Produire	(179).
- Un grand absent Ben Badis.....	(180).
- Culture et pages culturelles.....	(182).
- La culture affaire du monde.....	(184).
- Culture et niveau culturel.....	(185).

- Culture et mieux être.....(187).
- Culture normale et décentralisation.....(189).
- Le pays profond.....(190).
- Le retour des cigognes.....(192).
- La culture problème national.....(194).
- Marhaba.....(195).
- Pour des vacances en Algérie.....(197).
- Présence Algérienne.....(199).
- Tourisme et culture.....(200).
- Les techniques audio-visuelles.....(202).
- Plaidoyer pour la radio.....(203).
- Son et lumière.....(205).
- Présence et mission du cinéma algérien.....(207).
- Pouvoir et sortilège de limage.....(209).

